إطلالة على التراث

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء السادس عشر

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

إطلالة على التراث

الجزء السادس عشر

تأليف

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الرياض - الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ

٨١٠,٨ الخـويطـر ، عبدالعزيز بن عبدالله .
٦٣٦خ إطلالة على التراث / عبد العزيز بن عبدالله بن علي الخويطر .
– ط١. – الرياض: ع . ع . الخويطر، ١٤١٥هـ / ١٩٩٦م .
مج ١٦ : ٤٨٠ ص؛ ١٤,٥ × ٢١ سم .
ردمك : ٨ – ١١٨ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (مـج ١٦)
٥ – ١١٤ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (المجموعة)
١ ـ الأدب العربي – مجموعات . ٢ – الحكايات العربية .
٣ – السعودية – المقالات العربية .
أ ـ العنـــــــوان .

رقم الإيداع : ٠٥٧٥ / ١٥
ردمك : ٨ – ١١٨ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (مـج ١٦)
٥ – ١١٤ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (المجموعة)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو الجزء السادس عشر من سلسلة إطلالة على التراث، لحق بإخوته السابقين، ليحذو حذوهم، وينحو نحوهم فيما جاؤا من أجله، وما رموا إليه، وليأخذ النسق الذي أخذوه، وليسير على النهج الذي اختير لهم؛ ويؤدي الغرض الذي من أجله ألفوا، والهدف الذي من أجله كتبوا، ونشروا، ولا يختلف عنهم إلا في المواضيع التي اختيرت له مما لم يرد في الأجزاء السابقة؛ فهو بهذا، وعلى هذا، يخدم جوانب جديدة من العقل، ويلمس أموراً لم تلمس من قبل، ليفتح بهذا نوافذ جديدة لقارئ اليوم على رياض التراث الخضراء، ويسقي من معين نبع نصوص التراث أفواهاً عطشى إلى معرفة ما كان عليه الآباء والأجداد، وما قالوه، وما فعلوه،

وما فكروا فيه، فسجلوه، وما جاء منهم مقيداً للحقيقة، وما جاء محلقاً في الخيال، وما يكمن وراء هذا من أسباب، وما يختفي وراء ذاك من علل. جاء هذا الجزء ليساهم في رسم صور عن الماضي، تضم إلى ما سبق أن رسم في الأجزاء السابقة؛ وموضوعات هذا الجزء مثل السابقات، لا رابط بينها إلا الهدف العام، وهو تعريف جيل اليوم بطريقة مختارة، يرجى أن تكون موصلة، بتراث الآباء، بحيث يلمس ذلك أموراً مختلفة، تختار لأنها تري نشر فضيلة، أو دحر رذيلة، وتكشف عن مجتمعات مرت بما نمر به، وعالجتها بطرق مختلفة، لعلّ معرفتها، وهي حصيلة تجارب، أن تفيدنا في معالجة ما يقابلنا، دون حاجة إلى المرور بمرارة التجارب، لنوفر جهداً، ووقتاً، ولنسعد في هذه الدنيا بتفادي الأخطاء، ولا نشقى بمعاناتها، فموقف

مر به غيرنا أَحْرِ به أن يكون لنا واعظاً، فنتفادى الوقوع فيما وقع فيه سابق، وأن ننحو نحو من نجح في تجربته، فنتخذه قدوة ومثلًا؛ وما فضل الكبير على الصغير، والشيخ على الشاب إلا أن الأول استفاد مما مر به في حياته، فلا يعاني التعب مرتين، ولا يقع فيما يعرف أن عليه تفاديه، والعصور السابقة هي شيوخ الزمن، وعصرنا وما يأتي بعدنا هي شباب الزمن.

ومن المواضيع التي طرقها هذا الجزء «السباع والطير في الحروب» ويرسم هذا الموضوع صورة صادقة لما كان يقع في الحروب مما قد لا يتنبه له إلا المتتبع؛ وهي صورة تتكرر مع كل الحروب في الصحاري، وتكاد تنطق بلسان فصيح، قائلة مصائب قوم عند قوم فوائد، فبنوا آدم يقتتلون، وينحر بعضهم بعضاً، ليكونوا مائدة شهية لطيور كاسرة، تحوم فوق ميادين القتال،

لتنعم بما هيأه الناس لها من لحوم الناس، جثثاً، وأشلاءاً؛ ليكونوا طعاماً سائغاً لكواسر ضارية، تحجل من بعيد، لتنقض على القتيل، ولتقضي على الجريح والمحتضر.

لم يفت هذا المنظر الشعراء، وهم ذوو الإحساس المرهف، فقد وصفوه وصفاً بديعاً؛ واتخذه بعضهم مصدر فخر عندما يكون القتلى من أعدائه، وتحسراً وأسىً عندما يكونون من حزبه. ولقد أبدع الشعراء في هذا، وجاؤا بصور ناطقة لما يكون عليه حال ميدان القتال، من تربص الطير حائماً، وانتظار السبع مقعيا متحفزاً.

يرسم الشاعر صوراً متقنة للطير حائمة، وللسباع منقضّة، وللطير ناهشة، وللسباع والغة؛ صورة لابد منها ليكمل مسرح القتال، وليتكامل الممثلون على خشبته؛ هذه صورة من

صور الصحراء، عاشها آباؤنا، وعانوا منها؛ صورة مرعبة؛ قال لي أحد كبار القوم - عليه رحمة الله - لقد وجدنا كف قتيل حملها كاسر من الكواسر إلى وكره، ورأينا خاتمه واسمه عليه؛ ذهب اللحم في حوصلة الطير وفراخه، وبقي الخاتم ليدل على جريمة الإنسان؛ ولو لم يكن صاحب اليد قتيلًا لكان قاتلًا، وربما كان قتيلًا قاتلًا!

ولقد وصل الأمر بأحد صعاليك العرب المعدودين أن يقول شعراً، يحرم فيه على من حوله دفنه، ويطلب أن يكون وليمة للضباع!

إذاً فالأمر في وقتهم، وقد ألفوه، ليس مفزعاً، ولعل أكل السباع للقتيل أفضل من أكل التراب، ترى هل هذا في ذهن الصعلوك الشنفرَى، أو تأبط شراً، أو في أذهان فرسان الجاهلية جميعاً، أو عدد منهم!؟

ويذهب خيال الشاعر بعيداً، فيتصور أصوات النسور، بعد أن شبعت، هزيجاً، تدل به على رضاها وسعادتها؛ وهي صورة لا تخلو من سخرية، غناء للنسور في موقع المعركة، ونحيب للنساء في البيوت؛ هذا هو ابن آدم فارس مقدام، يصول في ميدانٍ بسيف ورمح، تأتيه طعنة قاتلة، فيسقط يتخبط بدمه، فتأتيه طيور لا تجرؤ على القرب منه من قبل، فتختار من جسمه أطراه، ومن عظمه تختار السباع أقساه.

ويقرب الشاعر في وصفه هذه السباع، وهذه الطيور، من الفهم الذكي، الذي يساوي الحيوان بالإنسان، فيضفي عليه من الذكاء والمعرفة ما يجعله يعرف أن القوم بتجمعهم، وحملهم أسلحتهم، وطريقة استعدادهم وسيرهم، في طريقهم إلى معركة تنتهي بمأدبة شهية له؛ فهو

يتبع القوم منذ بدء سيرهم حتى انتهاء المهمة، واثقاً من الغاية، ومتأكداً من النهاية، فإن لم يكن حظه مع هؤلاء، فهو مع أعدائهم.

بل إن أحد الشعراء ذهب بعيداً فجعل الطير تحلق فوق الذئب، عارفة أنه لابد أن يصيد ما لا تستطيع صيده، فهي تتبعه أملًا في أن يكون لها نصيب مما يترك بعد أن يأخذ مراده؛ ترى هل تعلم الطير، كذلك، أن الذئب، من عادته إذا هجم على قطيع الغنم، ألا يكتفي بقتل واحدة، وإنما يتعداها إلى أخرى وثالثة ورابعة، وربما أكثر من ذلك؛ ولا يعرف السبب في ذلك، وقد يكون عمله هذا القصد منه أن يؤمن طعاماً ليومه وغده وبعد غده.

والذئب لئيم، شرس شره، حدثني شيخ كبير السن عن رجل آخر كبير السن، عن زمن مضى قبل حكم الملك عبدالعزيز، عندما كان

قطع الطريق سائداً، ونهب الحجاج مغنماً، أن ثلاثة من الأعراب، من قبيلة عرفت بالشراسة والعنف، كانوا يقطعون الطريق، ويسرقون الحجاج، وقد انقطعوا لفئة معينة من الحجاج، لابد أنهم وجدوا فيهم مغنماً مغرياً، وقال: كنا نتبعهم، وقررنا أن يكون هجومنا على ممتلكاتهم عندما يتجهون للمدينة المنورة، فلما وصلوا إلى ما بعد ينبع، قررنا أن يكون الهجوم في تلك الليلة، عندما ينام القوم، وحينئذ يكون القوم منهكين مجهدين، ونومهم عميق، وكأن القوم أحسوا أن هذا المكان هو المكان المخوف، فاحتاطوا بأن جعلوا الجبل ظهراً لهم وحامياً، وأتقنوا الحماية من جانبين، ولم يتركوا للوصول إلى داخل الإقامة إلا طريقاً واحداً، وضعوا على طرفيه رجالًا، يتعاقبون الحراسة خفية، ووضعوا حبلًا قوياً، يمسك

المناوبان طرفيه، ودفنوه في التراب، فإذا دخل اللص صاحوا به، فإذا أنكف، وعاد ليهرب، جروا الحبل، فارتفع في طريقه، فأوقعه، وقد تمت هذه الخطة بتدبير متقن، ووقع اللصوص الثلاثة في الفخ، وأسرهم القوم.

وكان الحُجاج تحت قيادة رجل كبير السن، حنكته التجارب، وأنضجته السنون، فأمر من معهم بربطهم بالحبال من أكتافهم إلى أقدامهم، كما يمهد الطفل في القديم، وأمرهم أن يحفروا حفراً ثلاثاً بطولهم، فأسقطهم فيها، ودك التراب على أجسادهم، ولم يبق إلا رؤوسهم، فأصبحوا في حالة سيئة من جراء ضغط التراب على صدورهم، حتى لم يعودوا يستطيعون النطق.

وصلى الحجاج صلاة الصبح، وأوقدوا ناراً لإفطارهم ولما انتهوا، وجاء وقت الرحيل،

تركوا المكان بالضيوف الثلاثة المهانين! وبعد رحيلهم مباشرة نزل ذئب شرس من الجبل، ولعله كان ينتظر رحيل الحجاج، ليبحث في منزلهم عن شيء يقيته؛ ولقد رأى الذئب الرؤوس البارزة قريباً من النار، فلم يصدق عينيه، فأراد أن يختبرها، ويتأكد مما رآه، فكشر عن أنيابه، وأصدر صوتاً يدل على التحدي والعداء؛ فلما لم يأته إجابة من الرؤوس الثلاثة، استدار، ثم أخذ يرمي بالتراب على الرؤوس، ليرى ما يمكن أن يأتي منها من دفاع أو هجوم، فلما رأى أنها لا تقابل التحدي بمثله قرر اتخاذ الخطوة النهائية، فانقض على أحدهم، وأخذ يزيل التراب قليلًا عن أسفل الرقبة، فلما تم له ذلك أطبق على ما مكنه من التغلغل حتى وصل إلى أعلى الرئة، فاستلها مع ما جاورها، وأخذ يلغ في الدم، ويجر ما تمكن منه من الداخل، ثم

التفت إلى الثاني، وبدأ يفعل به مثل فعله بالأول؛ وفي هذه الأثناء انحدرت ذئبة من الجبل، فتصدى لها بعنف، وطردها، وأقبل يكمل في الرجل الثاني ما بدأه.

ويقول الراوي، وهو الثالث من الرجال، لقد يئست من الحياة، وتأكدت أنه سوف يثلث بي، وهذا من طبيعته، فأصابني إعياء فوق إعيائي، وتولاني رعب ما بعده رعب، وتصورت ما سيجري لي، وطريقة موتي، والآلام التي سوف أعانيها، والوجه الكالح الذي سوف يكون آخر ما أرى في هذه الحياة، وتيقنت أن الأمر لا يعدو أن يكون دقائق، ويأتي دوري، لأقضي حتفي؛ ولكن يبدو أن الذئب قد شبع، وأنهكه الجهد، فاقترب مني، وحفر حفرة عميقة عند رقبتي، تجاه المغرب، ودخل فيها، لينام، وليتقي حرارة الشمس،

التي بدأت ترتفع، وكانت رقبته قريبة مني، والتراب الذي أزاحه أعطاني الفرصة ليخرج كتفي، لأستطيع أن أنحني تجاهه، ثم ما لبث أن نام، وخرجت منه رائحة كريهة، وتجمع الذباب على وجهه.

فكرت في حيلة للنجاة، واهتديت أنه لا أمل لي إلا أن أطبق على رقبته بأسناني، وفعلت ذلك بكل ما تملكه أسناني من قوة، فتنبه، وأخذ يحاول الفكاك جهده، وزدت في إطباق أسناني عليه جهدي، رغم الألم الشديد الذي أعانيه فيها، وَلِقوّته استطاع الإفلات، ومعه أسناني، وذهب سريعاً لا يلتفت مذعوراً.

أخذت أتحرك في حفرتي، وتدريجاً بدأ التراب ينزل قليلًا قليلًا، فازدادت حركتي، يميناً ويساراً، أماماً وخلفاً، مع محاولة للارتفاع، فتم لي ذلك، فأخذت أتدحرج إلى أن وصلت

مكان النار، وفيها بقايا جمر بدأ يخمد، فرميت بظهري عليه، فأحرق ظهري، وأحرق الحبل، وتخلصت من أسري، وسجدت لله شكراً، وتبت إليه، وسألته الغفران، وأرجو أن يكون الرزق الحلال الوافر الذي أنعم الله به عليّ دليل غفران وقبول ورضى، فلي قطيع من الإبل، وقطعان من الأغنام.

هذه قصة تري جشع الذئب، وعدم اقتناعه بما يكفيه لإطفاء جوعه، ولكنه يسعده أن يفسد القطيع بكامله لو ترك وشأنه.

والموضوع الثاني من مواضيع هذا الجزء يخص المرأة، والمرأة مادة دسمة في هذه الأيام في كل البلدان، مقارنتها بالرجل على الأفواه، وهو شغل بعض الأذهان الشاغل؛ وقد عَرَضَ الموضوع لفئات من النساء مختلفة، أظهر في بعضها موقع المرأة من المجتمع، وصلتها

بالرجل، والمواقف التي كانت فيها مثله، والمواقف التي بزته فيها، والمرأة للرجل الطبيعي ملء السمع والبصر، فهي أم أو أخت أو ابنة أو زوجة، أو مثل هؤلاء في الصلة، ووجوب التقدير والاحترام.

في القصص التي سيقت في هذا المقال صور مضيئة للمرأة، تشرفها، وتشرف بني جنسها؛ وفاقت المرأة في بعضها الرجل، قولاً أو تدبيراً وتصرفاً؛ لأن الله عندما أعطى الناس العقول أعطى المرأة حقها وافياً صافياً، والقصص المذكورة عنها، في هذا المقال، تؤكد هذا؛ والمرأة اليوم مع التعليم ضمنت لنفسها اعترافاً بالمستوى الذي وصلت إليه عقلًا، وحسن تقدير للأمور، وإجادة تصرف فيها؛ ولقد أصبح من بين النساء، بجدارة وحق، أستاذات جامعة، يشار إليهن بالبنان، وطبيبات نطاسيات،

وباحثات جاء على أيديهن ما فتح سبلًا واسعة في الإبداع، والاختراع، والاكتشاف؛ مما يؤكد أن خمائر الأذهان والعقول واحدة، وأنها إما أراض خصبة، لدى الرجل والمرأة، تزدهر عندما يوضع فيها البذر الصالح، وتسقى بالماء النمير، أو أراضٍ سبخة، لا يصلح فيها السقي ولا العناية.

وإذا كان حظ المرأة في القديم، فيما سجل عنها، من مواقف شرف، وتصرف حميد، ممتدح، فإن ابنة اليوم حتى الآن لم يسجل لها إلا القليل، ولعلها تلتفت لحقها هذا، فتعتني به هي، ولا تنتظر الرجال، ليعلنوا عن بروزها، وتميزها، فهي مؤهلة لذلك، وعدم مبادرتها يعد إهمالًا منها في حقها، وحق بنات جنسها؛ لقد كتب الرجال في عصرنا الحديث عن الطرائف، والنوادر، وما أتى من الرجال من خوارق

الأمور، نتيجة عبقرية من نوع أو آخر، ولم يكتب عن المرأة من المرأة في هذا ما يشفي الغليل؛ وعدم الالتفات لهذا الأمر مما يحير، ويلفت النظر؛ فكثير مما يجري في البيوت من الطرائف بين النساء والرجال، والنساء والأطفال، والنساء والخدم، والنساء والنساء، يستحق أن يأخذ طريقه للنشر، ويكون صورة بهجة صادقة لهذا الجانب المنسي.

وفي الموضوع الثالث نلج إلى التراث لنرى ما فيه عن «العمل»، والعمل ملازم للإنسان رغماً عنه، فالإنسان يعمل منذ أن يبدأ يتحرك في رحم أمه، ولو لم يعمل لما خرج منه؛ وكل شيء في الإنسان يعمل: غُدده وخلاياه، وأعضاؤه بأجزائها؛ ؛ ولو توقف شيء منها عن العمل لاختل الجسم، حسب دور ذاك العضو المختل، أو الجزء المعتل، ولا يقف الإنسان بأجزائه عن

العمل إلا إذا مات.

عمل الجسم هذا مجبر عليه الإنسان، ولا حيلة له فيه، ولا سبيل إلى إيقافه، ولكن هذا ليس العمل الذي ركز عليه التراث، وما جاء عنه من قصص، أو مواعظ، أو حكم، أو نصائح.

فالعمل المقصود في المقالة هو عمل الإنسان، الذي تقوم به الجوارح من خارجها، بوحي من داخلها، به يكسب الإنسان رزقه، وبه يوجد لنفسه مكاناً في المجتمع، ويبتعد عن العالة على الآخرين، وبه يساهم في إكمال مجتمعه، وبه يضع لغيره، في نجاحه، قدوة تحتذى، ومثلًا ينهج عليه.

وقد بُحث العمل من جوانبه المختلفة، وكيف كانت النظرة إليه عند آبائنا، نظرة مَنْ

جد واجتهد، ونظرة من لم يجد ولم يجتهد، ونظرة من حاول ونجح، ونظرة من حاول وأخفق، وموقع هذا، وموقع ذاك، وثواب هذا، وجزاء ذاك.

في المقال مَرَامٍ يحتاج الإنسان إلى أن يعرفها، ويتدبرها، ففيها من تجارب غيره، ومن أقوالهم، ونصائحهم، ما يوفر على العاقل جهداً، وعمراً، ووقتاً؛ لقد عالجوا الأمر من جوانبه المختلفة، وما جاء في المقال هو نتف مما توصلوا إليه، وزوايا من صور رسموها، يمكن لمن أراد أن يستكمل عنها في الكتب التي وردت فيها، وأجلها وأسماها القرآن الكريم، ثم السنة الشريفة، يلي ذلك ما جاء من العلماء والحكماء والمجربين، ففي تلك المراجع مرتع خصب، ومورد عذب.

ولا يكفي أن يعمل الإنسان، إذ لابد أن

يكون العمل متقناً، ويقدم عليه الإنسان براحة واطمئنان، ويتخذه هواية، لا يمل إتيانها، وبأكمل أسلوب وأتمه، وكل حركة من الإنسان عمل، وليس العمل وقفاً على ما يجلب الرزق؛ وإنما هناك عمل يجلب الراحة؛ وكان أساتذتنا في الصغر يزرعون فينا إتمام ما نقوم به على أحسن الوجوه، ويؤكدون أنه إذا كان في هذا تعب في أول الأمر، فإن فيه راحة في آخره، وكانوا يطلبون منا حفظ الأبيات الآتية، وجعلها أمام أعيننا دائماً، نسير فيما نفعل في ضوئها، ولا نخرج عن إطارها، ففيها النفع الذي تنطق به، والفائدة التي تحملها كلماتها، والأبيات هي:

إِنَّ الَّـذِيْ يُـرَتِّـبُ   مَتَـاعَـهُ لَا يَتْعَـبُ
فَكُـلُّ شَيْءٍ عِنْـدَهُ   فِـيْ مَـوْضِعٍ أَعَـدَّهُ
متَـى يَعُـدْ إِلَيْـهِ   يَجِـدْهُ فِـيْ يَـدَيْـهِ
منْ غَيْرِ بَحْثٍ يُجْهِدُهْ   وَلَا زَمَـانٍ يَفْقِـدُهْ

حُسْنُ نِظَامِ العَمَلِ يَضْمَـنُ نَيْـلَ الأَمَـلِ

ثم يأتي مقال عن النصائح، وهي مهمة في حياة الفرد، تأتي من العالِم، ومن المجرب، ومن الوالد أو الوالدة؛ تأتي دُرَراً منظومة في عقد من المودة، والغيرة على الفرد، أملًا في أن تنير طريقاً، أو طرقاً، في الحياة؛ وغالباً ما تكون نتيجة معاناة، وملامسة لحوادث الحياة، عَتَّقَها فكر صاف، وبلورها ذهن قارح، يراد بها أن تكون قواعد ثابتة، وسفينة لمن أهديت له، تسير بِهِ في بحر الحياة اللجي، إلى ميناء السلام، ومرفأ الطمأنينة والسعادة.

وقد وقفت المقالة عند نصيحة واحدة، جمعت عاطفة الأبوة، وحرصها، وما تمتلئ به من حب الابن، وشفقة الوالد عليه، ونرجوا أن يكون الولد وعاها، وأن يعيها غيره ممن هو في مثل حاله، من شباب اليوم، وممن يتطلع للمستقبل.

وتكاد هذه النصيحة الضافية تكون وصية لابن الناصح، ولقد ألمت بأطراف الحياة التي سوف يحياها ابنه؛ لمست كثيراً من الآداب اليومية، ووضعت الأسس للتصرف في حدود ما هو مقبول من المجتمع، ويرمي إلى عزة منفذ النصيحة، ورفعته في مجتمعه؛ وكانت من الشمول، ومن الدقة، بحيث كشفت عن عمق تفكير قائلها، وما أَمَرَّهُ منها على بوتقة عقله، وتدبره.

والنصائح سبل إنقاذ، تأتي من المخلص، فيستفيد متلقيها منها قبل الإقدام على ما وضعت له؛ أو تأتي لاحقة، فتلمس بيد النطاسي، ما قد يكون الزمان جاء به من حادث، قد يترك ندوباً، تحتاج إلى طمس، والتئام؛ ومع أنها من فرد لفرد، في ظرف بعينه، إلا أن بعضها يصلح أن يكون مشاعاً يستفيد منها كل من له حظ من الفائدة.

والمقال الأخير هو عن كتاب، له قيمة أدبية، وفكرية، واجتماعية، حوى علماً وجمالًا، ولا غرو في ذلك، فهو عصارة تجربة علماء فطاحل، إذ جُمِع، حسب فهمهم وذوقهم، من منابع نمير متعددة، جاء ما جمع زبدة ما قيل، ليناسب الغرض الذي أوجد من أجله، وهو تأديب خليفتي المستقبل، وتأديبهما عن طريق الأدب اللائق بهما، وهما سيكونان حاكمين لأزهى عصور الدولة الإسلامية.

وعرض ما في كتاب «الاختيارين» يطول، ولا يشفي إلا نقل الكتاب كاملًا؛ إلا أن المقام لا يتسع إلا لنتف مضيئة في زوايا مهمة، تعرض هنا لتُري فكراً، أو رسماً، أو تعبيراً، أو أسلوباً، أو منحى حياة؛ ؛ وفي ما اختير هنا، وسيصبح بهذا الاختيار الثالث، فيه ما يكفي لإعطاء فكرة عن الكتاب، لعلها تكون حافزاً لقراءته كله،

من قبل من اقتنع به، عن طريق الأمثلة المسوقة.

وسيكون هناك بعض الاستطراد المتكرر، مما اقتضاه المقام، واعتقد أن فيه فائدة، فهو إما لنفع جانبي، أو لفائدة مضافة، أو تفسير غامض، أو لتصحيح مفهوم؛ والاستطراد ليس غريباً على «الإطلالة»، فهو أحد أهدافها لإبعاد الملل، وتجديد النشاط.

والقصائد المتتالية في هذا الكتاب هي سجل صادق، لما كان عليه العرب، في حياتهم في الصحراء، في حلهم وترحالهم، وسلمهم وحربهم، خصبهم وجدبهم، ليلهم ونهارهم، صيفهم وشتائهم؛ لقد جاءت هذه القصائد بتفاصيل مسهبة، وأوصاف دقيقة؛ وأرت عادتهم في بدء القصائد، ثم سيرهم فيها إلى الغرض الأساس، الذي من أجله قال الشاعر قصيدته.

ولم آت على كل القصائد، لئلا يطول المقال أكثر مما خصص له من حيز في هذا، وما تركت لا يقل في أهميته، وفي قوته، وفي جماله، وفي دقة الصور، عما أتيت به؛ إلا أني أرجو أن يكون ما اقتبسته من هذا الكتاب الثمين، وافياً بالغرض، ومعطياً صورة صادقة، لما كان عليه القوم في محيطهم، وفي عصرهم، وما كانوا يألفونه، وما كانوا ينفرون منه، وما هي عاداتهم، وتقاليدهم، وما كان سائداً بينهم من منهج ارتضوه لحياتهم، قد يكون للبيئة دخل في تشكيله؛ و ما جئت به يشجع القارئ على الاطلاع على ما لم آت به، ويكون له مع الكتاب المختار جلسات، يريح بها ذهنه، ويزيد معلوماته، ويعرف لمن هم أصله شيئاً، من الحق عليه أن يعرفه؛ وإذا كان يعرفه من قبل، فلا أقل من أن يجدد الصلة، ويزيل تراب الزمن عما قد كان نسيه، وبالله التوفيق.

السباع والطير في الحروب

لم يترك العربي في صحرائه منظراً إلا رسمه، ولا حركة من الحركات فيها إلا سجلها، وانتقل بعد ذلك، أو مع ذلك، من المحسوس إلى المعنوي؛ فسجل بهذا كل شيء، وبتوالي القرون، ومرور الأجيال، تراكبت الصور، وتكررت الرسوم، وجاء كل واصف بفكرة جديدة، أو دخل على فكرة قديمة من زاوية مبتدعة؛ فتجمعت صور لا تكاد تحصى لكل أمر.

وجاء ما سجل شعراً، أو في صورة حكمة، أو مثل، ديواناً أميناً، حفظ هذا التراث، فلا تكاد تفكر في أمر إلا وتجده محفوظاً، بطريق ثرة في عصر الجاهلية، أو عصر الإسلام، أو فيهما معاً؛ وأي راغب في تتبع فكرة من الفكر ما عليه أكثر من أن يقرأ ويدون، وسيجد أن

الحصيلة مذهلة، لا يكاد الإنسان يحصر ما جاء عنها.

وبعض هذه الأفكار لصدقها، ولالتصاقها ببعض الأفكار، جاءت في أشعار متأخرة، وهي لا توجد في بيئة الشاعر، ولكنه تصورها، وتصور أن الموقف؛ الذي يتطرق له، لا يصبح مستوفياً إلا بها، فجعل التصور في الخيال واقعاً في الحقيقة.

وقد اخترت صورة من تلك الصور التي ارتبطت بحروب العرب في الجاهلية والإسلام، وكانت صوراً ملازمة للغارات، وملتصقة بالغزوات؛ ويُؤتى بها ومعها فخر يحرص الشاعر على تسجيله، ولفت النظر إليه، لما يرى فيه من أهمية، ولما يجد أنه بدونه تبقى صورة ميدان المعركة ناقصة؛ ولعل في ذكره أيضاً نوعاً من الإخافة، والإرهاب، وحقاً إنه لكذلك. وهذا قد يملأ قلب بعض الرجال، أو من

خلفهم من النساء، من الاندفاع إلى الحرب، أو الحث عليها.

والصورة هي أن تترك الجثث، والأشلاء بعد المعركة في ميدانها، مائدةً شهية لكواسر الطير، وضواري السباع، تنهش فيها؛ وتهين وجوهاً كريمة، وتقطع أجساداً سوية عزيزة، بعد أن هان أمرها بالهزيمة، وقل شأنها بالقتل؛ فأصبحت نهباً للحيوان والطير، دون أن تجد مِنْ ألصق الناس بها العنايةَ بها ودفنها؛ إما لأن الوقت يضيق عن ذلك، أو القدرة تقصر عنه، أو لاختلاط الأشلاء، وانطماس المعالم؛ أو لخوف كرة العدو، مما ينتهي بفاجعة أكبر من الأولى.

بل إن المعارك لم تعُد فقط هَمَّ الرجال المتقاتلين، والقبائل المتنازعة، وإنما شعرت السباع، من ذئاب وضباع وغيرها، ومن نسور وعقبان،

بأن الأمر يهمها أيضاً؛ فالغنيمة محققة بمجرد أن تَرى القبيلة متجمعة لحرب، أو متجهة لمعركة، وكأنها تدرك الغرض، فهي أحياناً تمشى خلف الفرسان، إن كانت حيواناً، أو فوق رؤوسهم إن كانت طيراً؛ وهي ضامنة أن هناك مأدبة شهية، تُهيأ لها، وعيداً دسماً يُعد لصالحها؛ ووسائله السيوف والرماح والسهام؛ وما الأمر إلا أمر وقت؛ هي تتلهف أثناءه على ما سيأتيها من طعام شهي، وغذاء راق محترم؛ فهي طَرِبة لما سيأتي، سعيدة بما القوم مقدمون عليه.

والشعراء تفننوا في وصف الطير والسباع وهي تتبع الجيوش، أو تلغ في الدماء، أو تحمل الأشلاء، أو تنهش اللحم؛ ولم يتركوا صورة من صور دور الطير فيما تتركه الجيوش إلا رسموه في صور مبتكرة، وبأشعار تعددت

فيها الأوزان، واختلفت القوافي؛ والأمثلة الكثيرة، وهي لا تكاد تحصى، سوف تبين تعدد هذه الصور واختلافها، وحرص الشعراء عليها، لتتم بذلك صور المعركة.

وأبو زيد الطائي يأتي بصورة مرسومة رسماً متقناً للطير عاكفة، تنهش لحم من يرثيه، وصور الطير، وهن مصطفات على بدنه كالوفود، المنتظمة في سلك:

«قال أبو زيد الطائي في الرثاء:

سَانَدُوْهُ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَوْهُ
شَدَّ أَجْلَادَهُ عَلَى التَّسْنِيْدِ

(أجلاده: جسمه وأعضاؤه).

يَئِسُوا ثُمَّ غَادَرُوْهُ لِطَيْرٍ
عُكَّفٍ حَوْلَهُ عُكُوْفَ الوُفُوْدِ»(١)

---

(١) جمهرة أشعار العرب: ٣٣٧.

لا يتبين من هذه الأبيات ما إذا كان قتيلًا أو خلاف ذلك، ولكن يغلب على الظن أنه أصيب في معركة؛ والاحتمال الضعيف أن يكون في غير معركة لما أثر من نظرتهم إلى ترك الجثة للطير، أو للسباع، بل إن الشنفرى يختار لجثته ذلك اختياراً، وكأنه بذلك يريد أن يحرمهم شرف دفنه في التراب، أو يحرمهم لذة رمسه في قبره، وهو الصعلوك الذي دوخ أضداده، بشجاعته، وخفة حركته، وسرعة ركضه، وحيله في التخلص من المآزق التي يقع فيها، بطرق مبتكرة، ووسائل تُري عبقريةً في هذا المجال، لا تخلو خطوات تخلصه من جرأة وإقدام، يقول الشنفرى، أو لعله تأبط شراً:

«لَا تَقْبُرُونِيْ إِنَّ قَبْرِيْ مُحَرَّمٌ
عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَبْشِرِيْ أُمَّ عَامِرِ»[1]

(١) الطرائف الأدبية: ٣٦.

وهو بهذا يفضل أن يكون مأدبة للضبع من أن يحثى عليه التراب؛ ومادام هذا مقبولاً في هذا الموقف، فقد يكون مقبولاً في موقف الشاعر السابق، وإن كان الاحتمال ضعيفاً.

ومن أشهر الأبيات التي تطرقت إلى دَوْرِ السباع والنسور في تتبع المعارك، ونهش جثث القتلى، أبيات عنترة، التي وردت في معلقته، وهو يفخر بفعله، ويدلي بشجاعته، وإقدامه، وبنتائج هذه الأفعال الباهرة، يقول فيها:

وَمُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُمَاةُ نِزَالَهُ
لَا مُمْعِنٍ هَرَباً وَلَا مُسْتَسْلِمِ
جَادَتْ يَدَايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ
بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الْكُعُوبِ مُقَوَّمِ
فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّبَاعِ يَنُشْنَهُ
مَا بَيْنَ قُلَّةِ رَأْسِهِ[1] وَالمِعْصَمِ

---

(١) يقضمن حسن بناته في بعض الروايات.

ثم يقول فيما بعد:

إِنْ يَفعَلَا فَلَقَدْ ترَكْتُ أَبَاهُمَا
جزَرَ السَّبَاعِ وَكُلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ»

[القشعم: المسن].

ومن المؤكد أن أبا المشار إليهما قتله عنترة في المعركة، ولم يتمكن ولداه من حفر قبر له ودفنه، لأن الوقت لا يسمح بمثل ذلك، فكلٌّ نفسُه نفسه، لا يلتفت أحد لأحد، خاصة لقتيل ميؤوس منه؛ هذا إذا كانا معه، وإذا لم يكونا معه، فمن باب أولى إذا كان غيرهما هو الحاضر معه؛ وكلمة «جزر» تتكرر، وكأنها الكلمة المعبرة بدقة عن هذه الصورة في ميدان القتال.

وهذا نابغة بني جعدة يدلي بدلوه في هذا المجال، ويرسم بريشته صورة من الصور المؤثرة، تبين أهازيج النسور بعد أن انتشين من خاثر

دماء القتلى:

«أَرَحْنَا مَعَدًّا مِنْ شَرَاحِيْلَ بَعْدَمَا
أَرَاهَا مَعَ الصُّبْحِ الكَوَاكِبَ مَظْهَرَا
تُرَنِّنُ فِيْهِ المَضْرَحِيَّةُ[1] بَعْدَمَا
رَوَيْنَ نَجِيْعاً مِنْ دَمِ الجَوْفِ أَحْمَرَا»[2]

ويأتي شاعر يوفي الصور حقها من جانب آخر من جوانبها، ليضيف إلى ما قاله سابقوه منظراً جديداً، ولكنه ليس غريباً على من تتبع النصوص التي تصف السباع والطيور الكواسر، التي تصاحب المعارك، وتمشي مع المحاربين إلى ميادين المعارك وكأنها تعرف عن يقين أن الأمر سوف ينتهي بمأدبة شهية لها من أحد الطرفين، أو كلاهما، يقول الشاعر في هذا:

---

(١) المضرحية: النسور.

(٢) جمهرة أشعار العرب: ٣٦٣.

«نَحْنُ قُدْنَا الخَيْلَ، قَدِ انْقَطَعَتْ
شُـدَّنُ الأَفْـلَاءِ عَنْهَـا وَالمِهَـارُ
كُلَّمَـا سِــرْنَـا تَــرَكْنَـا مَنْــزِلًا
فِيْهِ شَتَّى مِنْ سِبَاعِ الأَرْضِ غَارُوا
وَتَــرَى الطَّيْــرَ عَلَــى آثَـارِنَـا
رَأْيَ عَيْــنٍ ثِقَــةً أَنْ سَتُمَــارُ»[1]

وكلمة «شتى» في الشطر الثاني من البيت الثاني تدل على أن القتلى كثيرون، بحيث إن كل نوع من السباع يمكنه أن يشبع دون أن يزاحمه آخر من غير نوعه، أو من نوعه، فالضباع، والذئاب، والقطط البرية، والنمور، والفهود، هناك ما يكفيها ويزيد، هذا غير ما سوف يترك للطيور.

ولنا أن نتصور الطير، وهي تتبع كل تجمع يسير، وكل حشد يتحرك، متأكدة من أن رزقها

---

(١) الطرائف الأدبية: ١٣.

في ظلال سيوف هذا التحرك، وقد تصاب بخيبة أمل، وتعتريها الدهشة إذا كان التجمع احتفالاً لعرس، أو احتفاء بعيد، دون أن تعرف الفرق بين تجمع وتجمع، وحشد وحشد، وتحرك وتحرك، ودون أن تفسر حمل السيوف والرماح؛ وما تدري أن عدة الدمار في الحرب، هي عدة الفرح في السلم، فالسلم يوجب أن يُذَكَّر فيه بمصدر القوة، ليتم السرور، وتكمل البهجة.

وأين للحيوان أو الطير أن يفهم هذا، وهو لا يفهم إلا الأعمال، وتشابهها في انتظامها، وتماثل نتائجها، أما الأقوال فلا مجال لفهمها، إلا إذا صاحبتها أفعال، تفسرها، وتجلو غامضها؛ وتدريب الحيوان على فِعْل أمر ليس من طبيعته، وخارج عن ما تعود عليه، يقوم على تعويده على حركات مدروسة، متقنة التصرف ومنتظمة، ترمي إلى هدف محدد، قد

يحتاج إلى خطوات متتابعة، وزمن طويل، يُوصَل عن طريقه إلى المقصود، ويمكن أن أذكر حادثتين تبين ما أقصده:

الأول: حادثة قسيس إيطالي، درب عصفوراً على اتخاذ خطوات متعددة، يأتي بها، ليصل إلى حبة قمح، أو حبات قمح، مهيأة له، وقد عرض في الخمسينات الميلادية فيلم في التليفزيون الإنجليزي، عن المجهود المتواصل الذي بذله هذا القسيس، حتى وصل إلى النتيجة المذهلة التي وصل إليها:

بدأ بخطوة واحدة، وضع حبة قمح داخل مكان يراه العصفور، ولا يصل إليه إلا إذا حط على عود معين، ثم يرجح العود حينئذ، فينفتح باب يوصل العصفور إلى الحبّة، وبعد أن أتقن العصفور هذه الخطوة أضاف القسيس خطوة أخرى، وهي جَرُّ حبل، بعد الوقوع على العود،

وبدون الخطوتين المتتاليتين لا ينفتح الباب، ولا يوصل إلى حبة القمح؛ ثم أضاف خطوة ثالثة، فرابعة، حتى وصل إلى اثنتي عشرة خطوة، ومن بينها الدخول إلى سراديب، والخروج منها إلى أخرى، وجر حبال، وقرع أجراس، والرقص على أعواد. وكان عملاً مدهشاً، أثار التساؤل عن مدى ما يتمتع به الطير من عقل وغريزة.

الثاني جاء إلى لندن «سيرك» روسي، فعرض أعمالاً مدهشة، فيها إبداع، وفيها إبتكار، وفيها أمور مفاجئة؛ ومن بين المناظر التي عرضها منظر مدرب للدببة، دخل الحلبة، ومعه ثلاثة منها، وفي يده سوط، كالمعتاد؛ وكان هناك ثلاثة كراسٍ، بدون ظهور، وطلب من الدببة دُبّاً دُبّاً أن يصعد كل واحد منها على كرسي، مردفاً أمره الشفوي بحركة من يديه؛ فأطاعت

الدببة الأمر وصعدت؛ وبعد برهة طلب منها النزول، وكان ينزلها واحداً واحداً، فأمر الأول فنزل طائعاً مختاراً، ثم أمر الثاني بالنزول، فبادر بالطاعة، ولكنه لما أمر الثالث لم ينزل، ولم يأبه لأمره، وبدا كأنه لا يحس بوجود المدرب، وأخذ يدير رأسه تجاه الجمهور في صالة العرض، وينظر إليهم نظرة المتأني المتبصر؛ فأعاد المدرب الأمر، فلم يلتفت إليه، ثم أعاده بصوت أعلى، وبلهجة خشنة متناهية في الجفاء والعنف، ولكن الدب أعطاه أذناً صماء، فهدده المدرب بألفاظ مخيفة، ولم يفد هذا شيئاً، ففكر المدرب أن يغير اللهجة، وقال له بلهجة رجاء:

أرجو أن تتلطف وتتكرم وتتنازل وتتعطف وتنزل؛ وزاد على هذا فانحنى انحاءة مغالى فيها، ونزع قبعته، ووضعها على صدره وهو منحن، فنزل الدب يتهادى، تهادي المنتصر،

فضجت القاعة بالتصفيق، ولعل بعض من صفق صفق لعزة الدب، وعلو نفسه، وعدم قبوله إلا ما يدل على أدب، وحسن خلق؛ وبعضهم صفق لنجاح العرض، ومقدرة المدرب على أن ينهي المشهد كما خطط له؛ وبعضهم صفق دهشة وتعجباً وحيرة في معرفة السبب في تصرف هذا الحيوان، مقارنة بالدبين الآخرين.

أما نحن فكنا مجموعة طلاب أحببنا أن لا ننام تلك الليلة إلا بعد أن نصل إلى كنه الأمر، فذهبنا بعد أن انتهى العرض، إلى ما خلف المسرح، وبحثنا عن المدرب، وسألناه عن السر الذي لم نستطع أن نصل إلى قاعه؛ فابتسم، وقال:

إن الأمر سهل، وما هو إلا تدريب متواصل، ربطت بعض الحركات بعضها ببعض، مراعياً

في أمرها غريزة الدب وطباعه؛ فالدب لم يفهم مما قلت شيئاً البته، ولكنه يفهم الحركات، وقد تعود على أن انحناءتي، ومعي «البرنيطة» تعني أن الخطوة التالية أن أمد له يدي بحبة من السكر، ينزل ليأخذها. وهكذا تبين لنا هذا السهل الممتنع.

وكذلك فروق الطير التي تسير فوق رؤس الغزاة، يجلبها التجمع، وربما تزيد في يقينها الضوضاء التي تصحب السائرين للمعركة، ولهذا لا أتصور أن الطير تفرق بين ثلة من الرجال ذاهبة لغارة، وثلة أخرى ذاهبة لغداء تال لليلة عرس!!

ويبدو أنه ليس تجمع الناس وحده هو ما تستدل به الطير على الرزق، ولكن هناك علامات أخرى، عرفتها بالغريزة، أو بالخبرة والتكرار، ومقارنة بعض الأمور ببعض، فهي إذا لم تستطع

أن تنفج أرنباً، أو تطيح بشاة، فهناك من يقوم بذلك لها، فهي تعرفه، وتعرف سيره للبحث عن رزقه، وفي باقي رزقه رزق لها، فهناك بيت يدل على أن بعض كواسر الطير تتبع الذئب، لتأكل مما يصطاد:

يقول حميد بن ثور الهلالي يصف ذئباً:

إِذَا مَا غَدَا يَوْماً رَأَيْتَ ظِلَالَهُ
مِنَ الطَّيْرِ يَنْظُرْنَ الَّذِيْ هُوَ صَانِعُ[1]

ومن المؤكد أن الطير لا تتجمع طائرة فوق الذئب، تتبعه أينما سار، تمتع بصرها بما يقوم به، ولكنها تؤمل فيما سوف يبقيه على مائدته عندما يشبع، فتشبع على أثر ذلك الطير.

وقد صنع أحد الشعراء صورة مخالفة عندما مثل المقتلة في الحرب بالمأتم للناس، وصور

---

(١) الشعر والشعراء: ٣٩٢.

ولوغ السباع في دماء القتلى، وأكل أشلائهم، عرساً؛ وهي صورة مؤثرة خاصة عندما نعلم أن الحديث عن مقتل الحسين رضي الله عنه، ومن معه:

«إبْكِ حُسَيْناً لِيَوْم مَصْرَعِهِ
بِالطَّفِّ بَيْنَ الكَتَائِبِ الخُرْسِ
أَضْحَتْ بَنَاتُ النَّبِيِّ إِذْ قُتِلُوْا
فِيْ مَأْتَمٍ وَالسِّبَاعُ فِي عُرْسِ»[1]

وحظ السباع من أجساد الناس لا يقتصر على الحروب، ولكنه يتعدى إلى قتل الأفراد؛ لأن الفرد القاتل لم يقتل إلا مدفوعاً بعامل قوي، قد يكون الحقد، أو الثأر، أو الطمع، وهذا يجعله في عجلة من أمره، ودفن القتيل لا يخطر بباله، إذا أمن ألا يعثر عليه، أو يتبع أثره؛ وإلا فالوقت يقتضيه أن يسرع بالانصراف عن

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣١١.

مكان الجرم؛ والفرد في هذه الحالة مثل المقاتلين في المعركة، فالمنتصرون لن يفكروا في دفن جثث أعدائهم، وأهلهم في شغل عنهم بالهزيمة، أو بالخوف من كرة الأعداء، ولا يبدو أن ترك القتلى للطير والسباع أمر يقلق، إلى الحد الذي يعذب ضمائرهم، وإن كانوا في الغالب يأسون على أنهم لم يدفنوهم.

وفتاك العرب لهم مواقف أقدموا فيها على قتل بعض من وجدوا فيه مطمع، أو خافوا منه، أو لم يرضخ لرغباتهم في تسليم مال، أو ظعينة، وهذا حبيب بن عوف العبدي، الفاتك، لقي رجلًا من أهل الشام، وسايره في طريق، حتى وجد منه غفلة، فقتله، وأخذ المال الذي معه، وفي هذا يقول:

«سَايَرْتُهُ سَاعَةً مَا بِيْ مَخَافَتُهُ
إِلَّا التَلَفُّتَ حَوْلِيْ هَلْ أَرَى دَغَلَا

غَـادَرْتُـه بَيْـنَ آجَـامٍ وَمَسْبَعَـةٍ
لمْ يَدر غَيْرِي بَعْدِي بَعْدُ مَا فَعَلَا»[1]

كان مع الرجل ستون ألفا قد بعثه زياد من الشام ليتجر بها ، وهذه كانت سبباً مغرياً جعلته طعماً للسباع في أجمة لا يعلم عنه شيء .

ويتصور أحد الفرسان أنه سوف يكون في يوم من الأيام جزر السباع بعد معركة من المعارك التي يدخلها هو وقومه؛ وكأنه يسمع قومه، وقد عادوا من المعركة، يخبرون عنه أنهم تركوه، دون أن يدفنوه، أو يحجبوه عن الطير :

«قال أبو الأبيض العبسي :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِيْ هَلْ يَقُوْلَنْ فَوَارِسٌ
وقَدْ حَانَ مِنْهُمْ يَوْمَ ذَاكَ قُفُوْلُ

(١) عيون الأخبار : ١/ ٢٦٩ .

تَرَكْنَا وَلَمْ نَجْنُنْ مِنَ الطَّيْرِ لَحْمَهُ
أَبَا الأَبْيَضِ العَبْسِيِّ، وَهُوَ قَتِيْلُ»[1]

وهذه صورة من الصور الملازمة لبعض المعارك، تكمل ما عرف عن الغارات والغزوات من خطوات ونتائج.

وعاتكة بنت عبدالمطلب تدلي بدلوها مع رسم صورة للسباع أو الطيور، على أثر معركة من المعارك، وتبدأ قصيدة بقولها:

«سَائِلْ بِنَا فِيْ قَوْمِنَا وَلْيَكْفِ مِنْ شَرٍّ سَمَاعُهْ
قَيْساً وَمَا جَمَعُوا لَنَا فِيْ مَجْمَعٍ بَاقٍ شَنَاعُهْ

إلى أن تقول:

فِيْهِ قَتَلْنَا مَالِكاً قَسْراً وَأَسْلَمَهُ رَعَاعُهْ
وَمُجَدَّلاً غَادَرْتَهُ بِالْقَاعِ تَنْهَشُهُ ضِبَاعُهْ»[2]

(١) شرح ديوان الحماسة: ٢/ ٤٠.
(٢) شرح ديوان الحماسة: ٢/ ٢٥٦.

وكثيراً ما ترسم هذه الصورة في مجال الفخر، وهي هنا كذلك، فيما يبدو.

وتأبط شراً لا يمر بالأمر مر الكرام، بل يفصل فيه تفصيلًا يوحي بأنه يتشفى بهذا منهم، وهم أعداؤه، ولا يكتفي بذكر السباع، أو الطير، ولكنه يذكر غير واحد من السباع، ويؤكد أن الطير عتاقاً، وأنها كانت جائعة فشبعت، فهو يقول:

«تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتْلَى هُذَيْلٍ
وتَرَى الذِّئْبَ لَهَا يَسْتَهِلّ
وعِتَاقُ الطَّيْرِ تَغْدُو بِطَانَاً
تتَخَطَّاهُمْ فَمَا تَسْتَقِلّ»[1]

مع أن الشَنفرَى يفضل أن يترك للضبع، وينفر من الدفن في القبر، ولعله قد ألف السباع،

(١) شرح ديوان الحماسة: ٢/ ٣١٨.

وهو متصعلك في البراري، تحمله أرض، وتضعه أرض، يقول:

«لَا تَقْبُرُوْنِي إِنَّ قَبْرِيْ مُحَرَّمُ
عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَبْشِرِيْ أُمَّ عَامِرِ»[1]

إختار هذا الأسلوب في التعبير حين قال: «أبشري أم عامر»، وهي كنية الضبعة عند العرب، ولم يقل أتركوني للضبعة، وهو أسلوب يلجأ إليه الفصحاء، وقد عمد إليه أحدهم عندما أراد الوصف، فقال:

«جاؤا بمذق، هل رأيت الذئب قط؟».

أي جاؤا بلبن يشبه لون الذئب، إن كنت رأيت الذئب في حياتك، والعامة تلجأ إلى ذلك، فتقول: الشيء الفلاني ساطع البياض، هل رأيت الثلج؟ أي مثله.

(١) شرح ديوان البلاغة: ٢/ ٦٣، الشعر والشعراء: ١/ ٨٠.

وفي موقف الرثاء تأتي صورة الطير التي تحوم على رؤوس الغزاة، لتقع بعد أن ينصرفوا، فتأتدم بلحوم القتلى، وتحمل أشلاءهم، بعد أن تمزق أعضاءهم، يقول أحد الخوارج في نغمة رثاء لقتلى منهم:

«مَضَوْا قَتْلًا وَتَشْرِيْداً وَصَلْباً
تحُــوْمُ عَلَيْهِــمُ طَيْــرٌ وُقُــوْعُ
إذَا مَــا اللَّيْــلُ أَظْلَــمَ كَـابَـدُوْهُ
فيُسْفِــرُ عَنْهُــمُ وَهُمُــو رُكُــوْعُ
أَطَارَ الخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقَامُوا
وأَهْلُ الأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ»[1]

أدرج في أبياته القتلى والمصلوبين، وهم رزق الطير، والقسم الثاث المشردون.

ويرسم امرؤ القيس بن بحر الزهيري منظراً

---

(١) التعازي والمراثي: ١٦٤.

بهجاً للسباع، وهي تدور حول جثة خصمه، بعضها ذاهب بعد أن شبع، وبعضها غرثان، جاء مسرعاً، لينال حصته؛ ويصف امرؤ القيس كيف قتل خصمه، وبأي سلاح، وكيف أن الرمح علق به، فراح يجره في طريقه إلى الموت، حتى انتهى ثاوياً في قاع المعركة:

«طَعَنْتُ غَدَاةَ القَاعِ شَمْلَةَ طَعْنَةً
تَرَكْتُ أَبَا أَوْسٍ صَرِيْعاً مُجَدَّلَا
وأَجْرَرْتُهُ رُمْحِيْ، فَغُوْدِرَ ثَاوِياً
عليْهِ سِبَاعُ القَاعِ يَرِدْيْنَ حُجَّلَا»[1]

وقوله عن شملة المقتول: «فغودر ثاويا»، يؤكد أن قومه لم يهتموا بدفنه، فهم على عجل، وفي خوف، ويلاحظ أنه بعد أن أورد اسم «شمله»، أعقبه بكنيته، ولعل له من هذا هدفين: الأول التأدب، وإظهار عدم الحقد والتشفي،

---

(١) معجم الشعراء: ١١.

وأنهم رجال على المستوى المتوقع منهم، والثاني أن خصمه ليس من عرض الرجال، وإنما هو فارس شجاع، من علية القوم؛ ولهذا فقتله مفخرة.

وكلمة «يردين حجلا» صورة دقيقة للسباع، وهي تحجل حوله، دائرة تبحث عن متسع، ومكان أوفى لحماً، والذي يحجل عادة هي النسور والعقبان؛ و «يردين» تدل على عجلة في الأمر، وهذا متوقع، وينتظر أن يكون ذلك بقدر ما هي جائعة.

ولأجل الإحماض نخرج عن حقلنا هذا قليلًا، ولكننا لا نبتعد، ونبقى صلة رخوة مع ما نحن بصدده، ونذكر موقفاً بين سبع وإنسان؛ أما الإنسان فحي لم يمت، وأما السبع، فانتهى أمره إلى الهزيمة، ولم ينل بغيته، والموقف طريف، ومضحك، ويكاد لا يصدق لغرابته، وما فيه

مما هو غير معتاد، بل إن فيه ما هو خلاف طبع الحوادث المماثلة، والقصة يرويها ملاعب الأسنة، أوس بن مالك الجرمي، وأولى به بعد هذه الحادثة أن يسمى «عضاض الأسود»، ويعتزل بذلك لقب «ملاعب الأسنة»، ففي هذه الكنية الجديدة ارتقاء!!

عضت لبوة كتف أوس فعض أنفها، وقبل أن تتوغل اللبوة في عضه تداركه أخوه، فسارع إليها بضربة من سيفه، أنقذت أخاه، وغيرت الموقف، يقول أوس:

أَعُضُّ بِأَنْفِهَا وَتَعُضُّ رُكْنِي
كِلَانَا بَاسِلٌ بَطَلٌ شُجَاعُ
فَلَوْلَا أَنْ تَدَارَكَنِي زُهَيْرٌ
بِنَصْلِ السَّيْفِ أَفْنَتْنِي السِّبَاعُ»[1]

---

(١) معجم الشعراء: ١٨٨.

وإذا ما وقفنا قليلًا عند هذا النص نجد أن عضته لأنف اللبوة قد تكون جاءت لسببين، الأول: أن الأنف كان أقربَ شيء لأسنانه، مادامت قد أمسكت كتفه بأسنانها، وأوثقته؛ والأسنان عند الإنسان سلاح، يلجأ إليه عند الحاجة، والطفل يعرف مقداره، ويقدر فعله، إذا ما تطور الأمر بينه وبين طفل آخر؛ ولم يُجد الضرب، فالعض وسيلة فتاكة، وذات أثر، لأنها تترك ندوباً، تكون مجال فخر، أو دليل إثبات، الأول له، والثاني عليه؛ بل إن قاتل علي ـ رضي الله عنه ـ، وقد أوثقت يداه، وكبل، فلا يستطيع أن ينفع نفسه قبل الموت بالتشفي ممن سوف يقتلونه حتماً، طلب من الحسن أن يقترب منه، ليصب في أذنه سراً، قبل أن يموت، لا يريد أن يعلم عنه أحد، فتنبه الحسن لمكره وعرف أنه ينوي أن يعض أذنه، عضة

تفصلها من رأسه.

الثاني: أن الأنف منطقة تحس بالألم، إحساساً قوياً، بدليل أن الفحل إذا لم يُرِد أصحاب الناقة أن يُضَرِّبَهَا، ضربوه على أنفه، فينسى هياجه، ويلتفت للألم في أنفه؛ وكذلك الإبل، وهي ترد الحوض، تضرب على أنفها، لتُصد عنه؛ ولتأكد العرب من هذا الأمر جعلوه في أقوالهم: فقالوا فلان لا يقرع أنفه.

وعمرو بن جعدة بن فهد بن عبدالله الخزاعي يساهم في القول عن السباع، ودورها بعد المعارك؛ ويذكر علمه بما يحدث للقتيل يترك في أرض المعركة، فمآله أحد أمرين، إما أن تأكله السباع، أو تصلاه شمس الصيف الحامية، وهي صورة مرعبة، تدل أن في ذهن المقاتل بعض الصور التي تجعله يضيف إلى هموم القتال هموماً أخرى:

«وَعَرَفْتُ أَنَّ مَنْ يَثْقَفُوهُ يَتْرُكُوهُ

لِلسَّبْعِ أَوْ يَصْطَافُ شَرَّ مَصِيْفِ»(١)

وفي قوله «أو يصطاف شر مصيف» سخرية واضحة لأن الاصطياف متعة، وهذه ميتة شنيعة.

وفي قول قسام بن رواحة السنبسي صورة من صور الطير الجوارح، والجديد في قوله أنها استدعيت استدعاءاً من أرض ضرية، لتشارك في الانتفاع من الدم المراق:

«دَعَا الطَّيْرَ حَتَّى أَقْبَلَتْ مِنْ ضَرِيَّةٍ

دوَاعِي دَمٍ مِهْرَاقُهُ غَيْرُ نَازِحِ»(٢)

وقلنا في نص سابق أن الطير هي التي توصف بأنها تحجل، ومما يؤكد هذا قول ذي الرمة:

---

(١) معجم الشعراء: ٢٣٤.

(٢) معجم الشعراء: ٣٤٤.

«وَعَبْدُ يَغُوثٍ تَحْجِلُ الطَّيْرُ حَوْلَهُ
قَدْ احْتَزَّ عَرْشَيْهِ الحُسَامُ المُذَكَّرُ»[1]

فالفارس قد ضربه الضربات الموهنة، وتركه لقمة سائغة للطير، تدور حوله، مفارجة بين أجنحتها وأجسامها فعل الحاجل الطرب، المقدم بجوع وشهية، على وليمة متاحة، ورزق مبذول.

وأغار كعب بن الحارث الغطيفي على بني عامر بن صعصعة بالعرقوب، فقتل وسبى، فقال يصف من ترك في ميدان القتال من ضحايا، ممن لم يعتن بدفنه، وتوسيده في قبره، والاهتمام به، رغم أن القتلى سادة ليسوا من عامة الناس؛ ولكن المعركة كانت عنيفة بحيث لم تسمح للمُغار عليهم أن يؤدوا واجب العناية بالقتلى:

(١) ديوان ذي الرمة: ٣٢٢.

«تَرَكْنَا عَلَى العُرْقُوبِ وَالْخَيْلُ عُكَّفُ
أَسَاوِدَ قَتْلَى لَمْ تُوَسَّدْ خُدُوْدُهَا»(١)

وجرت العادة عندما يدفن الميت أن يوضع تحت رأسه لبنة .

والجار مصدر من مصادر المفاخرة بالحماية ، ومظهر من مظاهر القوة، ودليل على الأنفة ، وشاهد على العزة ، وقد أجار المثلم بن حذافة ابن غانم رجلًا يقال له أوس بن النمر بن قاسط ، فقتل أوسُ رجلًا من بنو جمح ، فطلبه أُبَيُّ بن خلف ، فمنعه المثلم ، ولم يسلمه ، ورأى أنه لو فعل فلن يجد عذراً أمام الناس ، وأن الناس سوف يمرون بالقتيل ، ويقولون : إنه سُلّم للقتل ، ويؤكد أنه لن يسلمه إلا إذا سال الدم من نحره حماية ، ومدافعة . وفي أثناء وصفه للأمر يأتي بصورة جاره فيما لو قتله أبّي ، وتركه

(١) معجم الشعراء : ٣٤٤ .

بالبطحاء تتنازعه الطير، قتيلًا لم يحمه جاره؛ فيقول في هذا:

«مَنْ ذَا يُبَدِّدُ بَيْنَ النَّاسِ مَعْذِرَتِي
إنْ رَدَّ جَارِي أُبَيّ، وَهُوَ مَقْتُولُ
تَنَازِعُ الطَّيْرُ بِالبَطْحَاءِ حَشْوَتَهُ
يقَالَ: مَنْ جَارُ هَذَا؟ غَالَهُ غُولُ؟
وقُلْتُ: أُسْلِمُ أَوْساً لاِمْرِئٍ! أَبَداً!
حتَّى أَرِدْ، وَثَغْرُ النَّحْرِ مَبْلُوْلُ»(١)

ومخرم بن زياد الحارثي، يدخل مع قومه في معركة حامية مع قبيلة نمير، ويذكر أنهم دخلوها برغم ما كان في القلوب، وهذا يحتمل أن يكون المعنى: لما امتلأت به القلوب من الغيظ، إذا أخذنا معنى الرغم الأمتلاء بالغيظ الذي أجبروا على حمله؛ ويحتمل أن يكون المعنى أننا دخلنا المعركة رغم ما نحمله لهم من محبة وصفاء،

(١) معجم الشعراء: ٣٨٧.

كدّره ما أوجب القتال رغماً عنا، إما لظلم ارتكبه أولئك، أو لخطأ فادح من سفهاءِ حموهم، ولم يسلموهم، وهذا من الأسباب التي تتكرر بين القبائل، وتكمن خلف ما ينفجر بينهم من نزاع، وما يقوم من مخاصمة، ومحاكمة.

يقول مَخرم بن زياد بن الحارث في هذا:

مَلأْنَا الأَرْضَ مِنْ قَتْلَى نُمَيْرٍ
بِرَغْمٍ كَانَ مِنَّا فِيْ الْقُلُوبِ
تَرَكْنَا فِيْهِمُ العِقْبَانَ ثُجْلاً
وُقُوْفاً بَيْنَ أَضْلاَعِ الجُنُوبِ»[1]

ومعنى: «ثجلا» ملأى بتراخ، وهذا دليل كثرة القتلى.

وتأتي صورة السباع المفترسة، والطير الكاسرة في أبيات لأحد الشعراء، تالية لأخرى استثارت الشاعر:

(١) معجم الشعراء: ٤٧٢.

رثى يزيد بن الصعق الكلابي، مالك بن خالد بن صخر بن الشريد، وجاء في رثائه:

«أَنَازِلَةٌ غَدْواً فِرَاسُ بِفَخْرِهَا
عكَاظَ، وَلَمَّا تُوْفِهَا الصَّاعَ شَرْعَا»

فقال هند بن خالد بن صخر بن الشريد السلمي:

أَلَا أَبْلِغْ لَدَيْكَ بَنِي كِلَابٍ
وشَاعِرَهَا، وَفِيْ الأَقْوَالِ غُوْرُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّنَا لِبَنِي فِرَاسٍ
سمَوْنَا تَحْتَنَا الوُقَّحُ الذُّكُوْرُ
وكُلُّ طِمِرَّةٍ مَرْطَى إِذَا مَا
تحَدَّرَ عَنْ مَغَابِنِهَا العَصِيْرُ
فَأَشْبعْنَا ضِبَاعَ الفَيْفِ مِنْهُمْ
وطَيْراً لَا تَغِبُّ، وَلَا تَطِيْرُ»[1]

(١) معجم الشعراء: ٤٨٧.

وهو يؤكد أن الضباع قد شبعت، وهو دليل على كثرة القتلى، ودليل آخر على ذلك أنه يقول: إن الطير لا تغب، ولا تطير، وهذا من الشبع، ولما عودت عليه في هذا الفيف.

وقد لا تذكر السباع ولا الطيور، ولكن يذكر أن القتلى لم يقبروا، وقد يكون المصدر لم يأت بما بعد البيت مما قد يكون فيه ذكر للسباع والطيور، أو أن المكان لقربه من المدن لا يكون فيه من المظاهر ما في البراري، وهذا «كدى» و «كثروة»، موضعان بمكة، و «كدى» معروف مكانه إلى اليوم، وهو داخل مكة، من جهتها الجنوبية.

يقول عبدالله بن عمر العبلي، عن هذا:

«أَفَاضَ المَدَامِعَ قَتْلَى كُدًى
وقَتْلَى بِكُثْرُوَةٍ لَمْ تُرْمَسِ»[1]

---

(١) التعازي والمراثي: ١٦١.

ويعض شاعر أصبعه أسفاً، ويقول شعره حنقاً، لأن درع خصمه حماه من أن يكون لقمة سائغة للضباع والنسور، وهذا شريح بن قرواش العبسي، يقول:

وَأُقْسِمُ لَوْلَا دِرْعُهُ لَتَرَكْتُهُ
عليهِ عَوافٍ مِنْ ضِبَاعٍ وَأَنْسُرِ»[1]

وصورة عبث السباع بأجساد القتلى، ونهش العقبان والنسور للحومهم، وأخذ أشلائهم، ليس وقفا على عصر الجاهلية، أو أول عصر الإسلام، بل بقي صفة ملازمة لمعارك الصحاري والقفار؛ وكانت سمة للعصر الحاضر في الجزيرة العربية، وأذكر قصة حكاها الملك خالد بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ قال: إنهم وجدوا في عش أحد العقبان يد شخص، أخذها العقاب من ميدان القتال، وطار بها إلى عشهِ، وصادف

(١) شرح الحماسة: ١/ ٣٨٥.

أن في أصبع القتيل خاتماً عليه اسمه، وقد قرؤا اسمه.

وابن عثيمين، وهو شاعر له قصائد عدة في الحروب، مدح فيها الملك عبدالعزيز، لهذا لم يخل شعره من صور السباع والطيور، وهي تأتدم بلحوم القتلى، ودمائهم، يقول في إحدى قصائده:

«تَظَلُّ بِهِ غُرْثُ السِّبَاعِ نَوَاهِلاً
وعِقْبَانُهُ مِنْهَا وُقُوْعٌ وَحُوَّمُ»[1]

وقد أجاد محمد بن عبدالله بن عثيمين الوصف، وجاء بالصورة كاملة للطير، فبعضها لايزال يحوم، يدرس الموقع، وما فيه، وبعضها قد قرر النزول، والوقوع على الفريسة، وبهذا فقد أدلى ابن عثيمين بدلوه، وجاء بصورة انفرد في بعض أجزائها.

(١) ديوان ابن عثيمين: ١٥٤.

ولا تقف محاولات الإبداع عنده عند هذا الحد، بل تتعداه إلى صورة مبتدعة أخرى، فيقول في إحدى قصائده؛ وقد قالها تهنئة للملك عبدالعزيز في انتصاره في موقعة السبلة، سنة ١٣٤٧ هجرية:

«أَضْحَوْا هَدَايَا لِلسِّبَاعِ تَنُوشُهُمْ
تَنُوبُهُمُ يَوْماً وَتَعْتَادُهُمْ غِبَّا»[١]

فالسباع لم تدفع ثمناً لهذا الطعام الشهي، بل جاءها هدية من المقاتلين الشجعان، والفرسان المبرزين، في جانب ممدوحه؛ ولم تكن وجبة واحدة للسبع، وإنما تكفيه لعدة وجبات، في عدة أيام؛ وهذه صورة فيها زيادة عما عرف؛ ويبدو أن ابن عثيمين قصد التأثير حينما فصّل، ولم يكتف مثل سابقِيه بالإشارة الخاطفة، والتفصيل المحدود؛ لأنه يستمر في رسم الصورة

(١) ديوان ابن عثيمين: ٢٦٣.

في هذا المجال، فيقول:

«وَرَاحَتْ لِطَيْرِ الجَوِّ عِيْشِيْ وَنَقِّرِيْ
وناَدِيْ وُحُوْشاً فِيْ مَكَامِنِهَا سُغْباً»[1]

ويحدد أكثر فأكثر نوع السبع، ونوع الطير، ولعله بهذا يلمز إلى أنه بهذا ينيب هذا السبع، وهذا الطير عن بقية جنسه ونوعه، فيرسم صورة براقة لما أقدم عليه ممدوحه في حربه مع عدوه، فيقول؛ مادحاً الملك عبدالعزيز:

«بِجَيْشٍ يُغِيبُ الشَّمْسَ عِثْيَرُ خَيْلِهِ
ويَحْمَدُهُ بَعْدَ اللِّقَا الذِّئْبُ والنَّسْرُ»[2]

وجيش بهذه الكثرة من الخيل والفرسان، يزحف به الملك عبدالعزيز، بحيث أن غباره يسد الأفق، ويحجب الشمس، أحرِ به أن يكون قتلاه كثيرين، بحيث تحمده السباع والطيور،

(١) ديوان ابن عثيمين: ٢٦٣.
(٢) ديوان ابن عثيمين: ١٤٥.

على ما قدمه لهم من طعام شهي وافٍ:

والقشاعم، وهي الطيور المسنة، لها من صوره نصيب، في بعض قصائده في الحرب، وله من قصيدة يمدح فيها الملك عبدالعزيز عام ١٣٤٥ هجرية، يقول فيها:

«تَظَلُّ عَلَيْهِنَّ القَشَاعِمُ عُكَّفاً
لِمَا عُوِّدَتْ أَنَّ القَبِيْلَ أَكِيْلُ»[١]

هذه من الصور المتكررة، فالنسور والعقبان المسنة تسير فوق الجيوش، مديمة ملازمة؛ لأنها قد عودت أن الأعداء سيكونون أكلا وطعماً لهن.

ويعيد المعنى بصورته، مختلفة ألفاظه، فالطير الجائعة تلازم طيرانها فوق الجحافل التي يسوقها، لأنها معودة أن الأعداء سوف يكونون مجزرة لها، وقد قالها في وصف جيش الملك عبدالعزيز،

---

(١) ديوان ابن عثيمين: ٢٣٠.

الغازي في عام ١٣٣٠ هجرية، يمدحه فيها، ويصف مسيره:

«تَظَلُّ عَلَيْهَا سُغَّبَ الطَّيْرِ عُكَّفاً
معَوَّدَةً أَنَّ القَبِيْلَ لَهَا جَزْرُ»(١)

ومن كثرة إعادته لهذه الصور، وتكراره لهذه المعاني، يتضح أن هذا أمر رأى فيه أهمية لتمام صورة الحرب، والفوز بالانتصار فيها لممدوحه، وهي صورة أوحت له بها قراءاته لأشعار السابقين.

وتردِ قصيدة للقاضي علي بن الحسين الحفظي في ديوان ابن مشرف، يقول فيها عن السباع والطير في موقع المعركة، بعدها:

«فَيَالَكَ مِنْ يَوْمِ الحَفِيْرِ وَمَا بَدَا
لرَيْدَةَ مِنْ طُوْلِ الغَمَامِ المُشَيَّدِ

(١) ديوان ابن عثيمين: ١٤٨.

وَيَا لَكَ مِنْ يَوْمِ اللُّحُومِ، سِبَاعُهُ
شِبَاعٌ، وَطَيْرُ الْجَوِّ تَحْفَى لِمَشْهَدِ»[1]

والقاضي الحفظي كان في زمن الإمام فيصل ابن تركي، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، وهو يصف نصر حاكمه على بعض أعدائه، في الموقعة التي عينها، وكان فيها نصر هذا الحاكم، وهزيمة أعدائه، ومن أجسادهم شبعت السباع، وشاركت الغنيمة طيورُ الجو.

وحفل عهد الإمام فيصل بالغزوات، والمواقع والحروب، سواء كان ذلك أثناء حياة والده الإمام تركي، أو بعدها، وقد هنأ أحمد بن مشرف الإمام فيصل على نصر الله له في بعض الغزوات التي قام بها، وأكمل صورة المعارك، التي وصفها، بذكر الطير والسباع، وحدد

(١) ديوان ابن مشرف: ٢٧.

بعض فئاتها، يقول في هذا عام ١٢٧٥ هجري:

«فَرَوَّى حُدُوْدَ المُرْهَفَاتِ مِنَ الدِّمَا
كمَا رَوَتْ مِنْهَا المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ
فغَادَرَ قَتْلَى يَعْصِبُ الطَّيْرُ حَوْلَهَا
ويَشْبَعُ مِنْهَا النَّسْرُ وَالذِّئْبُ والنِمْرُ»(١)

والصورة التي جاء بها في هذين البيتين أن كل ما فيهما حاز الشبع والري، فلم تشبع الطير والسبع فقط، ولكن السيوف والرماح رويت من الدماء، وأصبح معروف الإمام عليها، لا معروفها هي عليه.

وقد ذكر ابن مشرف طروقه هذا المعنى في قصائده، فمثل قوله السابق جاء له قول لاحق في قصيدة أخرى، قالها مهنئاً الإمام فيصل سنة ١٢٧٧ هجرية على نصره على بعض من

(١) ديوان ابن مشرف: ٥٩.

تصدى لهم، يقول فيها، وكانت المعركة قرب البحر مما أدخل عنصراً جديداً على الصورة:

«فَمَا اعْتَصَمُوا إِلَّا بِلُجَّةِ مُزْبِدٍ
مِنَ البَحْرِ يَعْلُو مَوْجُهُ غَيْرَ جَازِرِ
فغَادَرَهُمْ فِي الْبَحْرِ لِلْحُوْتِ مَطْعَماً
وقَتْلَى لِسِرْحَانٍ وَنِمْرٍ وَطَائِرِ»[1]

لقد شارك الحوت في الوليمة، وجاءه رزقه في بحره.

ويعيد الصورة، وهو يخاطب الإمام فيصل، فيذكر دور السباع بعد المعركة، ومشاركة الطيور في الغنيمة، ويشير إلى أن هذه الكواسر كانت تتبعه، ومعنى هذا أنها تعرف أنه سائر لمعركة، وأن لها في نهايتها نصيباً، يقول هذا في عام ١٢٨١ هجري:

---

(١) ديوان ابن مشرف: ٦٤.

«مَوَائِدُهُ مِثْلُ الرَّبِيْعِ لِمُمْحِلٍ
وتُشْبِعُ أَصْنَافَ السِّبَاعِ مَلَاحِمُهْ
إذَا بَعَثَ الْجَيْشَ اللُّهَامَ إِلَى العِدَا
تلَتْهُ سَرَاحِيْنُ الفَلَا وَحَوَائِمُهْ
فيُطْعِمُهَا مِمَّا تَنَالُ رِمَاحُهُ
لحُوْماً وَحَظُّ الْجَيْشِ مِنْهُمْ غَنَائِمُهْ»[1]

وقد جمع أسباب المدح في الإشباع للصديق وللعدو، فهذا الصديق له مائدة، وهذا العدو على مائدة يرد عليها السبع والطير.

وإذا كان ابن مشرف ذكر في هذه الأبيات أن الطير والسباع تتبعه، فإن عنترة بن شداد العبسي، في أبياته التالية، يأمرها أن تتبعه، ويعدها برزق وافر، يستحق منها بعده الشكر على ما أنالها إياه من لحوم أعدائه، وما هيأه لها

(١) ديوان ابن مشرف: ١٢٧.

من مأدبة حافلة، وما أمكنها به من أن تحمل من جماجم القتلى طعاماً لبنيها، ممن لم يحضروا إلى موقع القتال؛ وطلب منها أن تشيع خبر فروسيته، وما أبداه من شجاعة:

«يَا سِبَاعَ الفَلَا إِذَا اشْتَعَلَ الْحَـ
ـرْبُ اتْبَعِيْنِيْ مِنَ القِفَارِ الخَوَالِي

إِتْبَعِيْنِـيْ تَـرَيْ دِمَـاءَ الأَعَـادِيْ
سَائِلَاتٍ بَيْنَ الرُّبَى والرِّمَالِ

ثُمَّ عُوْدِيْ مِنْ بَعْدِ ذَا واشْكُرِيْنِي
واذْكُرِيْ مَا رَأَيْتِهِ مِنْ فِعَالِي

وخُذِيْ مِنْ جَمَاجِمِ الْقَوْمِ قُوْتاً
لِبَنِيْـكِ الصِّغَـارِ وَالأَشْبَـالِ»[1]

وليس بعيداً عن بعض ما جاء في هذه قوله من قصيدة أخرى، يصف فيها مقام السباع

(١) ديوان عنترة: ٢٠٠.

والطيور حيث يقول :

«كَمْ فَارِسٍ غَادَرْتُ يَأْكُلُ لَحْمَهُ
ضَارِي الذِّئَابِ وَكَاسِرَاتِ الأَنْسُرِ»(1)

وهذه صورة مجردة من الزخارف التي يعمد إليها بعض الشعراء، ليبدعوا فيما قالوا، وينفردوا بجانب جديد، يضيفونه إلى ما سبقهم إليه غيرهم.

وليس بعيداً في التجرد من المحسنات، والإضافات المبدعة قول عنترة، واصفاً فعله في موقعة أخرى، ودور العقبان في نهش لحوم أعدائه، الذين تركهم مجندلين في مكان الوقعة :

«وَإِذَا غَزَوْتُ تَحُومُ عِقْبَانُ الفَلَا
حَوْلِي فَتَطْعَمُ كَبْدَ كُلِّ غَضَنْفَرِ»(2)

---

(1) ديوان عنترة : ١٥٣ .

(2) ديوان عنترة : ١٥٣ .

وإذا كان ابن مشرف في صورة سابقة قد قسم الغنائم بعد المعركة، فأعطى الجيش المغنم، وأعطى السباع والطير لحم الأعداء وعظامهم وجماجمهم، فهو هنا أيضاً يعمد إلى التقسيم، وإعطاء كل ذي حق حقه من نعم المعركة، حتى الأرض أعطاها الدماء حقاً لها، فقال، مادحاً الإمام فيصل في عام ١٢٧٨ هجري:

«فَكَمْ جَحْفَلٍ بِالْمُرْهَفَاتِ أَبَادَهُ
فَقَتْلَاهُمُ مِثْلَ الهَشِيْمِ هَشِيْمُ
فلِلْأَرْضِ مِنْهُم مَا جَرَى مِنْ دِمَائِهِمْ
ولِلطَّيْرِ مِنْهُمْ وَالسِّبَاعِ لُحُومُ»[1]

والأرض تروى من الدماء التي سفكها ممدوحه الإمام فيصل بعد غزوة غزاها في عام ١٢٧٩ هجري، ولا يسقيها مرة واحدة بل يسقيها مرة أخرى، والنسور والسباع تعيش

---
(١) ديوان ابن مشرف: ١٣٣.

على الساقط من أعدائه في المعركة، يقول:

فَسَقَى، وَرَوَّى أَرْضَهُم بِدِمَائِهِمْ
قتْلًا، وَأَنْهَلَهَا بِذَاكَ، وَعَلَّهَا
فيْ كُلِّ مَلْحَمَةٍ تَعِيْشُ نُسُورُهَا
منْهَا، وَتَرْتَادُ السِّبَاعُ مَحِلَّهَا»[1]

وليست المعارك في الشرق وحدها هي ما ترتاد أراضيه السباع والطير، بل في الغرب أيضاً لها من هذا نصيبها، فابن هانئ الأندلسي يأتي بصورة من هذه الصور، ويدلي بدلوه في هذا المعرض المزدحم بالرسوم المعبرة، فيقول في إحدى قصائده:

«فِيْ فِتْيَةٍ صَدَأُ الدُّرُوْعِ عَبِيْرُهُمْ
وخُلُوفُهُم عَلَقُ النَّجِيْعِ الأَحْمَرِ
لا يَأْكُلُ السِّرحَانُ شِلْوَ ضَعِيْنِهِمْ
مِمَّا عَلَيْهِ مِنَ القَنَا الْمُتَكَسِّرِ»[2]

---

(١) ديوان ابن مشرف: ١٤٣.

(٢) ديوان ابن مشرف: ١٨١.

والفرزدق له قول في هذا كما يتوقع، ويكاد يكون لكل واصف معركة في الصحراء قول يصوره بالصورة التي رآها، أو تخيلها، يقول الفرزدق:

«وَقَدْ رَأَى مُصْعَبٌ فِيْ سَاطِعٍ سَبِطٍ
مِنْهَا سَوَابِقَ غَارَاتٍ أَطَانِيْبِ
يَوْمَ تَرَكْنَ لإِبْرَاهِيْمَ عَافِيَةً
مِنَ النَّسُورِ وُقُوْعَاً وَاليَعَاقِيْبِ»[1]

مصعب هو أخو عبدالله بن الزبير، واليعاقيب هي ذكور العقبان، فهذه الغارات المتتابعة، تركت وراءها قتلى من بينهم الفارس المذكور، فوقعت على جثمانه النسور وذكور العقبان، وهذه أقوى الطيور الجارحة.

والكميت بن زيد أكثر من مدح آل البيت، وهاجم من اعتقد أنهم أعداؤهم، وركز على

(١) ديوان الفرزدق: ١/ ٢٦.

الأمويين، وقد جاء في شعره صورة من الصور التي يرسمها الشعراء للسباع والطيور، وهي تلغ في دماء القتلى، وتنهش لحومهم، وتحمل أشلاءهم، يقول:

«سَقَى جُرَعَ الْمَوْتِ ابنَ عُثْمَانَ بَعْدَمَا
تعَاوَرَهَا مِنْهُ وَلِيْدٌ وَمَرْحِبُ
وشَيْبَةُ قَدْ أَثْوَى بِبَدْرٍ يَنُوْشُهُ
غدَافٌ مِنَ الشُّهْبِ القَشَاعِمِ أَهْدَبُ
لَهُ عُوَّدٌ، لَا رَأْفَةً يَكْتَنِفْنَهُ
ولَا شَفَقًا مِنْهَا، خَوَامِعُ تَعْتِبُ»[1]

ابن عثمان، هو طلحة بن أبي طلحة، قتله علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه - يوم أحد، وكان عثمان يحمل لواء المشركين في هذه المعركة؛ والوليد، هو الوليد بن عتبة. و «مرحب» اليهودي، وقد قتلهما علي بن أبي طالب - رضي

(١) ديوان الكميت: ١٢٧=٤٩.

الله عنه ـ في غزوة بدر؛ أما «شيبة»، فهو شيبة ابن ربيعة بن عبدشمس، قتله علي وحمزة ـ رضي الله عنهما ـ.

فشيبه هو الذي وقعت عليه النسور السوداء المسنة كثيرة الريش، فأخذت تقطع أوصاله، وتأكل لحمه؛ وعلى من يراها، وهي تذهب وتعود، ملحفة في الوقوف عليه، يظن أنها تعوده، وتستشفي له، وأن هذه عناية منها به، وشفقة منها عليه؛ وهي في الحقيقة نسور تأكل من لحمه، وهي تمشي وتعتب في مشيها، وتخمع في خطوها، فعل النسور دائماً.

ويهيء عنترة مأدبة مماثلة للضباع بعد إحدى المعارك التي خاضها، وكانت حصيلتها من أعدائه مكبلين، وقتلى، يقول:

«تَرَكْنَا ضِرَاراً بَيْنَ عَانٍ مُكَبَّلٍ
وبَيْنَ قَتِيْلٍ غَابَ عَنْهُ النَّوائِحُ

وعَمْراً وَحَبَّاناً، تَرَكْنا بِقَفْرَةٍ
تَعُوْدُهُمَا فِيْهَا الضِّبَاعُ الْكَوَالِحُ
يجَرِّرْنَ هَاماً فَلَّقَتْهَا رِمَاحُنَا
تزَيَّلُ مِنْهُنَّ اللِّحى وَالمَسَائِحُ»[1]

وكثرة المعارك التي خاضها تجعل من المتوقع، وهو الشاعر المعروف، أن يكرر وصف منظر السباع والطير وهي على مائدة معاركه، تشبع من قتلاه، وقتلى بسيوف قومه من أعدائهم؛ سواء قال هذا الشعر عنترة، أو قيل فيما بعد على لسانه من معجبين، وليس هذا هو أول نحل، يلصق بعنترة، بل إن أكبر نحل هي القصة الشعبية المتداولة.

يقول عنترة واصفاً نتائج إحدى المعارك التي خاضها مع قومه ضد أعدائهم:

(١) ديوان عنترة: ٣٩.

وَقِرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ لَدَى مَكَرٍّ
عَلَيْهِ سَبَائِباً كَالأُرْجُوَانِ
تَرَكْتُ الطَّيْرَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ
كَمَا تَرْدِي إِلَى العُرْسِ الْبَوانِي
وتَمْنَعُهُنَّ أَنْ يَأْكُلْنَ مِنْهُ
حَيَاةُ يَدٍ وَرِجْلٍ تَرْكُضَانِ»[١]

يصور عنترة حركة الطير، وتدافعها على القرن الذي قتله، برقصة من يزففن العروس، وهن يمشين مشية فيها تمايل، ولأقدامهن ردي، يتماشى مع تمايل الأجسام.

ويعود في معركة أخرى فيرسم صورة للمعنى الذي في ذهنه مما شهده بعد المعركة، مما حدث للموتى، والجرحى من أعدائه، ويعود مرة أخرى لتقسيم مكاسب المعركة، فيجعل لنفسه النفوس، وإزهاقها، وللطير اللحوم ونهشها، وللوحوش

(١) ديوان عنترة: ٧٢.

العظام وقرضها، وللخيالة السلب من الغنائم، فيقول:

«إِذَا الْتَقَيْتُ الأَعَادِيْ يَوْمَ مَعْرَكَةٍ
تَرَكْتُ جَمْعَهُمُ الْمَغْرُوْرُ يُنْتَهَبُ
لي النُّفُوسُ، وَلِلَّطيْرِ اللُّحُومُ، وَلِلْـ
ـوَحْشِ العِظَامُ، وَلِلْخَيَّالَةِ السَّلَبُ»[1]

وهذه قسمة عادلة، أعطت الصورة جِدة في هذا المقام.

ويقول عنترة، واصفاً موقفاً آخر، وراسماً كالعادة النسور، وهي تنهش العظام، وتأكل اللحم:

«وَبِالسَّيْفِ قَدْ خَلَّفْتُ فِيْ القَفْرِ مِنْهُمُ
عِظَاماً، وَلَحْماً لِلنُّسُورِ الكَوَاسِرِ»[2]

---

(١) ديوان عنترة: ٧٢.

(٢) ديوان عنترة: ١٤٨.

ولعله ترك العظام للسباع، ولكنه لم يذكرها لأن الوزن اقتضى عدم ذكرها.

ونختم أقوال عنترة في هذا الشأن بقوله الآتي:

«وَكَمْ مِنْ فَارِسٍ أَضْحَى بِسَيْفِي
هَشِيْمَ الرَّأْسِ مَخْضُوْبَ اليَدَيْنِ
يَحُوْمُ عَلَيْهِ عُقْبَانُ المَنَايَا
وتَحْجِلُ حَوْلَهُ غِرْبَانُ بَيْنِ»[1]

إن من نازله عنترة فارس، والأداة التي بيد عنترة هي السيف، والهدف رأس القِرْن، ولعله حاول أن يتقي ضربات عنترة بيده، فجرحها السيف وأدماها، فأثر فيها بتلوينها مثلما يؤثر الحناء في يد الفتاة؛ وفي كلمة «مخضوب» على هذا استهزاء.

والعقبان فوق رأس المتقاتلين تحوم، وتستهلك

---

(١) ديوان عنترة: ٢٢٥.

ما في حواصلها من طعام، لتخلفه بلحم طري، يوفره لها الأبطال من الأبطال، ويهيؤه الفرسان من أجساد الفرسان؛ والطير يحوم، والمنايا تحوم معه؛ وعلى الأرض الغربان، وهي أسرع للنزول، وأسهل للصعود، متى شاءت، فهي تحجل حول الجثث، تأخذ نصيبها قبل أن تنزل الكواسر من العقبان، والجوارح من النسور، ووافد السباع.

وإذا كان هذا آخر ما وجدناه من أقوال عنترة عن الطير الكاسر، والسبع الضاري، فليس هو آخر صور نتائج المعارك عنده، فمما قاله في القتلى الذين لم يذكر ورد السباع والطيور عليهم، قوله الآتي:

«وَمُسَرْبَلٍ حَلَقَ الْحَدِيْدِ مُدَجَّجٍ
كَاللَّيْثِ بَيْنَ عَرِيْنِهِ الأَشْبَالُ
غَادَرْتُهُ لِلْجَنْبِ، غَيْرَ مُوَسَّدٍ
مُنْثَنِي الأَوْصَالِ عِنْدَ مَجَالِ»(١)

---

(١) ديوان عنترة: ١٩٢.

هذا قتيل لم يدفن، ولم يوسد في قبره لبنة تحت رأسه، كما هو المعتاد، بل ترك في العراء، وقد تجمع جسمه، وانثنت أوصاله المختلفة عند مكان الالتقاء والمصاولة.

ويأتي بصورة أخرى، قد تدل على أن القتلى فئتين، فئة اعتني بها، ودفنت، ووسد رأسها على لبنة كالمعتاد، وفئة أهملت، وتركت في ميدان القتال، يعفرها التراب، يقول عنترة عن هذا:

«وَمُوَسَّدٍ تَحْتَ التُّرَابِ، وَغَيْرُهُ
فوْقَ التُّرَابِ، يَئِنُّ، غَيْرَ مُوَسَّدِ»(١)

ومثل قول عنترة يأتي قول رجل من حمير، يصف فيه وقعة كانت لبني عبد مناة، وكلب، على حمير، يقول في ذلك:

---

(١) ديوان عنترة: ١٣٨.

«وَكَمْ تَرَكْنَا هُنَاكَ مِنَ بَطَلٍ
تسْفِي عَلَيْهِ الرِّيَاحُ فِيْ لَمَمِهْ»(١)

ويشارك عامر بن معشر من بني عبدالقيس، وقيل إن الأبيات للمفضل النكري، في رسم صورة للطير والسباع في الأبيات الآتية، والقصيدة تسمى «المنصفة»، لأنها تعطي الأعداء حقهم في الإقرار بما أبدوه من شجاعة:

«فَكَمْ مِنْ سَيِّدٍ مِنَّا وَمِنْهُمْ
بِذِي الطَّرْفَاءِ مَنْطِقُهُ شَهِيْقُ
فَأَشْبَعْنَا السِّبَاعَ، وَأَشْبَعُوْهَا
فَرَاحَتْ كُلُّهَا تَئِقٌ يَفُوْقُ
تَرَكْنَا الطَّيْرَ عَاكِفَةً عَلَيْهِمْ
فَلِلْغِرْبَانِ مِنْ شِبَعٍ نَغِيْقُ»(٢)

لقد شبعت الغربان، وامتلأت حواصلها،

---

(١) شرح الحماسة: ١/ ٣١٧.

(٢) كتاب الاختيارين: ٢٤٩.

حتى صار يسمع صوتها، وكذلك السباع شبعت، وامتلأت بطونها، وصارت تصوت، بعد أن أصبح الأكل لا يشغلها.

وفي موقعة بدر، قاتل أبو أسامة معاوية بن زهير الجشمي عن هبيرة بن أبي وهب حتى أفلت، فقال أبو أسامة أبياتاً منها:

«فَلَـوْلَا مَـوْقِفِـي ظَلَّـتْ عَلَيْـهِ
مَـوَقَّفَـةُ القَـوَائِـمِ: أُمُّ أَجْـرِي
دفُـــوْعٌ لِلْقُبُـــورِ بِمَنْكِبَيْهَـــا
كأَنَّ بِوَجْهِهَا تَحْمِيْمُ قِدْرِ»[1]

لقد أنقذ أبو أسامة هبيرة، إذ مر به، وهم منهزمون، فرأى إعياءه، فألقى عنه درعه، وحمله، ومضى به، ونجاه من وقوف الضبع عليه، بأقدامها المخططة، ووجهها الأسحم،

(١) كتاب الاختيارين: ٢٦٢.

الذي كأنه صبغ بسواد قدر؛ وأشار إلى شراستها بأنها أم جراء، تنبش القبور بمنكبيها القويين.

ولمالك بن نويرة أبيات يذكر فيها الطير التي ترد ميادين المعارك بعد القتال، يقول فيها:

«فَأَقْرَرْتُ عَيْنِي، حِيْنَ ظَلُّوا كَأَنَّهُمُ
بِبَطْنِ الإِيَادِ، خُشْبُ أَثْلٍ، مُنَضَّدُ
صَرِيْعٌ، عَلَيْهِ الطَّيْرُ تَنْتَخُ عَيْنَهُ
وَآخَرُ مَكْبُوْلٌ يَمِيْلُ، مُقَيَّدُ»[1]

لقد شفى غيظه بهذا المنظر، فأعداؤه ما بين قتيل تنقد الطير عينه، وآخر مقيد يمشي بصعوبة.

وهذه أول أبيات تمر بنا فيها صورة استخراج عيون القتلى، بمناقير الطيور.

وقال أبو زبيد، حرملة بن المنذر بن معد يكرب، يرثي اللجلاج ابن أخته، وكان من

(١) كتاب الاختيارين: ٤٥٥.

أحب الناس إليه، في أبيات عديدة يصف في البيتين الآتيين موقفاً رسمه بدقة، يُري جهود أناس حاولوا أن يسندوا المصاب، فلما يئسوا منه تركوه للطير الكاسرة المنتظرة، تقف عليه منتظمة انتظام الرجال حين وفادتهم:

«سَانَدُوْهُ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَوْهُ
شَـدَّ أَجْـلَادَهُ عَلَـى التَّسْنِيْـدِ
يئِسُـوا ، ثُـمَّ غَـادَرُوْهُ لِطَيْـرٍ،
عكَّفٍ حَوْلَهُ، نُزُوْلَ الوُفُودِ»[1]

وفي البيت الآتي، وهو لعلقمة بن عبدة التيمي، وصف للطير الكاسرة، ولكن الصورة أخذت جانباً، يستحق الالتفات، إذ أن هذه الطير لم تحم فوق موقع معركة، ولم تنزل على جثة، وإنما رأت ثوباً أحمر عليه مرقوم كتابات، فظنته الطير لحما نيئًا، وحمرته دما عبيطا ملطخاً باللحم:

(١) كتاب الاختيارين: ٥٢٥.

«عَقْماً، وَرَقْماً، تَظَلُّ الطَّيْرُ تَتْبَعُهُ
كأَنَّهُ مِنْ دَمِ الأَجْوَافِ مَدْمُومُ»[1]

[عقما: ثوباً أحمر. الرقم: المكتب من الثياب. مدموم: ملطخ].

وهكذا يؤكد أن الطير تتبع الجماعة الراحلة دون أن تميز بدقة ما إذا كانت الجماعة ذاهبة إلى غزو، أو إلى عرس، أو منتقلة من منزل إلى منزل، وثوب الحبيبة الموصوف باللون الأحمر المرقم، زاد الوهم، وغر الطيور.

وعباس بن مرداس السلمي يقول عن الضباع ومشاركتها في نتائج المعركة:

«فَلَوْ مَاتَ مِنْهُم مَنْ جَرَحْنَا لأَصْبَحَتْ
ضِبَاعٌ، بِأَكْنَافِ الأَرَاكِ عَرَائِسَا»[2]

---

(١) كتاب الاختيارين: ٦٣١.

(٢) كتاب الاختيارين: ٧٣٨.

وللمرقش الأكبر أبيات عن السباع، وظهورها بعد المعركة، لتأخذ نصيبها من لحوم القتلى يقول فيها:

«مَنْ مُبْلِغُ الأَقْوَامِ أَنَّ مُرَقِّشاً
أَمْسَى عَلَى الأَصْحَابِ عِبْئاً مُثْقِلَا
ذَهَبَ السِّبَاعُ بِأَنْفِهِ فَتَرَكْنَهُ
أَعْثَى عَلَيْهِ بِالْجِبَالِ وَجَيْأَلَا
وكَأَنَّمَا يَرِدُ السِّبَاعُ بِشِلْوِهِ
إِذْ غَابَ جَمْعُ بَنِي ضُبَيْعَةَ، مَنْهَلَا»[1]

حظ المرقش كبير إذ لم يذهب إلا أنفه، إذ لم يكن في ميدان حرب، ولعل لجوءه إلى كهف أنقذه من ذكر الضبع وأنثاه، وقد هما به في الجبال، عند غياب قومه، في القصة المعروفة عنه.

[الأعثى: كثير الشعر، وهو الضبع، والجيأل:

(١) المفضليات: ٢/ ٢٢.

أنثى الضبع].

وقال محرز بن المكعبر الضبي عن الضباع، وما أتحفوها به من لحم، والضباع هي الحاضرة دائماً عند المواقع، تكاد لا تفوتها موقعة:

«ظَلَّتْ ضِبَاعُ مُجَيْرَاتٍ يَلُذْنَ بِهِمْ
وأَلْحَمُوهُنَّ مِنْهُمْ أَيَّ إلْحَامِ
سارُوْا إِلَيْنَا وَهُمْ صِيْدٌ رُؤُوسُهُمْ
فقَدْ جَعَلْنَا لَهُمْ يَوْماً كَأَيَّامِ
حتَّى حُذُنَّةَ لَمْ نَتْرُكْ بِهَا ضَبُعاً
إلَّا لَهَا جَزَرٌ مِنْ شِلْوِ مِقْدَامِ»[1]

مؤدى القول الذي رسمت به الصورة أن الضباع التي في المكان المسمى مجيرات لذن بالمقاتلين، فأطعموهن من لحوم السادة القتلى، في يوم من الأيام المعدودة، ولم يقتصر العطف

(١) المفضليات: ٢/ ٥٢.

على ضباع مجيرات، وإنما تعدى إلى ضباع حذنة، وقد أطعمت جميعها من أشلاء القتلى رؤساءِ الأعداء.

وضمرة بن ضمرة النهشلي يدلي بدلوه في هذا الباب، ويؤكد أن عدداً من أنداده الأبطال، وأمثاله الشجعان، قد جندله، وتركه طعمة للطير الكواسر تحجل حوله، وتطعم من دم جوفه الجامد، ويبدو أن هذا النوع من الدم محبب إليها[1]، أو أن ذكره من قبل الشاعر فيه إلماح إلى مدى تغلغل الطعنة بالرمح، أو الضربة بالسيف، فيقول في هذا:

«وَقِرْنٍ تَرَكْتُ الطَّيْرَ تَحْجِلُ حَوْلَهُ
عليْهِ نَجِيْعٌ مِنَ دَمِ الجَوْفِ جَاسِدِ»[2]

---

(١) يقول النابغة الذبياني في ديوانه (٢٣١):

ولوا وكبشهم يكبو لجبهته   عند الكماة صريعاً جوفه دامي

ويقول (الديوان: ٢٥٨):

وتخضب لحية غدرت وخانت   بأحمر من نجيع الجوف آن

(٢) المفضليات: ٢/ ١٢٤.

وعنترة كان ـ كما رأينا ـ مغرماً بهذا المعنى، وصورة السباع الضارية، والطيور الكاسرة، وهي عكف على جثث الأعداء، يعود مرة أخرى إلى هذا فيقول:

«وَلَرُبَّ قِرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ مُجَدَّلًا
بلَبَانِهِ كَنَوَاضِحِ الجِرْيَالِ
تنْتَابُهُ طُلُسُ الذِّئَابِ مُغَادَرَاً
فيْ قَفْرَةٍ متَمَزِّقَ السِّرْبَالِ»[1]

«ولرب قرن» هذه تؤكد كثرة الأقران الذين جندلهم، وأخذ من «الجريال» لونها الأحمر، وفي بعض معاني الجريال أنها الخمر؛ واختار طلس الذئاب، وهي ما خالط لونها الأغبر السواد، وهي من أشرس الذئاب؛ وفي جزيرة العرب أماكن فيها ذئاب شرشة منها ذئب العرمه، وموقعها في الشمال الشرقي من الرياض؛ أما

(١) لباب الألباب: ١٨٤.

في جبال السراة فالذئب لا يأبه إلا للغنم، ويخشى حتى صغار الرعاة في بعض الأماكن.

وشعراء العامية لهم النظرة نفسها، ولا عجب أن يذكر الشاعر العامي في زماننا الوحش، فيقول العوني:

«وْخَمْسِ مْيِهْ مِنْ لَابِتُهْ عِزِّيْ لَهَا
خلَّاهْ لِهَجَّافْ السِّبَاعِ مْزَارْ»(١)

أي خمس مئة من جماعته وعصبته يرثى لها، لأنه تركها مزاراً للسباع الضارية، تنهل منها وتعل؛ أو «تمزرها» وتمزقها.

ولكن العجب أن يتمسك العوني بالصورة القديمة فلا يكتفي بالسباع التي تأتي بعد انتهاء المعركة، وخلو الميدان من المقاتلين، وهدوئه، مما يشجع السباع على التقدم، وإنما العجب

(١) ديوان النبط: ٢/ ٣٠٢.

أن تظلّل الطير المقاتلين، وتبقى فوق رؤوسهم، وهم يطلقون الرصاص والبارود، فإن لم يصبها الرصاص والبارود، فسوف يزعجها الصوت المدوي، والدخان العابق، يقول العوني، وصفاً لموقعة أخرى، وهي موقعة البكيرية، في عام ١٣٢٢ هجري:

«وَالطِّيْرْ ظَلّ فُوْقِنَا يَوْمْ صِلْنَا
يرجِيْ يِمَانِيْنَا وَعَدْلَاتْ الأَنْظَارْ»[١]

هذه نماذج من هذه الصور الشعرية المتكررة، بأساليب مختلفة، تمسك كثير من الشعراء بها، فختموا بها وصفهم للمعركة، وَلِجَوِّهَا، ولميدانها، وهي صورة صادقة، ومرعبة؛ وهي تختم المآسي التي تصاحب الحروب، وتنتهي بها، ولسان هذه الصورة يقول: مصائب قوم عند قوم فوائد، فمصائب الناس فوائد للطير وللسباع.

---

(١) ديوان النبط: ٢/ ٢٧٧.

المـــرأة

المرأة أم وأخت وبنت وزوجة وقريبة وبعيدة وجارة، معك، أو ضدك، لك أو عليك، جميلة أو قبيحة، كبيرة أو صغيرة، عاقل أو هوجاء، فيها تلك الصفة أو ضدها، تبقى هي نصف المجتمع، وقد تزيد قليلاً في العدد أو تنقص، وقد تكون أهم من الرجل في بعض جوانب الحياة في المجتمع؛ وقد تكون محور الأمر، وقد تكون على هامشه وأطرافه.

شغلت المرأة ذهن الرجل إيجاباً أو سلباً، عُبدت في زمن من الأزمان، ووئدت في زمن آخر، ملكت ممالك، وقادت جيوشاً؛ وقتلت بفتنتها وجمالها عشاقاً، وأخرجت رجالاً من ورطات ومشاكل، وكانت سبباً في حروب، واستئصال أمم، عُمِّرت بسببها بلدان، ودُمِّرت

بلدان؛ روعيت وأهملت، وَفَّرت ثروات، وأهدرت ثروات؛ غلبت أحياناً زوجها بالكرم، وبزته أحياناً بالبخل؛ هي أم غيرُها زوجة، وهي بنت غيرُها أخت.

وفي هذا كله حسناتها وسيئاتها تماماً مثل سيئات الرجل وحسناته، وكما خلق الله الرجال مختلفين في طباعهم خلق الله النساء مختلفات، والأمر يعود إلى الفطرة والتربية، والنصيب من العلم، وتجارب الحياة، وظروف المجتمع؛ والمرأة أيضاً مثل الرجل قد تكون اليوم هادئة، وفي اليوم التالي مضطربة، وقد تكون اليوم قاسية، وغداً لينة، هي مثل الرجل في هذا، وليس هناك ما يجعلها تختلف.

ولمقام المرأة هذا جاء عنها في التراث شيء كثير، ومثل الرجل لم يدون إلا ما كان طريفاً، أو مدهشاً، أو ما فيه شذوذ، أو جاء بما لم

يُتوقع. وفي النصوص التي نسوقها سوف تظهر بعض الصفات والطبائع، وسوف نرى مواقف للمرأة في المجتمع، بعضها حقيق، وبعضها رمز؛ بعضها حدث، وبعضها خيال، بعضها من الحياة، وبعضها خرافة، وما سوف نسوقه قليل من كثير مما تغص به كتب الأدب والتاريخ.

وسوف ننتقل من حالة إلى حالة دون مراعاة لتسلسل الحالات المتشابهة، ابتعاداً عن الملل، وهروباً من التكلف الأكاديمي، في رصد المتشابه، واقتناص المتماثل، وبهذا لا نزرع فكرة تَثْبِيت صفة غير ثابتة، أو طبيعة غير متواترة، فنعطي بذلك صوراً تخالف الحقيقة، وتتنافى مع الواقع.

ومن القصص التي شع فيها نور العقل عند المرأة، وغلبت فيها الرجل بفكرها، وفتح الله

عليها، فجاءت بالرأي الصواب، والحكمة البالغة القصة الآتية:

«قال القاضي أبو عبدالله الواقدي:

جاءتني جارتي (زوجته) يوم عرفة، فقالت لي:

ما عندنا من آلة العيد شيء.

فمضيت إلى صديق لي من التجار، فعرّفته حاجتي إلى القرض، فأخرج إليّ كيساً فيه ألف ومئتا درهم، فانصرفت به إلى المنزل، فما استقررت جالساً حتى استأذن عليّ رجل من بني هاشم، فذكر تخلف غلته، واختلال حاله، وحاجته إلى القرض، فدخلت إلى امرأتي فعجبتها من ذلك، فقالت:

فما عزمك؟

قلت: أشاطره الكيس.

فقالت: والله ما أنصفت، لقيت رجلًا سوقة،

فأعطاك شيئاً، وجاءك رجل له من رسول الله ﷺ رحم، فتعطيه نصف ما أعطاك السوقة!

فأخرجت الكيس بخاتمه، فدفعته إليه.

ومضى صديقي التاجر يلتمس منه القرض، فأخرج إليه الكيس بخاتمه؛ فلما رآه عرفه، فجاءني به.

ثم وافاني رسول يحيى بن خالد يقول:

إن الوزير شُغل عنك بحاجات أمير المؤمنين، وهو يطلبك، فركبت إليه، وحدثته حديث الكيس، وانتقاله، فقال:

يا غلام، هات تلك الدنانير.

فجاء بعشرة آلاف دينار، فقال:

خذ أنت ألفين، واعط الهاشمي ألفين، وصديقك التاجر ألفين، وامرأتك أربعة آلاف دينار، فإنها أكرمكم». (١)

(١) الجليس الصالح: ١/ ٣١٢.

أَمَا وأن المرأة كريمة ففعلها يشهد بذلك، ولم تكتف بأن تقترح إعطاء الكيس كله، ولكنها أردفته بمنطق مقنع، جعل زوجها يقبل رأيها قبولًا حسناً، وعاد فعلها هذا على الجميع بالخير، وعليها هي بالخير العميم، و «لا يذهب العرف بين الله والناس».

هذه امرأة سطع نور العقل في رأسها، ونور الخير في روحها، ونور الحب في قلبها، نسيت نفسها، ونسيت حاجتها، ولم تذكر إلا حاجة الآخرين؛ وألم الحاجة أمر قد عرفته، ولم ترد أن يعاني الآخرون معاناتها، خاصة وأن لهم صلة رحم بسيد المرسلين، وأي قربى أكبر من فك عسرة واحد يمت للرسول ﷺ بصلة، وفي يوم فضيل كيوم عرفة؛ والله أكرم من كل كريم، فقد رد معروفهم مردوداً مضاعفاً، ونَمَّى إحسانهم نمواً لم يكونوا يفكرون فيه،

أو يحلمون به .

بقي ملاحظة لا أريد أن تمر دون أن نعطي صاحب الفضل حقه، فالأمر لم يكن كما قال يحيى بن خالد، حقاً إن المرأة أكرم من زوجها؛ ولكن التاجر هو أكرم القوم، لأنه أعطى كل ما يملك، ثم راح يستدين .

وخلاف هذه المرأة، وعملها النبيل، وفكرها النير، والضياء، الذي بثه عقلها على موقف من مواقف النبل، تأتي امرأة أخرى، لم يملأ النور نفسها مثل سابقتها، وأضاق نظرتها إلى الحياة والناس، ولم تملأ الثقة بالله، وبفضله، نفسها، فبخلت حين جاد زوجها، ومنعت حين أعطى حليلها، والقصة كمايلي :

وفد عبيد الله بن العباس على معاوية بن أبي سفيان؛ فلما كان ببعض الطريق عارضته سحابة، فأمّ أبياتاً من الشعر، فإذا هو بأعرابي

قد قام إليه؛ فلما رأى هيئته وبهاءه؛ وكان من أحسن الناس شارة، وأحسنهم هيئة، قام إلى عنيزة له ليذبحها، فجاذبته امرأته، ومانعته، وقالت:

أكل الدهر مالك، ولم يبق لك ولبناتك إلا هذه العنيزة، يتمتعون منها، ثم تريد أن تفجعهن بها، فقال:

والله لأذبحها، فَذَبَحها أحسن من اللؤم.

قالت: إذاً والله لا تبقي لبناتك شيئاً،

فأخذ العنيزة، وأضجعها، وقال:

قَـرِيْنَتِـي لَا تُـوقِظِـيْ بُنَيَّـهْ
إِنْ تُـوقِظِيْهَـا تَنْتَحِـبْ عَلَيَّـهْ
وَتَنْـزِعُ الشَّفْـرَةَ مِـنْ يَـدَيَّـهْ
أَبْغِـضْ بِهَــذَا وَبِــذَا إِلَيَّـهْ

ثم ذبح الشاة، وأضرم ناراً، وجعل يقطع من أطايبها، ويلقيه على النار، ثم يناوله عبيد

الله، ويحدثه في خلال ذلك بما يلهيه ويضحكه؛ حتى إذا أصبح عبيد الله، وانجلت السحابة، وَهَمَّ بالرحيل، قال لقيّمه

ما معك؟

قال: خمس مئة دينار.

قال: القها إلى الشيخ.

قال القيم: جعلت فداك، إن هذا يرضيه عشر ما سميت وأنت تأتي معاوية، ولا تدري على ما توافقه، على ظاهره أم على باطنه.

قال: ويحك! إنا نزلنا بهذا، وما يملك من الدنيا إلا هذه الشاة، فخرج لنا من دنياه كلها؛ وإنما جدنا له ببعض دنيانا، فهو أجود منا.

ثم ارتحل، فأتى معاوية، فقضى حوائجه؛ فلما انصرف، وقرب من رَحْل الأعرابي، قال لوكيله:

انظر ما حال صاحبنا.

فعول إليه، فإذا إبل، وحال حسنة، وشاء كثير. فلما بصر الأعرابي بعبيد الله قام إليه، فأكب على أطرافه يقبلها، ثم قال:

بأبي أنت وأمي، قد مدحتك، وما أدري من أي خلق الله أنت، ثم أنشده:

تَـوَسَّمْتُـهُ لَمَّـا رَأَيْـتُ مَهَـابَـةً
عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: الْمَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمِ
وَإِلَّا فَمِـنْ آلِ المِـرَارِ فَـإِنَّهُـمْ
مُلُوْكٌ وَأَبْنَاءُ المُلُوْك الأَكَارِمِ
فَقُمْـتُ إِلَـى عَنْـزٍ بَقِيَّـةِ أَعْنُـزٍ
فَأَذْبَحُهَا فِعْلَ امْرِئٍ غَيْرِ نَادِمِ
فَعَـوَّضَنِـيْ مِنْهَـا غِنَـايَ وَإِنَّمَـا
يُسَاوِيْ لُحَيْمَ العَنْزِ خَمْسُ دَرَاهِمِ
أَفَدْتُ بِهَا أَلفاً مِنَ الشَّاءِ حُلَّباً
وَعَبْداً وَأُنْثَى بَعْدَ عَبْدٍ وَخَادِمِ

مُبَارَكَةٌ مِنْ هَاشِمِيٍّ مُبَارَكٍ
خِيَارُ بَنِيْ حَوَّاءَ مِنْ نَسْلِ آدَمِ
فِللَّـــهِ عَيْنـــاً مَـــنْ رَأَى لِعُنَيْـــزَةٍ
أَفَادَتْ وَرَاشَتْ بَعْدَ عشْرٍ قَوَادِمِ
فَقُلْتُ لِعِرْسِي فِيْ الخَلاءِ وَصِبْيَتِي
أَحَقٌّ تُرَى هَذَا أَمْ أَحْلَامُ نَائِمِ

قال عبيد الله: قد أصبت وأنا من ولد العباس، وأنا من آل المرار.

فبلغت معاوية فقال: لله در عبيد الله! من أي بيضة خرج! وفي أي عش درج! عبيد الله معلم الجود، وهو، والله، كما قال الحطيئة:

«أُوْلَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوا أَحْسَنُوا البِنَا
وَإِنَ عَاهَدُوا أَوْفَوا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا
وَإِنْ كَانَتِ النُّعْمَى عَلَيْهِمْ جَزَوْا بِهَا
وَإِنَ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُوْهَا وَلَا كَدُّوا»[1]

---

(١) الجليس الصالح: ١/ ٥٤٩.

وتظهر همة امرأة في إنقاذ زوجها من موت محقق، فتركب الصعب، وتتعرض للأخطار، وتمر بمواقف حرجة خرجت منها منتصرة؛ والجهد الذي بذلته، والتصميم الذي أبدته، والعزم الذي لم يلن لها فيه جانب، يعجز كثير من الرجال من الإقدام عليه، وهذه قصتها، وهي ممتعة:

«قال عبيد الله بن عبدالله بن فضالة الزهراني:

نادى منادي الحجاج بن يوسف، يوم «رستقاباذ» آمِنٌ الناس كلهم إلا أربعة (وذكر الأربعة، ومنهم عبدالله بن فضالة).

ثم قال: أما عبدالله بن فضالة فإنه أتى خراسان، فلم يزل بها حتى ولي المهلب خراسان، فأمر بأخذه حيث أصابه، وقيل له:

أَكنَّ ذلك ولا تبده، فيحذر ويحرز، فاحرص على أسره دون قتله.

قال: فبعث المهلب ابنه حبيباً أمامه، فساق من سوق الأهواز إلى مرو، على بغلة شهباء، في سبع عشرة ليلة، فأخذه غارّاً بمرو وهو لا يشعر.

ثم كتب إلى الحجاج يعلمه ذلك.

فجاء المغيرة بن المهلب إلى منزل حبة ابنة الفضل، امرأة عبدالله بن فضالة، وهي ابنة عم عبدالله؛ فأرسل إليها أن حبيباً قد أخذ عبدالله، وقد كتب إلى الحجاج يعلمه بذلك، فإن كان عندك خير فشأنك، وعوّلي عليّ من المال ما بدا لك.

فأرسلت إليه: لا ولا كرامة، تقتلونه، وآخذ منكم المال، هذا ما لا يكون.

فتحولت إلى منزل أخيها لأمها خولي بن مالك الراسي، وأرسلت إلى بني سعد، فأشتُري لها بابٌ عظيم، وألقته على الخندق ليلًا، ثم

جازت عليه، فغُشي عليها، فلما أفاقت قالت:

إني لم أكن أتعب، فمتى أصابني هذا فشدوني وثاقاً، ثم سيروا بي، فخرجَتْ مع خادمها، وغلامها، ودليلها، لا يعلم بها أحد، فسارت حتى دخلت دمشق على عبدالملك بن مروان؛ فأتت أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان، وكانت أمها بنت ذؤيب بن حلحلة الخزاعي، قالت:

يا أم أيوب قصدتك لأمر بهظني، وغم كظمني.

وأعلمتها الخبر، وقصت عليها القصة، فقالت أم أيوب:

قد كنت أسمع أمير المؤمنين يكثر ذكر صاحبك، ويظهر التلظي عليه.

قالت: وأين رحلتي إليك؟

قالت: سأدخلك مدخلًا، وأجلسك مجلساً،

وإن شُفِّعْتِ ففيه، وإن رددت فلا تنصبي، فلا شفاعة لك بعده.

فأجلستها في مجلسها الذي كانت تجلس فيه لدخول عبدالملك ليلًا؛ وجلست أم أيوب قريباً منها، فقالت لها:

إذا دخل فشأنك.

فدخل عبدالملك ليلًا مغتراً، فلما دنا أخذت بجانب ثوبه، ثم قالت:

هذا مكان العائذ بك يا أمير المؤمنين.

ففزع عبدالملك، وأنكر الكلام.

فقالت أم أيوب: ما يفزعك، يا أمير المؤمنين من كرامة ساقها الله ـ عز وجل ـ إليك؟!

فقال: عذت معاذاً، فمن أنت؟

قالت: تُؤَمِّنُ، يا أمير المؤمنين، من جئتك فيه من كان مِنْ خلق الله ـ تعالى ـ ممن تعرف أو لا تعرف، ممن عظم ذنبه لديك أو صغر،

شامياً أو عراقياً، أو غير ذلك من الآفاق؟

قال: نعم، هو آمن.

قالت: بأمان الله - عز وجل - ثم أمانك، يا أمير المؤمنين؟

قال: نعم، فمن هو أيتها المرأة؟

قالت: عبدالله بن فضالة.

قال: أرسلي ثوبي، أنبئك عنه.

قالت: أغدراً، يا بني مروان؟

قال: لا، أرسلي ثوبي أحدثك ببلائي عنده، وهو آمن لك، ولمعاذك.

قال: ألم تعلمي أني وليته السوس، وجندي سابور، وأقطعته كذا وكذا، وفرضت له كذا، ونوهت بذكره، ورفعت من قدره؟

قالت: بلى والله، يا أمير المؤمنين، أفلا أحدثك ببلائه عندك؟

قال: بلى.

قالت: أتعلم، يا أمير المؤمنين أن داره هدمت ثلاث مرات بسببك، لا يستتر من السماء بشيء.

قال: نعم.

قالت: أفتعلم، يا أمير المؤمنين أنك كتبت إلى وجوه أهل البصرة وأشرافها، وكتبت إليه، فلم يكن منهم أحد أجابك ولا أطاعك غيره؟

قال: نعم.

قالت: أفتعلم أنه كان قبل زلته سيفاً لك على أعدائك، وسلماً وبساطاً لأوليائك؟

قال: نعم، حسبك! قد أجبت وأبلغت.

قالت: أفيذهب يوم من إساءته بصالح أيامه، وطاعته، وحسن بلائه.

قال: لا، هو آمن.

قالت: يا أمير المؤمنين، إنه الدما، وإنه الحجاج، وإنه إن رآه قتله.

قال: كلا.

قالت: فالكتاب مع البريد، يا أمير المؤمنين.

قال: فكتب لها كتاباً مؤكداً: «إيّاكَ وإيَّاه، أحسنْ جائزته، ورفده، وخلِّ سبيله».

ثم وجه به مع البريد.

ثم أقبل عليها، فقال:

ما أنت منه؟

قالت امرأته: وابنة عمه.

قال: فضحك، وقال:

أين نشأت؟

قالت: في حجر أبيه.

قال: فوالله لأنت أعرب منه، وأفصح لساناً، فهل معه غيرك؟

قالت: نعم، ابنة عبيد بن كلاب.

قال: النميري؟

قالت: نعم، وكذا وكذا جارية.

قال: فأنا أوليك طلاقها، وعتق جواريه.

قالت: بل تهنيه نساءَه، كما هنأتَه دمه.

فأقبل على أم أيوب، فقال لها:

يا أم أيوب، لا نساء إلا بنات العم.

ثم قال: أقيمي عند أم أيوب حتى يأتيك الكتاب بمحبتك إن شاء الله.

وقَدِم الكتاب، وقد قُدم به على الحجاج من خراسان، فأقامه للناس في سراويل، وقد كان نزع ثيابه قبل ذلك، وعرضه على الناس في الحديد ليعرفوه.

فلما أمسى دعا به الحجاج، فقال له عبدالله:

أتأذن لي في الكلام؟

قال: لا كلام سائر اليوم.

قال: فكساه، وحمله، وأجازه، وخلَّى سبيله، وانصرف إلى أهله، فسألهم عن حبة، فأخبر بأمرها، وقيل له:

ما ندري أين توجهت.

ثم بلغه ما صنعت فكتب إليها :

إنك قد صنعت ما لم تصنعه أنثى ، فاعلميني بمقدمك ، أتلقاك ، ويتلقاك الناس معي ؛ فلم تعلمه حتى قدمت ليلًا ، وهو عند ابنة عبيد بن كلاب ، فقالت :

لا والله لا يؤذن بي الليلة .

فلما أصبح ، أُخبر بمكانها ، فأتاها» .[١]

هذه امرأة كملت فيها صفات المرأة الأصيلة العاقل ، التي تزن كل خطوة تخطوها بميزان الجواهر ، كل خطوة خطتها هي أخت الثانية في المرتبة ، وفي الاختيار ، لا تسبق خطوة الأخرى ، ولا تضعف عنها ، كل خطوة هي لبنة في البناء الذي رسمته لخطتها ، لتنجح النجاح الذي هدفت إليه .

اجتمع لها حُبَّان في قلبها لزوجها ، حب

---

(١) الجليس الصالح : ١/ ٤٦٥ .

الزوجة، وحب ابنة العم، حب القرابة، وصلة الرحم، وكان كل شيء تأتيه هدفه خير، من عتق رقبة زوجها من القتل، إلى عتق زوجته الثانية من الطلاق، وإلى توفير جواريه من البيع والتشريد، إنها لم تُرد أن تنفرد بالسعادة وحدها، وتحرم غيرها منها، لم تُرد أن تكون في عرس، وأن يكون نصيب غيرها المأتم؛ إنها أرادت أن تعم نعمة الله الآخرين، شكراً لله على ما منح، وكأنها تقول:

فَلَا هَطَلَتْ عَلَيَّ وَلَا بِأَرْضِي
سَحَائِبُ لَيْسَ تَنْتَظِمُ البِلَادا

وقمة الفعل النبيل، أنها لم ترد أن تحرم بانتصارها ضرتها من حقها الشرعي، فتأخذ منها زوجها تلك الليلة، بل أثبتت أن نبلها متأصل، وكرمها فياض؛ ولابد أنها بهذا غرست جميلاً فواحاً في قلوب الزوجة، والجواري، بِجوار

الجميل الذي أصَّلت غرسه، وعمَّقت جذوره في نفس زوجها؛ ونالت إعجاب الخليفة عبدالملك بما تبين منها، من صفات شعر عبدالملك أنها رجحت بها على زوجها.

وهذه واحدة من النساء التي حق لبنات جنسها أن يفخرن بها، ونحن في جيلنا نفخر بها، ونشعر نحوها بإعزاز وتقدير، وندعو إلى اتخاذها قدوة، ترتفع النساء بها إلى مثل مصفها.

وهناك امرأة أخرى، وقفت موقفاً يشاد به، فقد أحسنت القول، وبه أحسنت إلى نفسها، ومن حولها، وهذه قصتها، وقد يزيد فعلها عما يمكن أن يقوم به بعض أبرز الرجال:

«حدث حسان بن أبان البعلبكي، قال:

لما قدم سعد بن أبي وقاص القادسية أميراً أتته حرقة بنت النعمان بن المنذر، في جوار في

مثل زيها، تطلب صلته، فلما وقفن بين يديه، قال:

أيتكن حرقة؟

قلن: هذه.

قال: أنت حرقة؟

قالت: نعم، فما تكرارك استفهامي؟ إن الدنيا دار زوال، وإنها لا تدوم على حال؛ تنتقل بأهلها انتقالًا، وتعقبهم بعد حال حالًا، إنا كنا ملوك هذا المصر قبلك، يُجبى إلينا خَرْجه، ويطيعنا أهله، مدة المدة، وزمان الدولة؛ فلما أدبر الأمر وانقضى، صاح بنا صائح الدهر، فصدع عصانا، وشتت ملأنا، وكذاك الدهر، يا سعد، إنه ليس من قوم بحبرة إلا والدهر معقبهم عبرة، ثم أنشأت تقول:

فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالأَمْرُ أَمْرُنَا
إِذَا نَحْنُ فِيهُمْ سُوْقَةٌ نَتَنَصَّفُ

فَأُفٍّ لِدُنياً لَا يَدُوْمُ سُرُوْرُهَا
تَقَلَّبُ تَارَاتٍ بِنَا وَتَصَرَّفُ

فقال سعد: قاتل الله عدي بن زيد، كأنه ينظر إليها حيث يقول:

إِنَّ لِلدَّهْرِ صَوْلَةً فَاحْذَرَنْهَا
لَا تَبِيْتَنَّ قَدْ أَمِنْتَ الشُّرُوْرَا
قَدْ يَبِيْتُ الفَتَى مُعَافًى فَيُرْزَا
وَلَقَدْ كَانَ آمِناً مَسْرُوْرَا

وأكرمها سعد، وأحسن جائزتها، فلما أرادت فراقه قالت:

حتى أحييك تحية أملاكنا بعضهم بعضا:

لاجعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولازال لكريم عندك حاجة، ولا نزع من عبد صالح نعمة إلا جعلك سبباً لردها عليه.

فلما خرجت من عنده تلقاها نساء المصر

فقلن لها:

ما صنع بك الأمير؟

قالت:

حَاطَ لِي ذِمَّتِيْ وَأَكْرَمَ وَجْهِي
إِنَّمَا يُكْرِمُ الكَرِيْمُ الكَرِيْمَا»[1]

امرأة ملء برديها، كانت في عز ضاف، ومقام كريم، دار الزمن دورة، أفقدها معها اتزانها، وعادت فقيرة بعد غنى، مسلوبة السلطة، بعد عز السلطان، وسعة الجاه؛ وكان من أسباب زوال النعمة عنها، مجيء الإسلام، واتساع الفتح، إذ دخل مصرها ضمن الأمصار الإسلامية، فتلاشى في بحبوحة الخلافة الإسلامية؛ فقدرت أخلاق الفاتحين الجدد، وجاءت تطلب حفظ ماء الوجه، وبُلْغَةَ العيش الكريم، فعاملها سعد على أساس القول المنير: «ارحموا عزيز

(١) الجليس الصالح: ١/ ٤٤٠.

قوم ذل»؛ وقدر سابق عزها، فوصله بعز جديد، في حدود الإطار الجديد.

لقد أصابت بوفودها على سعد، وأحسنت في حديثها معه، وكانت تحيتها ترقى إلى مستوى تربيتها، وخلق محيطها؛ وقالت قولاً حكيماً حينما قالت: إنما يكرم الكريم الكريما.

لم تذل نفسها، ولم تتعال، فنجحت وفادتها، وامتلأت يدها بالنعمة، ونفسها بالرضى.

وهناك قصة طريفة تبَادل اللكمات فيها امرأتان، وراء كل واحدة منهما نفس تختلف عن نفس الأخرى، وتضاربت بينهما العواطف، وتشاكست المصالح، ولم ينه الأمر بين المرأتين إلا القاضي، وهذه هي قصتهما العجيبة، إن صحت:

«قال روح بن حرب السمسار:

كنت في دار الطيالسة، فإذا الهيثم بن عدي

حاضر قال :

سمعت محمد بن ليلى يقول :

كنت يوماً في مجلس القضاء ، فوردت علي عجوز ، ومعها جارية شابة .

قال : فذهبت العجوز تتكلم ، وقال :

فقالت الشابة : أصلح الله القاضي ، مُرْها ، فلتسكت حتى أتكلم بحجتي وحجتها ، فإن لحنت بشيء فلتردّ عليّ ؛ فإن أذنتَ لي سَفَرْتُ .

قال : فقلت : أسفري .

قال : فقالت العجوز : إنْ سَفَرتْ قضيتَ لها عليّ .

قال : قلت : أسفري .

فأسفرت ، والله ، عن وجه ما ظننت أن يكون مثله إلا في الجنة .

فقالت : أصلح الله القاضي ! هذه عمتي ، مات أبي ، وتركني يتيمة في حجرها ؛ فربتني ،

فأحسنت التربية، حتى إذا بلغتُ مبلغ النساء قالت:

يا بنية! هل لك في التزويج؟

قلتُ: ما أكره ذلك، يا عمة. هكذا كان؟

قالت العجوز: نعم.

قالت: فخطبني وجوه أهل الكوفة، فلم ترض لي إلا رجلًا صيرفياً، فزوجتني؛ فكنا كأننا ريحانتان، ما يَظُنُّ أن الله خلق غيري، ولا أَظَنُّ أن الله خلق غيره؛ يغدو إلى سوقه، ويروح علي بما رزقه الله؛ فلما رأت العمة موقعه مني، وموقعي منه، حسدتنا على ذلك.

قالت: فكانت لها ابنة، فَسوَّقَتْها، وهيأتها لدخول زوجي علي، فوقعت عينه عليها، فقال لها:

يا عمة، هل لك أن تزوجيني ابنتك؟

قالت: نعم، بشرط.

قال لها: وما الشرط؟

قالت تُصَيِّرِّ أمر ابنة أخي إليّ.

قال: قد صيرت أمرها إليك.

قالت: فإني قد طلقتها ثلاثاً بَتَّةً.

وزوَّجَتْ ابنتها من زوجي، فكان يغدو عليها ويروح، كما كان يغدو علي ويروح.

فقلت لها: يا عمة، تأذنين لي أن انتقل عنك.

قالت: نعم.

فانتقلت عنها.

قالت: وكان لعمتي زوج غائب، فقدم، فلما توسط منزله قال:

مالي لا أرى ربيبتنا؟

قالت: تزوجت، وطلقها زوجها، فانتقلت عنا.

فقال لها: علينا من الحق ما نعزيها بمصيبتها.

قالت: فلما بلغني مجيؤه تهيأت له، وتسوقت.

قالت: فلما دخل علي سلم، وعزّاني بمصيبتي، ثم قال لي:

إن فيّ بقية من الشباب، فهل لك أن أتزوجك؟

قلت: ما أكره ذاك، ولكن على شرط.

قال لي: وايش الشرط؟

قلت: تُصَيِّرُ أمر عمتي بيدي.

قال: فإني قد صيرت أمرها بيدك.

قلت: فإني قد طلقتها ثلاثاً بَتَّةً.

قالت: وقدم بثقله علي من الغد، ومعه ستة آلاف درهم، فأقام عندي ما أقام؛ ثم إنه اعتلّ فتوفي؛ فلما انقضت عدتي جاء زوجي الأول يعزيني بمصيبتي، فلما بلغني مجيؤه تهيأت له، وتسوقت، فلما دخل عليّ قال:

يا فلانة، إنك لتعلمين أنّك كنتِ أحبَّ الناس إليّ، وأعزهم عليّ، وقد حل لنا الرجعة، فهل لك في ذلك؟

قلت: ما أكره ذلك، ولكن تُصَيِّرُ أمر ابنة عمي بيدي.

قال: فإني قد فعلتُ، صيرت امر ابنة عمتك بيدك.

قلت: فإني قد طلقتها ثلاثاً بَتَّة - أصلح الله القاضي - فرجعت إلى زوجي، فما استعداؤها علي؟

فقال ابن أبي ليلى: واحدة بواحدة، والبادي أظلم؛ قومي إلى منزلك»[1].

هذه قصة ممتعة؛ إن صحت فهي عجيبة؛ وهي تكشف عن طبائع النساء، وحرص كل واحدة منهن على حدود مملكتها الزوجية، ومنع الطمع في اختراق هذه الحدود، أو الاستيلاء على بعض الأراضي والممتلكات؛ ولا ينتهي الأمر دون أن يكون هناك رابحة وخاسرة،

---

(١) الجليس الصالح: ١/ ٤٨٢.

وجراح في الصدور عميقة لا يمحوها إلا محو أثرها، والثأر السريع المتقن.

وهناك قصة امرأة من أغرب القصص، تخالفت فيها الخرافة مع الرمز، وتداخلت فيها المواعظ والعبر؛ والمحور في كل ذلك امرأة، مرت بأدوار مدهشة؛ لازم المرأة في مرورها بها سوء طالع مُلِحّ، حتى استقام لها الأمر في نهاية المطاف، والقصة هكذا:

«إن رجلًا من بني إسرائيل خرج في بعض حوائجه، وكانت له امرأة فأوصى بها أخاه؛ وسأله أن يتعهدها، ويقوم بحوائجها، وما تريد، فكان يأتيها فيسألها عن بعض حوائجها وما تريد إلى أن رآها، فوقعت في نفسه، فراودها، فأبت عليه، فقال لها: والله لئن لم تفعلي لأهلكنك.

قالت: لا والله ما أنا بفاعلة، ولا أنا متابعتك على ما تريد، فافعل ما أنت فاعل.

فسكت عنها إلى أن قدم أخوه، فتلقاه، وسأله، وحادثه، إلى أن جرى ذكرها.

فقال: يا أخي، علمتَ أنها راودتني عن نفسي، وفعلت وفعلت؟

فقال أخوه: أي شيء تقول؟

قال: هو والله ما قلت لك.

فلما قدم الرجل لم تكن له همة إلا أن حملها، ولم يسألها عن شيء، تصديقاً لأخيه؛ فأنزلها ليلًا، وضربها بسيفه، حتى ظن أنه قتلها، ثم مضى.

وإن المرأة بقي بها رمق، فقامت تدب إلى أن انتهت إلى أصل دير راهب، فسمع أنينها، فأشرف عليها من ديره، فلما رآها نزل، ودعا غلاماً له أسود، فاحتملاها، فأدخلاها الدير؛ فلم يزل الراهب يعالجها حتى برأت؛ وكان له ابن صغير، قد ماتت أمه، فقال الراهب:

إن شئت أن تذهبي فاذهبي ، وإن شئت أن تقيمي فأقيمي .

فقالت : بل أقيم ، فأخدمك أبداً .

فدفع إليها ابنه ؛ وكانت تربيه إلى أن وقعت في نفس العبد الأسود ، فراودها ، وقال :

والله لئن لم تتابعيني لأهلكنك .

قالت : ما أنا بمتابعتك ، فافعل ما أنت فاعل .

فلما كان الليل جاء إلى الصبي ، وهو نائم بين يديها ، فذبحه ، فلما فعل ذلك مضى إلى الراهب ، فقال له :

أما علمت ما كان من أمر هذه الخبيثة ، وما فعلت بابنك؟ وترى هذه فُعل بها ما فُعل إلا من أمر عظيم قد أتته !

قال الراهب : ويحك ! وما فعلت بابني؟

قال : ذبحته .

فجاء الراهب، فوجد ابنه متشحطا في دمه.

فقال لها: ما هذا؟

قالت: لا علم لي غير أن غلامك كان من أمره وكان، فقصت عليه القصة؛ فقال الراهب:

قد شككتني في أمرك، ولست أحب مقامك معي، فهذه خمسون ديناراً، فخذيها، وامضِ حيث شئت، تكون لك قوة.

فأخذتها، ومضت حيث انتهت إلى قرية، فإذا رجل قد قدم ليصلب، والناس مجتمعون والوالي، فقالت للوالي، وقد رفع الرجل على الخشبة:

هل لك أن تأخذ مني خمسين ديناراً، وتخليّ سبيل هذا الرجل؟

قال: هات.

فحلت كمها، فدفعت إليه الخمسين ديناراً، فخلى سبيل الرجل.

فقال لها الرجل: ما صنع أحد بأحد ما صنعت لي أنت، ولست بمفارقك، أخدمك حتى يفرق الموت بيننا.

فمضى معها حتى انتهيا إلى ساحل البحر، والناس يعبرون في السفن، فدخل، وأدخلها؛ وكان لها هيئة وجمال، فلما رآها أهل السفينة قالوا:

من هذه المرأة منك؟

قال: مملوكة لي.

وقد وقعت في نفس رجل منهم لما رآها، فقال له الرجل:

أتبيعها؟

قال: إني لأكره بيعها ولو أردتُ ذلك ثم علمتْ، للقيت منها أذى، لأنها تحبني، وقد أخذت عليّ ألا أبيعها أبداً.

قال الرجل: بعها، وخذ مالك، واخرج،

ولا تعلمها .

فباعه إياها بمال كثير ، فدفعه إليه ، وأشهد عليه أهل السفينة ، وهي مع النساء وقرب إليه قارباً ، فرجع فيه ، وهي لا تعلم ، ومضوا في البحر . فلما علم الذي اشتراها أنه قد تباعد ، ولا تقدر عليه ، قام يكلمها ، ويعلمها أنه قد اشتراها ، قالت :

اتق الله ، فإنني امرأة حرة .

قال : دعي هذا عنك ، فقد مضى صاحبك ، فلا تقدرين عليه ، فلا تَزَوَّجِي بما لا تنتفعين به .

وأقبل أهل السفينة عليها ، وقالوا :

يا عدوة الله ، قد اشتراك الرجل ، ونحن نشهد .

قالت : ويحكم ! خافوا الله ، فإني والله امرأة حرة ، وما ملكني أحد قط .

قالوا : قم إليها حتى تفعل بها كذا وكذا ،

فإنك إذا فعلت ذلك سكنت.

فقام إليها، فلما خافت على نفسها دعت الله - عز وجل - عليهم، فإذا السفينة قد انقلبت بهم، فلم ينج منهم غيرها على ظهر السفينة؛ وكان للملك ذلك اليوم عيد على ساحل البحر من الجانب الآخر، وهو واقف وأهل مملكته؛ فلما رأى ذلك بعث من دخل عليهم في السفن، فلم يقدر على غيرها؛ فأخرجت إليه، فساءلها عن أمرها، ودعاها إلى التزويج، فأبت، وقالت:

إن لي قصة، وليس يجوز لي التزويج.

فصيرها في دار، فكان إذا ورد عليه الأمر، يهوله، أتاها، فشاورها؛ فتشير عليه، فيرى في مشورتها البركة، إلى أن حضر الملك، فجمع أهل مملكته، فقال:

كيف كنت لكم؟

قالوا: كالأب الرحيم، فجزاك الله خيراً!

فقال: كيف رأيتم أول أمري من آخره؟

قالوا: كنت في آخر أمرك أحزم.

قال: فإن جميع ما رأيتم من ذلك كان بمشورة هذه المرأة، وقد رأيت لكم رأياً؛ قالوا:

وما هو أيها الملك؟

قال: أملكها عليكم من بعدي.

قالوا: فرأيك.

فملكها عليهم. ومات الملك؛ وإنها أمرت بحشر الناس إليها، ليبايعوها، فحشر الناس، وجلست تنظر، فمر بها زوجها وأخوه فقالت:

اعزلوا هذين.

ثم مر بها المصلوب، الذي باعها، فقالت:

اعزلوا هذا.

ثم مر بها الراهب وغلامه، فقالت:

اعزلوا هذين.

ثم صرفت الناس، ودعت بهم، فقالت

لزوجها :

تعرفني؟

قال : لا والله ، إلا أني أعلم أنك الملكة .

قالت : أنا فلانة امرأتك ؛ وإن أخاك فعل بي وفعل ، وخبرته الخبر ، وإن الله ـ تعالى ـ يعلم أنه لم يصل إليّ رجل منذ فارقتك .

ثم دعت بأخيه ، فقتل .

ثم دعت بالراهب ، فأجازته ، وقالت :

ارفع إليّ ما كانت لك من حاجة ؛ وحدثته بقصة الغلام ، وما صنع بابنه ، ثم أمرت بالغلام ، فقتل .

ثم دعت بالمصلوب ، وأمرت به أن يقتل ويصلب ، ففعل ذلك به ، ومكثت في ملكها ما أراد الله أن تمكث ، ثم ماتت» .[1]

هذه قصة امرأة تعسة في أول حياتها مع

---

(١) الجليس الصالح : ١/ ٢٩٨ .

الرجال، أرت القصة مدى وفاء المرأة، وعفتها، وتعرضها في سبيل ذلك إلى الأذى، ولم تيأس من روح الله، وقد لجأت إليه عندما أعوزتها الحيلة، فأنقذها من ورطتها، ومهد لها طريقاً إلى السعادة بعد ذلك.

وقد تعاون ـ كما قلنا ـ الرمز والخرافة، أن يخدما الفضيلة، وأن يبرزا قبح الغدر، وانعدام العفّة، وأن يريا العقاب على ذلك.

والمرأة أداة العشق، ومحط الحب، ولعب العشق والحب دوراً كاملاً في حياة الناس، وفي ابن البادية؛ وجاء الأدب مليئاً بما قيل عن ذلك، وعن لوعة العشق، ومَنْ قتله الحب، ومن أمضه الغرام؛ والعشق ليس له سن أو وقت، تأتي طعنته من نظرة خاطفة، أو كلمة عابرة، ومجنون ليلى وقصة حبه، وحب كثير عزة تكرر ذكرها في كتب الأدب؛ وتذكر بعض

الفضائل للعشق، وهذا قول في هذا، ومعه قصة طريفة:

«أخبر اليمان بن عمر، مولى ذي الرياستين، قال:

كان ذو الرياستين يبعثني، وأحداثا من أحداث أهله، إلى شيخ بخراسان، له أدب وحسن معرفة بالأمور، ويقول لنا:

تعلموا منه الحكمة، فإنه حكيم.

فكنا نأتيه، فإذا انصرفنا من عنده سألنا ذو الرياستين، واعترض ما حفظناه، فنخبره فصرنا ذات يوم إلى الشيخ، فقال لنا:

أنتم أدباء، وقد سمعتم الحكمة، ولكم خيرات ونِعَم، فهل فيكم عاشق؟

فقلنا: لا.

فقال: اعشقوا، فإن العشق يطلق اللسان الغبيّ، ويفتح حيلة البليد والبَخيل، ويبعث

على التنظُّفِ، وتحسين اللباس، وتطييب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء، ويشرف الهمة، وإياكم والحرام.

فانصرفنا من عنده إلى ذي الرياستين، فسألنا عما أفدناه في يومنا ذلك، فهبناه أن نخبره، فعزم علينا، فقلنا له:

أمرنا بكذا وكذا، وقال لنا كذا وكذا.

قال: صدق والله، أتعلمون من أين أخذ هذا؟

قلنا: لا.

قال ذو الرياستين: إن بهرام جور كان له ابن، وكان قد رشحه للأمر من بعده، فنشأ الفتى ناقص المروءة، خامل النفس، سيء الأدب فغمّه ذلك، ووكل به من المؤدبين، والمنجمين، والحكماء من يلازمه، ويعلمه؛ وكان يسألهم عنه، فيحكون له ما يغمه، من سوء فهمه،

وقلة أدبه، إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوماً:

فقال له المؤدب: قد كنا نخاف سوء أدبه، فحدث من أمره ما صرنا إلى اليأس من فلاحه.

قال: وما ذاك الذي حدث؟

قال: رأى أمة فلان المرزبان، فعشقها، حتى غلبت عليه، فهو لا يهذي إلا بها، ولا يتشاغل إلا بذكرها.

فقال بهرام: الآن رجوت فلاحه.

ثم دعا بأبي الجارية، فقال:

إني مسر إليك سرّاً، فلا يعدُونَّك، فضمن له سره؛ فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته، وأنه يريد أن ينكحها إياه؛ وأمره أن يأمرها بإطماعه في نفسها، ومراسلته من غير أن يراها، أو تقع عينه عليها؛ فإذا استحكم طمعه فيها تجنت عليه، وهجرته؛ فإن استعتبها أعلمته أنها لا تصلح إلا لملك، ومن همته همة ملك؛ وأنه

يمنعها من مواصلته أنه لا يصلح للملك؛ ثم ليُعلمْهُ خبرها وخبره، لا يطلعها على ما أسر إليه.

فقبل أبوها ذلك منه، وفعلت المرأة ما أمرها به أبوها، فلما انتهت إلى التجني عليه، وعلم الفتى السبب الذي كرهته، أخذ في طلب الأدب والحكمة، والعلم، والفروسية، والرماية، وضرب الصوالجة، حتى مهر في ذلك.

ثم رفع إلى أبيه أنه يحتاج من الدواب والآلات والمطاعم والملابس والندماء إلى فوق ما يُقَدَّرُ له، فسر بذلك، وأمر له به.

ثم دعا مؤدبه، فقال له:

إن الموضع الذي وضع ابني نفسه من حب هذه المرأة لا يزري به؛ فتقدم إليه أن يرفع إلي أمرها، ويسألني أن أزوجه إياها؛ ففعل.

فرفع الفتى ذلك إلى أبيه، فدعا بأبيها،

فزوجه إياها، وأمر بتعجيلها إليه، وقال له:

إذا اجتمعت وهي فلا تُحدث شيئاً حتى أصير إليك.

فلما اجتمعا صار إليه، فقال:

يا بني، لا يضعن منها عندك مُرَاسلتُها إياك، وليست في حِبالِك، فإني أنا أمرتها بذلك؛ وهي أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة، والتخلق بأخلاق الملوك، حتى بلغت الحد الذي تصلح معه للملك من بعدي؛ فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك.

ففعل الفتى، وعاش مسروراً بالجارية، وعاش أبوه مسروراً به، وأحسن ثواب أبيها، ورفع مرتبته وشرفه، بصيانته سره وطاعته، وأحسن جائزة المؤدب بامتثاله ما أمره به، وعقد لابنه على المُلْك من بعده.

قال اليمان، مولى ذي الرياستين:

ثم قال لهم ذو الرياستين، سلو الشيخ الآن لِمَ حملكم على العشق؟

فسألناه، فحدثنا حديث بهرام جور وابنه». [1]

هذه امرأة أصلح الله بسببها ملك مستقبل؛ كانت الأداة التي هيأها الله لاصلاح حال ولي العهد، فلعبت دوراً متقناً فيه عشق وعفة، وإرخاء وجذب، ومنح ومنع، كل شيء من ذلك بمقدار، وحسب خطة متقنة.

هذا دور للمرأة، وهو من الأدوار التي سجلها لها التاريخ، ورجحت المرأة هنا في هذه القصة على الرجل، إذ استعملت ما فيها من ميزة لصالح أمتها، ومستقبلها.

وهناك قصة محورها المرأة، المرأة غاضبة، والمرأة شافعة، والمرأة راضية؛ دورها رئيس،

---

(١) الجليس الصالح: ٢/ ١٧.

يتلوى مع القصة في أدوراها المختلفة، حتى يأتي بالنتيجة المطلوبة.

وفي القصة صور، وهي مثل السابقة تدور حول الملك؛ وفيها مناظر من تمثيلية متكاملة، تنتقل من مرحلة إلى مرحلة، ومن موقف إلى موقف، ويتبين في كل موقع التصرف الإنساني بحيلته في موقف، وبخيره في موقف آخر، والقصة كمايلي:

«حدث عدي الطائي قال:

إن عبدالملك بن مروان كان من أشد الناس حُبّاً لامرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وأُمُّها أم كلثوم بنت عبدالله بن عامر بن كريز، قال:

فغضبت عليه ـ يعني على عبدالملك ـ وكان بينهما باب، فحجبته، وأغلقت ذلك الباب، فشق على عبدالملك، فشكا إلى خاصته.

فقال له عمر بن بلال الأسدي: ما لي عندك

إن رضيت؟

قال: حكمك.

قال: فأتى عمر بن بلال بابها باكياً، فخرجت إليه حاضنتها ومواليها وجواريها، فقلن:

مالك؟

فقال: فزعتُ إلى عاتكة، ورجوتها، فقد علمت مكاني من أمير المؤمنين معاوية، ومن يزيد بعده، فقلن:

مالك؟

قال: كان لي ابنان، لم يكن لي غيرهما، فَقَتَل أحدهما صاحبه.

فقال أمير المؤمنين: أنا قاتل الآخر.

قلت: أنا الولي، وقد عفوت.

فقال: لا أعود الناس هذه العادة.

ورجوت الله ـ تعالى ـ أن يحيا ابني هذا.

فدخلن عليها، فذكرن لها ذلك، فقالت:

فما أصنع مع غضبي عليه، وما أظهرت له؟

فقلن: إذاً والله يقتل ابنه.

فلم يزلن بها، حتى دعت بثيابها، فلبستها، ثم خرجت إليه من الباب، فأقبل خديج الخادم، فقال:

يا أمير المؤمنين، عاتكة قد أقبلت.

فقال: ويلك! ما تقول؟

فقال: قد ـ والله ـ أقبلت.

قال: فأقبلت، فسلّمت، فلم يرد.

فقالت: أما ـ والله ـ لولا عمر بن بلال ما جئت قط، فلابُدَّ أن تهب لي ابنه، فإنه الوليّ، وقد عفا.

قال: إني أكره أن أعود الناس هذه العادة.

فقالت: نشدتك الله، يا أمير المؤمنين، فقد عرفت مكانه من أمير المؤمنين معاوية،

ومن يزيد.

فلم تزل به حتى أخذت رجله، فقبلتها.

فقال: هو لك.

فلم يبرحا حتى اصطلحا.

قال: ثم راح عمر بن بلال إلى عبدالملك، فقال له:

رأينا ذلك الأمر، حاجتك؟

قال مزرعة بعبيدها، وما فيها، وألف دينار، وفرائض لولدي، وأهل بيتي، وإلحاق عمالي.

قال: ذلك لك». [1]

وهناك امرأة ناضجة استقْرت أمراً، وخرجت منه بقاعدة ثابتة، لا تختلف، وعند ما طبقتها جاءها منها نفع عظيم، وزرعت في قلب قادر دوحة من الخير، زاحمت الشر فطردته؛ هذه المرأة تأكد لها حسب قاعدةٍ، وجدتها ثابتة،

---

(١) الجليس الصالح: ٣٦/٢.

أن عدل الحاكم يجلب الخصب، والظلم يجلب الجدب، والجور يأتي بالقحط، والقصة هكذا، وقد تكون رمزية لم تحدث، ولكن لها صدى في النفوس الخيِّرة:

«قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه:

خرج كسرى في بعض أيامه للصيد، ومعه أصحابه، فعن له صيد، فتبعه، حتى انقطع عن أصحابه، وأظلته سحابة، فأمطرت مطراً حال بين أصحابه وبين اللحوق به، فمضى، لا يدري أين يقصد؛ فرفع له كوخ فقصده، فإذا عجوز بباب الكوخ، وأدخل فرسه، وأقبل الليل، فإذا ابنة العجوز قد جاءت معها بقرة قد رَعَتْها بالنهار، فأدخلتها الكوخ، وكسرى ينظر؛ فقامت العجوز إلى البقرة، ومعها آنية، فاحتلبت البقرة لبناً صالحاً،

وكسرى ينظر، قال فقال في نفسه:

ينبغي أن يجعل على كل بقرة إتاوة، فهذا حلاب كثير، وأقام بمكانه، فلما مضى أكثر الليل، قالت العجوز:

يا فلانة، قومي إلى فلانة، فاحتلبيها.

فقامت إلى البقرة، فوجدتها حائلًا، لا لبن فيها، فنادت أمها:

يا أمتاه، قد والله أضمر لنا الملك شراً.

قالت: وما ذاك؟

قالت: هذه فلانة حائل، ما تُبِسُّ بقطرة.

قال: فقالت لها أمها: امكثي عليها قليلًا.

قالت: فقال كسرى في نفسه: من أين علمت ما أضمرت في نفسي؟ أما إني لا أفعل ذلك.

قال: فمكثت، ثم نادتها:

يا بنية، قومي إلى فلانة.

قال: فقامت إليها، فوجدتها حافلًا،

فنادت أمها :

يا أمتاه، قد ذهب والله ما كان في نفس الملك من الشر، هذه فلانة حافل، فاحتلبتها.

وأقبل الصبح، وتتبع الرجال أثر كسرى حتى أتوه، فركب وأمر بحمل العجوز وابنتها إليه، فحملتا، فأحسن إليهما، وقال:

كيف علمت أن الملك قد أضمر شراً، وأن الشر الذي أضمره قد عدل عنه؟

قالت العجوز: أنا بهذا المكان من كذا وكذا ما عُمِل فينا بعدل إلا خُصب بلدنا، واتسع عيشنا؛ وما عُمِل فينا بجور إلا ضاق عيشنا، وانقطعت مواد النفع عنا». [١]

والمرأة لها مملكة، ولا ترضى أن يسلبها أحد مملكتها، أو يشاركها فيها، مادامت تقدر على ذلك، وهي لا تسلم بالأمر بسهولة إذا

(١) الجليس الصالح: ١/ ٤٣٦.

أمكنها الدفاع عنها، وحمايتها من المعتدي، أو المتسلل وتنقلب المرأة إذا أحست بالخطر إلى نمرة شرسة، هجمتها مميتة، وقاتلة، وهي بقظة حذرة، تتنبه للإشارة المؤدية إلى خطف حقها، تلحظها من بعيد، وتحسها منذ أن تنشأ الإشارة، ولهذا، فهي تبادر إلى التصرف بسرعة فائقة.

والمرأة في هذا السبيل لا تتساهل، فهي تكره الحديث في الزواج من امرأة ثانية حتى لو كان ذلك على طريق المزاح؛ ولهذا يحذر العاقل من الأزواج، الذي يبحث عن السلامة والعافية، الاقتراب من هذا الأمر، وإذا تكلم أحد بهذا، وهو جالس، حاول أن لا يبدو موافقاً، أو متمتعاً بالاستماع لهذا الحديث، ومع هذا فقد لا يسلم، فقد تؤول زوجته ما لا يتحمل التأويل، وتتهمه بالارتياح للحديث،

أو أنه لم يهاجم المتكلم، وإن كان قد هاجمه في رأيه، فالهجوم لم يكن بالحرارة التي تدل على أن هجومه نابع من القلب، وباعتقاد.

والقصة الآتية، إن صحت، تبين التفاتة من امرأة رأت أن حمى مملكتها مهدد، وأنه على وشك أن يهاجم، فانقضت على المعتدي انقضاض الصقر، وهجمت هجوم الأسد، مما جعل عدوها يستخذي، ويُسلِّم، وينضوي تحت لوائها بذلة وانكسار، وهذه هي القصة، مصورة للمرأة في دور من أدوارها في المجتمع:

«دخل خالد بن صفوان التميمي على أبي العباس، وليس عنده أحد، فقال:

يا أمير المؤمنين، إني والله، منذ قلدك الله ـ تعالى ـ خلافة المسلمين، إلا وأنا أحب أن أصير إلى مثل هذا الموقف في الخلوة؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإمساك الباب حتى

أفرغ، فعل.

قال: فأمر الحاجب بذلك.

فقال: يا أمير المؤمنين، إني فكرت في أمرك، وأَجَلْتُ الفكر فيك، فلم أر أحداً له مثل قدرك، ولا أقل استمتاعاً في الاستمتاع بالنساء منك، ولا أضيق فيهن عيشاً؛ إنك ملكت نفسك امرأة من نساء العالمين، واقتصرت عليها؛ فإن مَرِضَتْ مَرِضْتَ، وإن غابت غبت، وإن عركت (حاضنته) عركت، وحرمت نفسك، يا أمير المؤمنين، التلذذ باستطراف الجواري، وبمعرفة اختلاف أحوالهن، والتلذذ بما يشتهى منهن؟

إن منهن، يا أمير المؤمنين، الطويلة، التي تُشتهى لجسمها، والبيضاء التي تُحب لروعتها، والسمراء اللعساء، والصفراء العجزاء، ومولدات المدينة، والطائف، واليمامة، ذوات

الألسن العذبة، والجواب الحاضر؛ وبنات سائر الملوك، وما يُشتهى من نظافتهن، وحسن هندامهن.

وتخلل بلسانه، فأطنب في صفات ضروب الجواري، وشوقه إليهن.

فلما فرغ خالد قال:

ويحك! ما سلك مسامعي، والله، كلام قط أحسنَ من هذا؛ فأعد علي كلامك، فقد وقع مني موقعاً؛ فأعاد عليه خالد كلامه بأحسن مما ابتدأه، ثم قال:

انصرف.

وبقي أبو العباس مفكراً فيما سمع من خالد، يقسم أمره، فبينما هو يفكر، إذ دخلت عليه أم سلمة، وقد كان العباس حلف أن لا يتخذ عليها، ووفى لها؛ فلما رأته مفكراً متغيراً، قالت له:

إني لأنكرك، يا أمير المؤمنين، فهل حدث أمر تكرهه، أو أتاك خبر ارتعت له؟

فقال: لا، والحمد لله.

ثم لم تزل تستخبره، حتى أخبرها بمقالة خالد، قالت:

فما قلت لابن الفاعلة؟

فقال لها: ينصحني وتشتمينه!

فخرجت إلى مواليها من البخارية، فأمرتهم بضرب خالد.

قال خالد: فخرجت إلى الدار مسروراً بما ألقيت إلى أمير المؤمنين، ولم أشك في الصلة؛ فبينما أنا مع الصحابة واقفاً، إذْ أقبلت البخارية تسأل عني، فحقّقت الجائزة والصلة، فقلت لهم:

ها أنذا.

فاستبق إليّ أحدهم بخشبة، فلما أهوى إليّ

غمزت برذوني، ولحقني، فضرب كفله؛ وتنادى إليّ الباقون، وغَمَزْت البرذون، فأسرع، ثم راكضتهم، ففتُّهم؛ واختفيت في منزلي أياماً، ووقع في قلبي أنني أُتيت من قِبَل أم سلمة؛ فطلبني أبو العباس، فلم يجدني، فلم أشعر إلا بقوم قد هجموا عليّ، فقالوا:

أجب أمير المؤمنين، فسبق إلى قلبي أنه الموت، فقلت:

إنا لله وإنا إليه راجعون، لم أر دم شيخ أضيع.

فركبت إلى دار أمير المؤمنين، ثم لم ألبث أن أذن لي، فأصبته خاليا، فرجع إليّ عقلي؛ ونظرت في المجلس ببيت عليه ستور رقاق، فقال:

يا خالد، لم أرك!

قلت: كنت عليلًا.

قال: ويحك! إنك وصفت لأمير المؤمنين

في آخر دخلةٍ دخلتها عليّ من أمور النساء والجواري صفة لم يخرق مسامعي قط كلام أحسن منه، فأعده علي.

قال: وسمعت حِسّاً خلف الستر.

فقال: نعم، يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب إنما اشتقت اسم الضرتين من الضر، وأن أحداً لم يكن عنده من النساء أكثر من واحدة إلا كان في ضر وتنغيص.

قال له أبو العباس: لم يكن هذا في الحديث.

قال: بلى، والله، يا أمير المؤمنين.

قال: فأنسيت إذاً، فأتمم الحديث.

قال: وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافي القدر، يغلي عليهن.

قال: برئت من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا منك، ولا مَرَّ في حديثك.

قال: وأخبرتك أن الأربع من النساء شر

مجموع لصاحبهن، يُشَيِّبْنَهُ، ويهرمنه، ويحقرنه، ويقسمنه.

قال: لا والله ما سمعت هذا منك، ولا من غيرك.

قلت: بلى، والله.

قال: أفتكذبني؟

قلت: أفتقتلني! نعم، والله، يا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن أبكار الإماء رجال، إلا أنهن ليست لهن خُصى.

قال خالد: فسمعت ضحكاً من خلف الستر.

ثم قلت: نعم، وأخبرتك أن عندك ريحانة قريش، وأنك تطمح بعينك إلى النساء والجواري.

قال: فقيل لي من وراء الستر: صدقت، والله، يا عماه، بهذا حدثته، ولكنه غير حديثك، ونطق عن لسانك.

فقال أبو العباس: مالك، قاتلك الله! وفعل بك وفعل؟

قال: وانسللت.

قال: فبعثت إليّ أم سلمة بعشرة آلاف درهم، وبرذون، وتخت». [1]

وهكذا عرفت هذه السيدة كيف تحمي حماها، وتسترد أرضها، وترغم عدوها على التسليم الكامل، ورمت له في نهاية الأمر بعظم، يعوضه عما فاته؛ ونجحت امرأة وأخفق رجل!

وقد ذكرنا الحب العذري، وهو حب عفيف، أصاب شباباً في البادية، سار بذكر عشقهم الركبان، لما كان عليه من صفة، وما لقيه العاشق من إبعاده عن حبيبته، لأن العادة اقتضت أن من شبب بمحبوبته، وظهر ذلك للناس، أن يركب والدها رأسه، فيزوجها لغيره ويبقى

(١) الجليس الصالح: ٢/ ٤٥٩.

ابن عمها، أو قريبها، أو من وقع في حبها في حالة من الضياع، يرثي لحاله فيها القريب والبعيد؛ والمرأة في هذا هي المحور، يدور حوله الحبيب؛ ومما سجل في هذا الجانب محاولة الحبيب رؤية حبيبته، والحديث معها، ويرتب مقابلات معها، بعيداً عن الرقيب، ويحتال لهذا بشتى الحيل.

وقد توسع الأدباء في هذا المجال، ودونوا ما دونوا منه، وزادوا ما زادوا، واختلط الأصل مع المفتعل، وما حدث حقاً بما نُحِت، جزءاً أو كلًا، وتبقى المرأة العامل الواضح في الأمر، وهذه قصة طريفة، اختلط فيها ما قد يكون صحيحاً بما لعب الخيال فيه بحرية، فجاء فيها الأمر معقولًا في بعض جوانبه، وغير معقول في جوانب أخرى، ولكن المهم في هذا هو أهمية المرأة، سواء كان ذلك في الحقيقة أو في المُتخيّل:

«قال نمير بن قحيف الهلالي:

كان في بني هلال فتى يقال له بشر ، ويعرف بالأشتر ، وكان سيداً ، حسن الوجه ، شديد القلب ، سخي النفس ؛ وكان معجباً بجارية من قومه ، تسمى جيداء ، وكانت الجارية بارعة الجمال ، فاشتهر أمره وأمرها ، ووقع الشر بينه وبين أهلها ، حتى قتلت بينهم القتلى ، وكثرت الجراحات ؛ ثم افترقوا ، واصطلحوا على أن لا ينزل أحد منهم بقرب الآخر .

قال نمير بن قحيف : فلما طال على الأشتر البلاء ، والهجر ، جاءني في ذات يوم ، فقال :

يا نمير ، هل فيك من خير؟

قلت : عندي كل ما أحببت .

قال : أسعدني على زيارة جيداء ، فقد ذهب الشوق إليها بروحي ، وتنغصت علي حياتي .

قلت : بالحب والكرامة ؛ فانهض إذا شئت .

فركب ، وركبت معه ، فسرنا يومنا وليلتنا

والغد، حتى إذا كان قريباً من مغرب الشمس نظرنا إلى منازلهم، ودخلنا شعبا خفيا، فأنخنا راحلتينا وَجِلَين، فجلس عند الراحلتين، وقال:

يا نمير، اذهب، بأبي أنت وأمي، فادخل الحي، واذكر لمن لقيك أنك طالب ضالة، ولا تعرضن بذكري بين شفة ولسان، فإن لقيت جاريتها فلانة الراعية، فأقرها مني السلام، وسلها عن الخبر، وأعلمها بمكاني.

فخرجت لا أعذر في أمري، حتى لقيت الجارية، فأبلغتها الرسالة، وأعلمتها بمكانه، وسألتها عن الخبر.

فقالت: هي والله مشدد عليها، متحفظ منها، وعلى ذلك فموعدكما الليلة عند تلك الشجرات اللواتي عند أعقاب البيوت.

فانصرفت إلى صاحبي، فأخبرته الخبر، ثم نهضنا نقود راحلتنا، حتى جئنا الموعد؛ فلم

نلبث إلا قليلًا، إذا جيداء، قد جاءت تمشي، حتى دنت منا؛ فوثب إليها الأشتر، فصافحها، وسلم عليها، وقمت موليا عنهما، فقالا:

إنا نقسم عليك إلا ما رجعت، فوالله، ما بيننا ريبة، ولا قبيح نخلو به دونك؛ فانصرفت راجعاً إليهما، حتى جلست معهما، فتحدثا ساعة، ثم أرادت الانصراف، فقال لها الأشتر:

أما فيك حيلة، يا جيداء، فنتحدث ليلتنا، ويشكو بعضنا إلى بعض؟

قالت: والله ما إلى ذلك سبيل، إلا أن نعود إلى الشر الذي تعلم.

قال لها الأشتر: لابد من ذلك، ولو وقعت السماء على الأرض.

قالت: هل في صديقك هذا من خير، أو معه مساعدة لنا؟

قال: الخير كله.

قالت: يا فتى، هل فيك من خير؟

قلت: سلي ما بدا لك، فإني منته إلى رأيك، ولو كان في ذلك ذهاب روحي.

فقامت، فنزعت ثيابها، فجعلتها علي فلبستها، ثم قالت:

انزع ثيابك.

فخلعتها، فلبستها، ثم قالت:

اذهب إلى بيتي، فادخل إلى خبائي، فإن زوجي سيأتيك بعد ساعة أو ساعتين، فيطلب منك القدح، ليحلب فيه الإبل، فلا تعطه إياه، حتى يطيل طلبه، ثم ارمه به رميا، ولا تعطه إياه من يدك، فإني كذلك كنت أفعل به، فيذهب فيحلب ثم يأتيك عند فراغه من الحلب، والقدح ملآن لبنا فيقول:

هاك غبوقك.

فلا تأخذ منه حتى يطيل، نكداً عليه، ثم

خذه، أو دعه حتى يضعه، ثم لست تراه حتى يصبح، إن شاء الله.

قال: فذهبت، ففعلت ما أمرتني به، حتى إذا جاء بالقدح الذي فيه اللبن أمرني أن آخذه، فلم آخذه، حتى طال نكدي عليه، ثم أهويت لآخذه، وأهوى ليضعه، واختلفت يدي ويده، فانكفأ القدح، واندفق ما فيه.

فقال: إن هذا طماح مفرط.

وضرب بيده إلى مقدم البيت، واستخرج منه سوطاً مفتولاً، كمتن الثعبان المطوق، ثم دخل علي، فهتك الستر عني، وقبض بشعري، ثم اتبع ذلك السوط متني، فضربني تمام ثلاثين.

ثم جاءت أمه وإخوته وأخت له، فانتزعوني من يده، ولا والله ما أقلع حتى زايلني روحي، وهممت أن أوجره السكين، وإن كان فيه الموت.

فلما خرجوا عني، وهو معهم، شددت

ستري، وقعدت كما كنت؛ فلم ألبث إلا قليلًا حتى إذا أُمُّ جيداء قد دخلت علي تكلمني، فكلمتني، وهي تحسبني ابنتها، فاتقيها بالسكات والبكاء؛ وتغطيت بثوبي دونها، فقالت:

يا بنية، اتقي الله ربَّك، ولا تعرضي لمكروه زوجك، فذاك أولى بك؛ فأما الأشتر فلا أشتر لك آخر الدهر؛ ثم خرجت من عندي، وقالت:

سأرسل إليك أختك تؤنسك، وتبيت عندك الليلة، فلبثت غير ما كثير؛ فإذا الجارية قد جاءت، فجعلت تبكي، وتدعو على من ضربني، وجعلت لا أكلمها؛ ثم اضطجعت إلى جانبي، فلما استمكنت منها شددت بيدي على فمها، وقلت:

يا هذه، تلك أختك مع الأشتر، وقد قُطِعَ ظهري الليلةَ في سببها، وأنت أولى بالستر عليها، فاختاري لنفسك ولها، فوالله لئن تكلمت

بكلمة لأصيحن بجهدي، حتى تكون الفضيحة شاملة ثم رفعتُ يدي عنها، فاهتزت الجارية، كما تهتز القصبة من الزرع، ثم بات معي منها أملح رفيق رافقته، وأعفه، وأحسنه حديثاً، فلم تزل تتحدث، وتضحك مني، ومما بليت به من الضرب حتى برق النور، وإذا جيداء قد دخلت علينا من آخر البيت، فلما رأتنا ارتاعت، وفزعت، وقالت:

ويلك! من هذا عندك؟

قلت: اختك.

قالت: وما السبب؟

قلت: هي تخبرك، ولعمر الله إنها لعالمة بما نزل بي، وأخذت ثيابي منها، ومضيت إلى صاحبي، فركبنا، ونحن خائفان.

فلما اطمأننا حدثته بما أصابني، وكشفت عن ظهري، فإذا فيه ما غرس الله من ضربة إلى

جانب أخرى، كل ضربة تخرج الدم وحدها.

فلما رأى ذلك، قال:

لقد عَظُمَتْ صنيعتك، ووجب شكرك، إذ خاطرت بنفسك، فبلغني الله مكافأتك». [1]

بجانب دور المرأة، وما جرى لها، وما جرى لغيرها بسببها، هذه القصة ملأى بالصور لمجتمع البادية: تدلل المرأة وعصيانها، ومعاقبة الزوج لها بالضرب الأليم؛ شدة الظلام، وانعدام النور، الذي سمح لرجل أن يختفي بثياب امرأة فلا يكتشف؛ وجود قرون له مثلما للمرأة قرون من الشعر؛ الوفاء للصديق، والمخاطرة من أجله؛ العفة المتناهية بين الأشتر وجيداء، وبين نمر وأخت جيداء.

ويلاحظ أن القصة هذه في بني هلال، وسيكون لبني هلال فيما بعد، بعد قرون،

(١) الجليس الصالح: ٣/ ٤٠.

قصة وقصة، شرقت وغربت؛ وفيها حديث عن رحلتهم، لعب الخيال فيها لعباً أدخل فيها من العادات والتقاليد العربية ما شاء لمؤلفها أن يدخله.

وعند الفصاحة تذكر بعض النساء بتفوقهن في ذلك، ولا عجب في هذا، فقد رضعن الفصاحة، وأخذن منها مثل ما أخذ الرجال، وهذه امرأة قالت قولًا أعجب رجلًا، وأقر للمرأة بالغلب:

«حدث رجل من الأعراب، وفد على ابن البعيث، قال: حدثني عم لي قال:

نزلت ماءًا لبني فزارة، ثم ارتحلت عنه، وأتيته في العام المقبل، فإذا ليس من الحي أحد، خلا عجوز في سفح جبل تبكي، فقلت:

ما يبكيك يا عجوز؟

قالت: على أثر الحي.

قلت لها: أعسى حُيَيًّا نزلتُ به عام أول؟!

قالت: أقلت حُيَيّاً؟! والله لقد كان حيَّ رَبَحْل، (قَيْلٌ كريم بنيه)، إذا ارتحلوا على ألف فحل؛ لقد كان فيهم مُلَيْلٌ، وما مُلَيْلٌ؟ سحاب ذيل على ذيل، عطاؤه سيل، وغضَبه ويل، لم تحمل مثله إبل ولا خيل؛ ولقد كان فيهم مالك، وما مالك؟ خير من هنالك؛ ولقد كان فيهم مهجعة، وما مهجعة؟ فارس كأربعة، يكر والخيل معه؛ ولقد كان فيهم عمار، وما عمار؟ يوم الفخر فخار، ويوم الجر جرار، لم تخمد له نار، طلاب بأوتار؛ ولقد كان فيهم هجين لهم يقال له حممة، وما حممة؟ له ألف ناقة مسنّمْه، وألف مهرة مسومهْ، وألف نعجة مزنمة، وألف عبد وأمهْ، قعد ذات يوم قعدة له حسنهْ، فأنهبها كلها في ساعة لم يقض نهمهْ.

قال: فكأنما ألقمتني عنها، وعن قومها،

حجراً». [1]

وللإيمان الكامل، والاحتساب الصافي طريق إلى قلب المرأة كما له طريق إلى قلب الرجل؛ والقصة الآتية تبين صفاء الإيمان في قلب امرأة، تعرض قلبها لحرقة، وأي حرقة، ومع هذا كانت مثال النبل في نظرتها إلى الأمر، وكشفت عن نفس صافية صفاء الماء السلسبيل؛ جاءتها هزّة، فلم تحرك منها ساكناً، لما ملأ نفسها من ثقة بربها، وصبر على قضائه، وتسليم لأمره؛ احتساباً، وإيماناً، ورجاءاً للثواب والرضى، والقصة هكذا:

«قال الأصمعي: خرجت، أنا وصديق لي، إلى البادية، فضللنا الطريق، فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق، فقصدنا نحوها، فسلمنا، فإذا امرأة ترد علينا السلام، ثم قالت:

---

(١) الجليس الصالح: ٣/ ١١٩.

ما أنتم؟

فقلنا: قوم ضالون، رأيناكم، فأنسنا بكم.

فقالت: يا هؤلاء، ولوا وجوهكم عني، حتى أقضي حقكم ما أنتم أهل له.

ففعلنا، فألقت لنا مِسحا، فقالت:

اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني.

ثم جعلت ترفع طرف الخيمة، وتردها، إلى أن رفعتها، فقالت:

أسأل الله بركة المقبل؛ أما البعير فبعير ابني، وأما الراكب فليس بابني.

فوقف الراكب عليها، فقال:

يا أم عقيل، عظم الله أجرك في عقيل.

قالت: ويحك! مات ابني؟

قال: نعم.

قالت: وما سبب موته؟

قال: ازدحمت عليه الإبل، فرمت به في البئر.

فقالت: انزل، فاقض ذمام القوم.

ودفعت إليه كبشاً، فذبحه، وأصلحه، وقرّب إلينا الطعام؛ فجعلنا نأكل، ونتعجب من صبرها.

فلما فرغنا خرجت إلينا، وقد تكورت، فقالت:

يا هؤلاء، هل فيكم أحد يحسن من كتاب الله ـ تعالى ـ شيئاً؟

قلت: نعم، أنا.

قالت: اقرأ عليّ آيات من كتاب الله ـ عز وجل ـ أتعزى بها.

قلت: يقول الله تعالى، وجل جلاله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥-١٥٧.

قالت: آلله، إنها لفي كتاب الله ـ عز وجل ـ هكذا؟

قلت: آلله، إنها لفي كتاب الله ـ تعالى ـ هكذا.

قالت: السلام عليكم.

ثم صفّت قدميها، وصلت ركعتين، ثم قالت:

إنا لله وإنا إليه راجعون، وعند الله تعالى أحتسب عقيلًا.

تقول ذلك ثلاثاً.

اللهم إني فعلت ما أمرتني، فأنجز لي ما وعدتني». [1]

لم يذهلها موت ابنها المفاجئ عن ضيوفها، وواجبهم عليها، ولم ينسها هذا الخبر المفاجئ المفزع عادة أهلها وقومها؛ فلما قضت واجبهم،

(١) الجليس الصالح: ٣/ ١٢٩.

اتجهت إلى ربها، وهي تعلم أن عزاءها الحق هو في الله، فاتجهت إلى كتابه، تبحث عن تهدئة نفسها فيه، فوجدت ما أرادت، بل إن ما وجدت أذهلها في دقة معالجته لظرفها، حتى أنها استحلفت القارئ أن يؤكد لها أن هذا في كتاب الله؛ ولم تكتف بطاعة أمر الله في كتابه، بل وضعت طاعتها في أصدق صورة، وهي الصلاة؛ وبعد أن شعرت أنها قامت بما عليها لله، رجت من الله أن يعطيها ما وعدها به منجزاً.

إنها مفخرة بين النساء!

والعشق لعب في حياة العرب دوراً كبيراً، خاصة في صحرائهم، وله صور مختلفة في بدئها، وفي جريانها، وفي نهايتها، وهذه قصة من هذه القصص، لها بدء، ولحوادثها مجرى، ولها نهاية، والقصة كمايلي:

«قال عبيدة السلماني:

كان في الجاهلية أخوان من حي يدعون بني كنّة، أحدهما متزوج، والآخر عزب؛ فقضي أن المتزوج خرج في بعض ما يخرج الناس فيه، وبقي الآخر مع امرأة أخيه؛ فخرجت ذات يوم حاسرة، فإذا أحسن الناس وجها، وأحسن الناس ثغراً، فلما علمت أن قد رآها وَلْوَلَتْ، وصاحت، وقالت بمعصمها، فغطت وجهها، فزاده ذلك فتنة، فحمل الشوق على بدنه حتى لم يبق إلا رأسه وعيناه تدوران في رأسه.

وقدم الأخ، فقال:

يا أخي، ما الذي أرى بك؟

فاعتلّ عليه، فقال:

الشوصة (ذات الجنب).

فقال له ابن عم له: لا تكذبنه، ابعث إلى الحارث بن كلدة، فإنه من أطبّ العرب.

فجيء به، فلمس عروقه، فإذا ساكنها ساكن، وضاربها ضارب.

فقال: ما بأخيك إلا العشق.

فقال: سبحان الله، تقول هذا الرجل ميت!

قال: هو ذاك، عندكم شيء من شراب؟

فجيء به، ودعا بمسعط، فصب فيه، وحل صرة من صراره، فذر فيه، ثم سقاه، ثم سقاه الثانية، ثم سقاه الثالثة، فانتشى يغنّي سكراً، فقال:

أَيُّهَا القَلْبُ الحَزِيْنُ مَا يَكُونَنَّهْ | تَهَيَّجَ مَا تَهَيَّجْ وَادَّكِرْ
تِ مِنْ خَيْفٍ أَزُرْهُنَّهْ | أَلِمَّا بِيْ عَلَى الأَبْيَا
ـوْمَ فِيْ دُوْرِ بَنِي كِنَّهْ | غَزَالاً مَا رَأَيْتُ الْيَـ
وَفِـيْ مَنْطِقِـهِ غُنَّـهْ | غَـزَالٌ أَحْوَرُ العَيْـنِ

فقال الرجل: هذه دور بني كنة، فليت شعري من؟

فقال الحارث: ليس فيه مستمتع غير هذا،

اليوم؛ ولكن أغدو عليكم من الغد.

ففعل كفعله بالأمس، فانتشى يغنّي سكراً، واسم امرأة أخيه ريا، فقال:

أَيُّهَا الجِيْرَةُ اسلَمُوا كَيْ تُحَيَّوا وَتُكْرَمُوا
خَرَجَتْ مُزْنَةٌ مِنَ البَحْـ ـرِ رَيَّا تُحَمْحِمُ
هِيَ مَا كَنَّتِيْ وَتَزْ عُمُ أَنِّي لَهَا حَمُوا

فقال الرجل لمن حضره: أشهدكم أنها طالق ثلاثاً، ليرجع إلى أخي فؤاده؛ فإن المرأة توجد، والأخ لا يوجد.

فجاءا الناس يسعون، ويقولون:

هنيئاً لك يا أبا فلان، فإن فلاناً قد نزل لك عن فلانة.

فقال لمن حضر: أشهدكم أنها عليّ مثل أمي إن تزوجتها.

قال عبيدة السلماني: ما أدري أي الرجلين

أكرم: الأول أم الآخر». [1]

هذه من القصص التي تتمرجح بين الحقيقة والخيال، ولكن سواء حدثت هذه القصة، أو اخترعت، أو أنّ جزءاً منها قد حدث وجزءاً ملفق، فهي تمثل ما يحدث في مثل هذا الظرف من الجاهلية.

ونعود إلى إيمان المرأة، ومساهمتها في قوة المجتمع، وحضورها الدائم عندما يكون المجتمع في حاجة إلى التكاتف والتعاضد، خاصة عندما يلم به أمر حادث، أو تنزل به كارثة من الكوارث؛ والقصة الآتية مثال رائع لمشاركة المرأة في أمر الجهاد؛ ومشاركتها هذه هزت مجتمعها، وحركت من جوانبه بعض ما سكن، وهذه هي القصة:

«حدث العتبي عن أبيه، قال:

(١) الجليس الصالح: ٣/ ٢٦١.

سبا الروم نساءاً مسلماتٍ، فبلغ الخبر الرقة، وبها الرشيد، ومنصور بن عمار هناك، فقص منصور يحض على الغزو؛ فإذا خرقة مصرورة مختومة قد طرحت إلى المنصور، وإذا كتاب مضموم إلى الصرة، فقرأه، فإذا فيه:

إني امرأة من بيوتات العرب، بلغني ما فعل الروم بالمسلمات، وبلغني تحضيضك على الغزو، فعمدت إلى أكرم شيء في بدني عليّ، وهما ذؤابتاي، فجززتهما، وصررتهما في هذه الصرة المختومة، فأنشدك بالله العظيم لما جعلتها قيد فرسِ غازٍ في سبيل الله، فعلّ الله ينظر إليّ نظرة على تلك الحال، فيرحمني.

فبلغ ذلك الرشيد، فبكى، ونادى: النّفير». [1]

هذه المرأة دفعها إيمانها القوي، وغيرتها المتقدة، وسخطها الجارف، وحماسها الشديد،

---

(١) الجليس الصالح: ٤/ ٢٥.

وهي لا تملك شيئاً تساهم به في الجهاد، لفك أسر أخواتها المسلمات، دفعها إلى أن تعطي أعز ما تملك، وهو عماد جمالها، ومسقط فخرها الأنثوي: شعرها، فتجزه، ليكون قيداً لفرس؛ لقد سجلت لبنات جنسها صفحة بيضاء ناصعة؛ وفعلها الطفيف المتواضع الهادئ غلب زمجرة القاص الواعظ منصور بن عمار، ودفعت الخليفة إلى أن يدعو: النفير، فتتحرك الجيوش للغاية التي أرادتها، وطوبى لها إن شاء الله.

والمرأة تتعرض لغضب زوجها إن كانت حرة، ولغضب سيدها إن كانت أمة، فكان لهن عقاب، يتغير بتغير الزمن، وباختلاف الأزواج، وباختلاف الأسياد؛ ويتنوع عادة العقاب؛ وهنا عقاب طريف، لأَمَةٍ غضب عليها سيدها، وأراد عقابها عقاباً غير بدني، ولكنه مؤلم، جعلها تتوب مما جاء منها من ذنب، والقصة هكذا:

«قال الأصمعي: دخلت على جعفر بن يحيى بن خالد يوماً من الأيام، فقال لي:

يا أصمعي، هل لك من زوجة؟

قلت: لا.

قال: فجارية؟

قلت: جارية للمهنة.

قال: فهل لك أن أهب لك جارية نظيفة؟

قلت: إني لمحتاج إلى ذلك.

فأمر بإخراج جارية إلى مجلسه، فخرجت جارية في غاية الحسن، والجمال، والهيئة، والظرف، فقال لها:

قد وهبتُك لهذا.

وقال لي: يا أصمعي، خذها.

فشكرته، وبكت الجارية، وقالت:

يا سيدي تدفعني إلى هذا الشيخ، مع ما أرى من سماجته، وقبح منظره؟

وجزعت جزعاً شديداً، فقال:

يا أصمعي: هل لك أن أعوضك منها ألف دينار؟

قلت: ما أكره ذلك.

فأمر لي بألف دينار؛ ودخلت الجارية، فقال لي:

يا أصمعي، إني أنكرت على هذه الجارية أمراً، فأردت عقوبتها بك؛ ثم رحمتها منك، فقلت:

أيها الأمير، فألا أعلمتني قبل ذلك؟ فإني لم آتك حتى سرحت لحيتي، وأصلحت عمتي، ولو عرفت الخبر لحضرت على هيئة خلقتي، فوالله لو رأتني كذلك ما عاودت شيئاً تكره منها أبداً ما بقيت». (١)

والقصص التي تروى على لسان الأصمعي،

---

(١) الجليس الصالح: ٤/ ١١٨.

لاشك، أنها تمثل عصره، وفيها دائماً غرابة، ولكن لا يستبعد أن يكون بعضها وضع على لسان الأصمعي، ليروج، وبعضها ابتدعه الأصمعي، ليعجب، خاصة عندما يكون في الأمر تبكيت على نفسه مثل هذه القصة، فهو مثل الجاحظ يضع بعض القصص المضحكة عن نفسه.

والمرأة ينفرها القبح مثلما ينفر الرجل، وتبحث في الرجل عن الحسن في وجهه، وفي جسمه، وفي صوته، وفي معاملته، مثلما يبحث هو عن هذه الأشياء فيها، ولا تلام إذا جفلت من قبح منظر رجل أريد منها أن تقترن به، وقد أبيح في الشرع للمرأة النظر إلى من خطبها، وأبيح له أن ينظر إليها؛ والهدف أن يؤدم بينهما، وتبنى علاقتهما على أساس من القبول والرضى، حتى لا يبنى بناء ينهدم قبل تمام

بنائه، أو الاستفادة منه؛ وقد يعوض حسن في جانب عن قبح في جانب، وتغطي جاذبية جانب عن تنفير جانب، ويُنَسِّي جمالُ جانبٍ قبح جانب، فلا يلتفت لهذا عند وجود هذا، ويحل الإقبال محل الجفول، والقبول محل الرفض، ولبيان ذلك نأتي بالقصة الآتية:

«حدثني الحسن بن محمد بن إسحاق، أحد إخواننا، عن بحشل القارئ، وكان مشهوراً بحسن الصوت، ينتابه الناس لاستماع قراءته، وعذوبة تلاوته.

قال: كان بحشَل مشنوء الخلقة، شتيم الوجه، جهم الصورة؛ وكان يريد النكاح، فإذا خطب النساء رُدّ، ولم يُرَدْ لبشاعة منظره؛ وإذا شرع في ابتياع الإماء أَبَيْنَهُ، ونَبَوْن عنه، والْتوين عليه، ورغبن عن مخالطته؛ فشكا إلى صديق له، يأنس به، ما يلقى من مضض

التعزب، وتعذر المباعلة؛ ويقاسي من شدة الشبق، وفقد المباضعة، ونفور النساء عنه، لسماجة الخلقة، فقال له:

أنا أسعى لك في هذا بما يؤدي إلى محبتك.

ومضى إلى سوق الرقيق، فابتاع جارية حلوة مقبولة، وصار بها في آخر النهار إلى منزل بحشل؛ فلما استقر في منزله أحضر الطعام، واجتمعا على العشاء، ثم وثب الرجل، فودع بحشلا، وخلف الجارية عنده، فتعلقت بثوبه، وقالت:

ومن مولاي؟

فقال: هذا.

فصرخت، وقالت: ظننت أنك مولاي، وأما هذا فلو أُرْغِبت أو أُرْهبت بكل شيء ما خاليته في منزل.

فلم يزل الرجل يديرها، ويلويها، ويستعطفها، ويداريها؛ ويبذل لها فاخرَ الكساء، ونفيس

الحلي والإخدام، والتكرمة، والإعظام؛ وهي مصرة على نفورها، مقيمة على إبائها.

فلما يئس من قبولها قال لها:

فإني مباكر إلى هاهنا، وحاملك إلى السوق للبيع، قالت:

فأين أبيت؟

قال: هاهنا.

قالت: لا أفعل.

قال: فإنا ندخلك بيتا تبيتين فيه، ونقفله عليك.

قالت: على أن يكون مفتاحه معي.

ففعل ذلك، وانصرف الرجل.

وقام بحشل وقت وِرْدِه من الليل لصلاته، ورفع بالقراءة صوته، فطربت إليه، وشغفت به، ووقع في قلبها حبه، فجعلت تناديه:

يا مولاي، خذ المفتاح، وافتح الباب،

وأخرجني إليك، أو ادخل إليّ، فأنا طوع يديك.

فلم يلتفت إليها حتى قضى صلاته، ثم فتح الباب، فجعلت تعتذر إليه، وقبلت يديه، ورجليه؛ واستولدها». [1]

لقد غطى نور التقوى، وحسن قراءة القرآن، على ظلام خَلْق الرجل، وَمَحَا حسن هذا قبح هذا، فاكتسحت جيوش الرضى جيوش السخط، وحلت السعادة محل الشقاء.

وننتقل إلى قصة امرأة عربية، ولا كل النساء، وقفت بأقوالها أمام أقوال الخليفة، وأدخلها الخليفة طرقاً ضيقة، صعبة، فخرجت منها، ولم تخدش، ولم تُقصر؛ قارعت الحجة بالحجة؛ وتمسكت في خطتها، وهي تتحدث، بالهدف الذي جاءت من أجله، ولم تخطئ في أن تسلك

---

(١) الجليس الصالح: ٤/ ١١٨.

الطرق المنجحة للقصد، الموصلة للغرض، وهذه قصتها:

«قال سعد بن حذافة:

حبس مروان بن الحكم غلاماً من بني ليث، في جناية جناها بالمدينة، فأتته جدة الغلام أُمُّ أبيه، وهي أم سنان بنت خيثمة بن خرشة المذحجية، فكلمته في الغلام، فأغلظ لها، وَزَبَرَهَا.

فخرجت إلى معاوية، واستأذنت عليه، فأذن لها، فلما جلست، قال:

يا بنت خيثمة، ما أقدمك أرضي، وقد عهدتك تشنئين قربي، وتحضين عليّ عدوي.

قالت: يا أمير المؤمنين، إن لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة، وأعلاماً ظاهرة، لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حلم، ولا يتعقبون بعد عفو، وإن أولى الناس باتباع سنن آبائه لأنت.

قال: صدقت، نحن كذلك، فكيف قولك:

عَزَبَ الرُّقَادُ فَمُقْلَتِي لَا تَرْقُدُ
وَاللَّيْلُ يَصْدُرُ بِالْهُمُومِ وَيُوْرِدُ
يَا آلَ مَذْحِجَ لَا مُقَامَ فَشَمِّرُوْا
إِنَّ العَـدُوَّ لَآلِ أَحْمَـدَ يَقْصُـدُ
هَـذَا عَلِـيٌّ كَـالْهِـلَالِ تَحُفُّـهُ
وَسْطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَواكِبِ أَسْعُدُ
خَيْرُ الخَلَائِقِ وَابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ
وَكَفَى بِـذَلِـكَ وَالعَـدُوُّ يُهَـدِّدُ
مَازَالَ مُذْ عَرَفَ الْحُرُوْبَ مُظَفَّرًا
والنَّصْر فَوْقَ لِوَائِهِ مَا يُفْقَدُ

قالت: قد كان ذلك، يا أمير المؤْمنين، وإنا لنطمع بك خلفا.

قال رجل من جلسائه: كيف، يا أمير المؤمنين، وهي القائلة:

إِمَّا هَلَكْتَ أَبَا الْحُسَيْنِ فَلَمْ تَزَلْ
بِالْحَقِّ تُعْرَفُ هَادِياً مَهْدِيَّا
فَاذْهَبْ عَلَيْكَ سَلَامُ رَبِّكَ مَا دَعَتْ
فَوْقَ الغُصُونِ حَمَامَةٌ قُمْرِيَّا
قَدْ كُنْتَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ خَلَفاً لَنَا
أَوْصَى إِلَيْكَ بِنَا فَكُنْتَ وَفِيَّا
فَالْيَوْمَ لَا خَلَفٌ نُؤَمِّلُ بَعْدَهُ
هَيْهَاتَ نَمْدَحُ بَعْدَهُ إِنْسِيَّا

قالت: يا أمير المؤمنين، لسان نطق، وقول صدق، ولئن تحقق فيك ما ظننا فحظك أوفر؛ والله ما أورثك الشناءة في قلوب المسلمين إلا هؤلاء، فادحض مقالتهم، وأبعد منزلهم، فإنك إن فعلت ازددت بذلك من الله قرباً، ومن المسلمين حباً.

قال: إنك لتقولين ذلك؟

قالت: سبحان الله، ما مثلك مدح بباطل،

ولا اعتذر إليه؛ وإنك لتعلم ذلك من رأينا، وضمير قلوبنا، كان، والله، علي أحبَّ إلينا منك إذ كان حيا، وأنت أحب الناس إلينا من غيرك إذ أنت باق.

قال: فممن شكواك؟

قالت: مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص.

قال: وبما استحققت ذلك عليهما؟

قالت: بحسن حلمك، وكرم عفوك.

قال: وإنهما ليطمعان في ذلك؟

قالت: هما، والله، لك من الرأي على مثل ما كنت عليه لعثمان.

قال: والله، لقد قاربت، فما حاجتك؟

قالت: إن مروان بن الحكم تَبَنَّكَ بالمدينة تَبَنُّكَ من لا يريد البراح منها؛ ولا يحكم بعدل، ولا يقضي بسنة؛ يتتبع عثرات المسلمين؛ حبس ابني، فأتيته، فقال: كيت وكيت، فألقمته

أخشن من الحجر، وألعقته أمرّ من الصّاب، ثم رجعت إلى نفسي بالملامة، وأتيتك، يا أمير المؤمنين، لتكون في أمري ناظراً، وعليه معدياً.

قال: صدقت، لا أسألك عن ذنبه، ولا أسألك القيام بحجته.

اكتبوا لها بإخراجه.

قالت: يا أمير المؤمنين، وأنَّى لي بالرجعة، وقد نفد زادي، وكلّت راحلتي؟

فأمر لها براحلة موطأة، وخمسة آلاف درهم». [1]

لقد أجادت في حوارها، وأحسنت في أجوبتها؛ فكانت تصارح حين يستوجب القول الصراحة، وتلمح حين يحسن التلميح؛ ولم تتردد أن تقر بحبها لعلي، ولكنها سرعان ما دهنت الجواب بأدب المرأة الناضجة، وأقرت لمعاوية بما له

(١) الجليس الصالح: ٤/ ٢١١.

من حق الآن .

ومع هذا فلابد من الحذر من قبول هذه القصة بحذافيرها، لأن فيها آفة التعرض للوضع، مادام هناك حديث عن النزاع بين عليٍّ ومعاوية .

هذه بعض الصور التي وردت في الأدب العربي عن المرأة، مثلت دورها في المجتمع، وهي قصص اقتصرت على صور قليلة من كثيرة، ولكنها أرت أهمية المرأة، ودورها، ونظرة المجتمع إليها، وما قامت به، وما بذلته من مجهود؛ سواء كانت القصة حقيقة أو خرافة، أو أصيلة صافية، أو مضافاً إليها ما ليس منها .

وهذه القصص اقتصرت على كتاب واحد، هو كتاب : «الجليس الصالح الكافي، والأنيس الناصح الشافي» لأبي الفرج المعافى ابن زكريا النهرواني الجريري، الذي عاش ما بين عامي : ٣٠٣-٣٩٠هـ؛ وقد جمع فيه ما قد يكون حدث

فعلًا، وما قد يكون موضوعاً، ويظهر تحمسه لبعض الاعتبارات، فيأتي بما لا يقبل، ولكن فيه جانب تسلية، أو مظهر طرافة، جعلته مقبولاً.

***

العمـــل

العمل فعل يصف نفسه، ومظهر يعبر عن كنهه، وأنواعه لسانها بيانها؛ وكثيراً ما قرن القول في الحديث بالفعل، فقيل فلان يتكلم أكثر مما يفعل، أو يعمل بصمت، أو قليل الكلام كثير الفعل، وكثيراً ما جاءت النصيحة حاثة على الإقلال من الحديث والتركيز على العمل؛ وتحدثت الحكم والنصائح في الفوائد لهذا، والفضائل لذلك.

والعمل فيه عمران الكون، وفيه رفاهية المجتمع، صغر المجتمع أو كبر، فالعمل هو مرتكز إنجاز متطلب الحياة، وبه يكون النمو والتطور؛ وهو جراب التجربة، التي هي عماد القدوة، وقنال التحسين والإتقان؛ بالعمل يكسب الإنسان، ومنه يعيش، إن أكثر منه

على بصيرة كان بإذن الله سبباً من أسباب السعادة؛ وبه يبز الإنسان غيره، ويتقدم عليه، ويسبقه في مدرج الحياة، أيا كان هذا المدرج.

العمل يبدأ مع الإنسان قبل أن يولد، لأن فيه عنصر الحياة، وإيقافه، خلافاً لنواميس الكون، فيه موت، لأن الحركة عمل، وهي من أبرز علامات الحياة، فالجنين عند ما يبدأ الحركة في رحم أمه، فهو يعمل، ومنذ أول حركة يأتي بها يبدأ عمله لعمر طويل، إن كتب الله له عمراً طويلًا، وبمجرد نزوله من بطن أمه، ورضاعه من ثديها، بعد حركاته الأولى، يبدأ عمله في الحياة؛ ولا يقف، حتى وهو نائم، قلبه يعمل؛ والقلب خير أداة للعمل في النوم، وأكثر أدوات العمل إتقاناً حينئذ؛ ولو توقف القلب عن العمل، أو توقف الدم عن الجريان، أو توقفت الغدد والخلايا عن عملها، لحظة

من اللحظات، لاختل كيان بأكمله، وتبدلت أمور بأمور، وانقلبت السعادة إلى شقاء.

لهذا كان للعمل دوره البارز في الحياة، ولا عجب فهو الملازم للإنسان، ولا يستطيع الإنسان أن يغفل عنه؛ وإذا كانت الأعمال تتراوح في الأهمية، في ضوء التصاقها بحياة الإنسان، فإن الأقوال عنها جاءت مختلفة ومتعددة؛ جاء بعضها حامداً الجد في العمل، وبعضها ذاماً التراخي فيه، وبعضها جاء واصفاً حسن الدخول في العمل، أو الخروج منه؛ وتحدث المهتمون بتدوين الأقوال عن العمل؛ فجاؤا بما قيل جداً، وما قيل هزلًا، وما قاله الدين، وما قاله الحكماء، أو المجربون، وألفت كتب عن العمل، وكتبت فصول في كتب، ووفي القول في هذا إلى درجة تتناسب مع أهميته.

ولأهمية العمل تكلمت عنه الأديان، وحثت

على العمل الفاضل، وعلى فضيلة قيام المرء بما عليه من واجب في هذا المجال، في حدود نصيبه من حمل العبء مع المجتمع؛ وبينت الأديان درجات التفوق في العمل بين الناس، ورسمت المثل، وحثت الناس على التسابق في هذا المضمار، وجعلت الكسب في الدنيا، والأجر في الآخرة، على قدر جهد المرء ونيته.

ويمكن أن نتبين أهمية العمل إذا تدبرنا ما جاء عنه في الكتب المنزلة، وأقربها إلينا القرآن الكريم، وفيه ما لا يقل عن أربع مئة وخمسين آية ورد فيها ذكر العمل؛ كل واحدة تلمس جانباً من جوانبه، مع تكرار في ذلك، اقتضاه الأمر في جانب من جوانبه؛ فكلمة «عمل» مثلًا وردت واحدة وعشرين مرة؛ وكلمة «عملوا» ما يقرب من سبعين مرة؛ وكلمة «تعملون» ثلاثاً وثمانين مرة؛ و «يعملون» سبعاً وستين مرة؛ وكلمة

«أعمالهم» وردت سبعاً وعشرين مرة.

وما بقي مما ورد عن العمل جاء في صيغة «أعمل»، و «تعمل»، و «نعمل»، و «يعمل»، و «اعمل»، و «اعملوا»، و «عمل»، و «عملا»، و«عملك»، و«عملكم»، و«عمله»، و«عملهم»، و «عملي»، و «أعمال»، و «أعمالكم»، و «أعمالنا»، و «عامل»، و «عاملة»، و «عاملون»، و «العاملين»؛ ويكاد لا يكون هناك صيغة مشتقة من كلمة: «عمل» إلا ونجد عنها آية في القرآن جاءت في سياقها المتقن.

والآيات التي تحث على العمل وتعد بالأجر كثيرة ومنها:

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. (1)

(1) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

هذا ثواب في الآخرة أما انتفاع المرء بالعمل الصالح في الدنيا، فجاء فيه في القرآن ما يشجع على العمل الطيب:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ .[1]

والله كريم يعطي العبد على عمله ضعف ما قدم؛ وهذا حث إلهي كريم، إلى درجة لا تخطر ببال بشر:

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ .[2]

وليتبين مقدار هذا الكرم تأتي الآية التي تجازي المسيء، والجزاء لا يزيد عن العمل،

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٧.

تسامحاً منه عز وجل؛ أما المحسن فلا حد لما يُعطاه:

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .(١)

ليس هناك حث يغلب هذا الحث، والمؤمن يجد هذا القولُ صدى في نفسه، فيقدم على العمل الحسن، ويحجم عن العمل السيء، وبهذا يُبنى مجتمع متماسك متعاضد، أفراده عاملون، وأعمالهم حسنة متقنة، بذل فيها الجهد، وأنفقت الطاقات.

ثم تأتي آية فيها مخاطبة للعقل، وتبصير للمرء بواقع حياته، وأن عمل المرء يعود عليه بالنفع قبل غيره إن كان حسناً، وبالضرر إن

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤٠.

كان سيئاً، وهي معالجة لجانب آخر من جوانب الحث على العمل:

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ .[1]

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ .[2]

والعمل درجات، وجهد الناس كذلك، ولهذا ثوابهم بقدر ما يصعدون من هذه الدرجات، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يغفل عن إعطاء كل ذي حق حقه، لأنه مطلع على العمل، وعالم به:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ .[3]

﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.

أَحَدًا﴾ . (١)

وتأتي آية تؤكد فضل الله على عباده في إعطاء العامل ما يستحقه :

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾ . (٢)

وقوله تعالى :

﴿ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ ﴾ . (٣)

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾ . (٤)

ثم إن الله سبحانه مع العامل :

﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ . (٥)

وبعض الأعمال ضائعة ومرفوضة :

---

(١) سورة الكهف، الآية : ٤٩ .

(٢) سورة التوبة، الآية : ١٠٥ .

(٣) سورة آل عمران، الآية : ١٩٥ .

(٤) سورة الكهف، الآية : ٣٠ .

(٥) سورة محمد، الآية : ٣٥ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ .(١)

وتأتي صورة مرسومة رسماً واضحاً متقناً، وفيها تعبير بليغ عن الأعمال المرفوضة، الضائعة في مهب الريح حقاً:

﴿ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ ﴾ .(٢)

وتكرار الآيات بقدر أهمية العمل، وما كان يأتي في الدرجة الأولى أيام الدعوة الأولى، ليثبت الفهم، ويستقر في الأذهان.

أما السُّنَّة فيكاد كل ما روي عن الرسول ﷺ أو وصف به فعله، فهو في خدمة العمل بطريق مباشر أو غير مباشر، ولا يكاد باب من الأبواب في الصحاح، وكتب السنن، إلا وفيه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٨.

توجيه إلى العمل المقبول فيه .

وكتب الأدب والتواريخ ملأى بأخبار العمل والعاملين، وتتنوع هذه الأخبار بتنوع العمل والعاملين وظروفهم؛ ويكفي أن نتتبع ما يتطلبه البحث عن الرزق، والسعي لتأمينه، فالجيوش وأعمالها مجال لا حد له في الأعمال التي تأتيها؛ وهناك البادية وتنقلهم، والبحارة والتجار وأسفارهم، والمعلمون والعلماء والقضاة، وأصحاب الدكاكين وأصحاب المهن؛ وكل من يخطر على البال فله عمل من الأعمال يؤديه، فالنوم عمل، والسير عمل، والركوب عمل، والجلوس عمل، وهكذا مما لا يحصره عد، ولا يحيط به وصف .

ومن العبارات التي ورد فيها ذكر العمل قوله ﷺ : «اعملوا، وخير أعمالكم الصلاة» .[1]

---

(١) بهجة المجالس : ٣/ ٣٤٣ .

وقال ﷺ: «لا تعمل شيئاً رياءًا، ولا تتركه حياءًا».[1]

وقيمة أقواله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا تصل إلى علوها قيمة، ومن تدبر قوله: «خير أعمالكم الصلاة» أدرك عمق المرمى، فالصلاة عماد الدين، ومن لم يُقِم هذا العماد لم تقم خيمة الدين عنده، ومن لا دين له لا قيمة له.

وأداء الصلاة عمل يؤكد التقوى، وهي الصلة الحقة بين المرء وربه، وهي علامة طاعة المسلم لربه، وقبوله لدينه، ودخوله تحت مظلة الإسلام، وتخلقه بكل ما جاء به.

وقوله ﷺ: «لا تعمل شيئاً رياءًا، ولا تتركه حياءًا» فيه، بجانب الفضيلة الواضحة في تجنب الرياء، الشجاعة التي يجب أن يتصف بها المسلم، والرياء فيه رائحة منتنة من روائح الجبن؛

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٣٤٢.

فالمرء يرائي ليكسب نفعاً رخيصاً، أو ليتجنب ما يجب أن يقابله برجولة ونضج؛ والرياء من أكبر الرذائل في الإسلام لأنها تهز شخص المسلم، وتركسه إلى منزلة كرم الله المسلم عنها؛ ويوجه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى أمر آخر قريب من منزلة الجبن وهو ترك الشيء حياءًا؛ والحياء في مثل هذه الحالة هو مداراة الناس فيما لا يجب أن يداروا فيه؛ وطلب رضاهم فيما لا يجب أن يخطب ودهم فيه؛ والمسلم مطلوب منه أن يكون قوياً في كل مظهر من مظاهر حياته لأن قوته ليست لنفسه، وإنما للإسلام ومجتمعه؛ وعلى هذا فالمسلم ليس حراً في أن يختار الضعف، أو يقبل الهوان، فتحمل الأذى، والصبر على الحرمان، بعداً من الضعف والهوان، أمر مطلوب من المسلم، حتى لو أدى هذا إلى تلف نفسه إذا كان الأمر يصل في قيمته إلى هذا الثمن.

ولما سأل أبو ذر رسول الله ﷺ بقوله: «الرجل يعمل لنفسه، ويحبه الناس عليه».

رد صلوات الله عليه بقوله: «ذلك عاجل بشرى المؤمن».[1]

إن لنفسك عليك حقاً، فإن عملت لها لم تحتج إلى الناس، ولا تكون عالة عليهم، وتحمل عن المجتمع حملًا لو لم تحمله لحمل عنك، فأنت بهذا أديت واجباً، وهذه أول علامات الفلاح في هذه الدنيا، والفلاح في الخير في الدنيا رصيد معجل للآخرة.

بل إن عمل الإنسان لنفسه يؤجر عليه المرء بقدر المشقة فيه، والحديث الآتي يبين الصورة التي يمكن أن يكون عليها الأمر:

قال بعض العلماء:

أفضل الأعمال ما أُكْرِهَتْ عليه النفوس،

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٣٤٣.

ويشهد لهذا قوله ﷺ «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء عند المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فذلكم الرباط، فذلكم الرباط». (١)

وعمل الإنسان الخير لنفسه لا يعدم أن تسري فائدته إلى الغير، وذلك عندما يُتَّخَذُ صاحبُه قدوة، ويفعل الناس مثل فعله، فله أجر فعله، وأجر من قلده فيه إلى يوم القيامة، ولهذا قال المأمون نحن إلى أن نوعظ بالأعمال، أحوج منا إلى أن نوعظ بالأقوال. (٢)

وهذا قول حكيم، ورأي عميق، ولا يأتي إلا من رجل ذي بصيرة وتدبر، ومعرفة بأحوال الناس وأنفسهم، وما يجول فيه من شعور تجاه

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٣٤٤.
(٢) بهجة المجالس: ٣/ ٣٤٥.

الأقوال والأعمال؛ فالعمل أبلغ في النصيحة، وأكثر قبولًا في الوعظ؛ لأنه لسان صادق، يقدمه صاحبه على بساط التجربة بضاعة مزجاة، يترك للناس حرية قبوله أو رفضه؛ والناس دون أنفسهم، لا يحبون في الغالب أن يسقوا الدواء إرغاماً، ولكنهم يقبلونه إذا رأوا جالبه يتعاطاه بنفسه، ويجعل مشاركته فيه من قبل الناس حسب رغبتهم واختيارهم؛ والناس عادة جفولون من أي عمل يوحي بالتسلط والإرغام، حتى لو كانت مصلحتهم في هذا واضحة ومؤكدة؛ ولعل عناد الصغر يكون مختبئاً داخل نفوسهم، يثار عند أي حادث عندما يكبرون، مما يوحي لهم بالتسلط والإجبار؛ هو عملاق كامن، منطو على نفسه، سرعان ما تنفك قيوده، وتتمدد أعضاؤه، ويقف أمام الوعظ المباشر، والنصيحة البينة؛ ولهذا يغلف علماء

النفس والمجتمع نصائحهم، وتوجيهاتهم، بما لا يجعلها واضحة وضوحاً يضيع فائدتها، ويجفل منها.

وقد أشار أحد الحكماء إلى شيء له مساس بهذه الناحية إذ قال:

«لو ثقل الكلام على الواعظين كما ثقل على العاملين قل كلامهم»[1].

فخفة الكلام تجعل صاحبه يطيل فيه، وقد يعيد ويكرر، أما العمل فثقيل، ولهذا يختصره من يقدم عليه، لما فيه من مجهود، ومن أخطار أحياناً؛ ولو ثقل الكلام ثقل العمل لاستراح الناس من كثير من العناء الذي يحدثه المتكلمون.

والحث على العمل جاء بصور متعددة منها ما تقدم، ومنها ما روي عن عمرو بن العاص،

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٣٤٥، قارن هذا بما ورد في محاضرات الأدباء: ١٨٢، مروياً عن أبي الدرداء.

وهو قوله:

«اعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً»[(١)].

في كلا الحالين الجد في العمل، ومواصلته، وإتقانه، وصلاحه، مطلوب، إن كانت الفائدة لدنيا، أو لآخرة؛ ومعنى هذا أن أمامك هدفاً يحثك على هذه النظرة من الجد والإتقان والمواصلة، وحسن العمل.

والأمر الذي لا يغفره مجتمع، ولا تقره فضيلة، هو زيادة القول عن العمل، أو ترك العمل للأقوال؛ والسبب أن فيه ادعاءاً يريد صاحبه به أن يختل الناس، فيوهم بغير الحقيقة، سواء كان الحديث عن نفسه، أو عن غيره، وقد يبعد السفساف في ثرثرته، حتى يظن أن ما قاله مقبول من الناس، أو أنهم به سعداء؛

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٣٤٧.

وقد يكون بليداً لا يلحظ تذمر الناس من كثرة أقواله، وقلة أفعاله، فيستمر فيها، ويزيد ضيقهم به ضيقاً، ونفورهم منه نفوراً، حتى يقيض الله لهم من يريحهم منه، وقد رسم أحدهم أبياتاً تصور موقفاً من المواقف التي تتسم بهذه السمة، فقال:

«قَطَعَ الدَّهْرَ بِأَسْبَابِ العِلَلْ
وأَعَارَ السَّهْوَ أَيَّامَ الأَجَلْ
أَلِفَ اللَّذَةَ حَتَّى اعْتَادَهَا
واشْتَهَى الرَّاحَةَ واسْتَوْطَا الكَسَلْ
فَهُوَ الدَّهْرَ يَقْضِّي أَمَلًا
ولَعَلَّ الْمَوْتَ فِيْ طَيِّ الأَمَلْ
يُحْسِنُ القَوْلَ إِذَا قَالَ وَلَا
يتَحَرَّى حَسَناً فِيْمَا فَعَلْ
صَيَّرَ القَوْلَ بِجَهْلٍ عَمَلًا
ثُمَّ أَجْرَاهُ عَلَى مَجْرَى العَمَلْ

لَيْتَـهُ كَـانَ كَمَـا قَـالَ وَلَا
يَقْطَعُ الأَيَّـامَ إِلَّا بِـالْجَـدَلْ»[1]

وإذا حشرج الصدر، وترك الإنسان الدنيا خلفه، وبدأ يحاسب نفسه، ويحصي رصيده من العمل فيها، حينئذ تأتي النتيجة السارة، أو المؤلمة، فإن كانت سارة فإنه يفارق هذه الدنيا، وهو مطمئن النفس، مرتاح البال، يؤمل في ربه خيراً له، ولعمله؛ وإن كانت الأخرى، فإن ألم النفس شديد، ويندم الإنسان حين لا ينفعه الندم، وهذه صورة واعظة لمثل هذا الموقف:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كَانَ لِي أَمَلٌ
أَعْجَلَنِي مِنْ بُلُوغِهِ الأَجَلُ
فَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّـهُ رَجُـلٌ
أَمْكَنَـهُ فِـي حَيَـاتِـهِ العَمَـلُ[2]

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٣٤٦.
(٢) بهجة المجالس: ٣/ ٣٤٥.

ويتعمقون في أمر العمل، ويلمسون جوانب نفسية تحمي العمل من أن يختل، ولعلهم يريدون له الكمال بقدر الاستطاعة، ولهذا أحاطوه بما يبعد عنه الخلل، فأشاروا إلى ما يحتاج في العمل من مراعاة، وما لابد منه من الحذر؛ فالملل عدو الإنسان في العمل، ولهذا هم يقظون لأسبابه، والوقوف أمامها، وهذا هو أحد الأقوال التي ترمي إلى حماية العمل من أي سبب يعيق سيره:

«كان يقال: اعمل وأنت مشفق، ودع العمل، وأنت تحبه». [1]

والعمل في درجاته المختلفة يحظى من الأنبياء والرسل والمصلحين والحكماء بالنص والتأكيد، ولا يدعون جانباً يكمل نتائجه إلا طرقوه، ونبّهوا إليه، ومن أعلى درجات العمل إكماله

(١) محاضرات الأدباء: ١٧٦.

وإتقانه، ولهذا عظم ثوابه؛ وأقرب ما قيل في إتقانه أن متقنه يحبه الله:

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه».

والشاعر قال:

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئاً
كَنَقْصِ القَادِرِيْنَ عَلَى التَّمَامِ

وهذا المطلب يعطي العمل البريق الذي يستحقه، وهو لازمة مهمة من لوازم البشر، والإنسان فضله الله على خلقه، فلا أقل من أن يطمح أن يكون في العمل في الدرجات العُلى بين خلق الله.

والعمل أعطي اعتباره في المهن والحرف، فهي طريق رزق وطيد، وكسبها شريف، ولا غنى لمجتمع عنها؛ وبعضها يصاحب أداءها فن وفكر؛ يزيد إتقانها، وسرعة أدائها، إطالة

التجربة، ومحبة المهنة، والإخلاص لصنعها؛ والعامل فيها قد يكون عاشقاً لها، فيعطيها من جهده وعاطفته ما يجعل مردودها عليه عالياً.

«ويروى عن النبي ﷺ أنه قال لوفد عبدالقيس:
ما المروءة فيكم؟
قالوا: العفة والحرفة.
وقال: خير الكسب كسب اليد لمن نصح».[1]

وفي كلمة «نصح» هذه يكمن الإتقان، نتيجة محبة المهنة، والتعلق بها، وعدم الاكتفاء بها مهنة للرزق، وإنما هي فن، بُرِّحَ له في سويداء القلب مكان رحب دافئ.

والمروءة مدلولها شريف ونبيل، وهي من الصفات التي ليس من السهل توافرها إلا بمثابرة على صفات عديدة فاضلة، والعفة

(١) محاضرات الأدباء: ١٧٦، ١٨١.

كلمة جامعة للفضائل، فإذا اجتمعت مع المهنة الثابتة المتقنة فإنها توصل صاحبها إلى المقام الذي يرتضيه؛ فالمهنة تغنيه عن الناس، وتجعله حراً في تكييف حياته الاجتماعية، والعوز هو الذي يجعله مطية لرغبة الناس، وللشيطان أحياناً؛ ولهذا فالمهنة وِجَاءٌ وحماية وحصن، فإذا أمن المرء دخله عاش حياة كلها فضيلة، ولهذا فكلمة وفد عبدالقيس كلمة جامعة، فيها الوعاء الحافظ الحصين، وفيها المحتوى الثمين.

وقول واحد في زمن الخلفاء الراشدين يُري مدى أهمية الحرفة، واطمئنان الحاكم إلى المحترف، صاحب المهنة الثابتة المتقنة؛ والحاكم هو أشد الناس حرصاً على أن يكون لكل فرد في المجتمع مصدر رزق ثابت، لأن الأمن منوط في أحد جوانبه في شغل الناس أوقاتهم في عمل ينفعهم هم أنفسهم، ثم ينفع مجتمعهم في أن الفرد لم

يصبح عالة على مجتمعه، وفي الوقت يأتي له بعمل مجيد، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا نظر إلى رجل سأله أله حرفة؟ فإذا قال: لا، سقط من عينه.[1]

وعمر يبدو أنه مهتم بهذا الجانب، ومن خيرٌ من عمر، وهو الذي لا يطرف له جفن، ولا تنام له عين، حتى يطمئن إلى أن أفراد مجتمعه، قد أخذوا حقهم من الدنيا والدين؛ وأمر الحرفة يشغل باله، لأنه يعتقد أن فيها أماناً لصاحبها، فالرزق فيها منتظم، والوقت مستغل، والمجتمع مخدوم، والحاكم مطمئن؛ ويؤكد انشغال باله بالمهن الخبر الآتي:

«نظر عمر إلى أبي رافع، وهو يقرأ، ويصوغ.

فقال: يا أبا رافع، أنت خير مني، تؤدي

(١) محاضرات الأدباء: ١٧٦.

حق الله، وحق مواليك»[1].

لعل عمر كان يتمنى في قرارة نفسه أن يكون له مهنة مثل مهنة أبي رافع، ليؤديها، وهو يقرأ القرآن، ثم يعود بعدها ليعبد الله، ويأكل رزقه بهناءة، وراحة بال، وينام نوماً عميقاً، لا تكدره أعباء الخلافة، داخلها وخارجها. وقد قلل من شأن عمله بجانب عمل هذا الصانع العابد، وظلم عمر نفسه بهذا، فعمل عمر هو الإطار الحامي لأبي رافع ومهنته، ولولا الأمن والازدهار، اللذين هيأتهما سياسة عمر، لما استطاع أبو رافع أن يؤدي عمله على الوجه الأكمل.

وما قلناه عن النصح في الصنعة أمر أساس فيها، وبدونه يكون العمل ناقصاً، والله يحب من أكمل عمله أن يُتقنهُ، كما سبق أن قلنا؛

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٧٧.

والنصح في الصنعة، وإتقانها مزاياه فائقة، فهو يأتي لصاحبه بمردود مادي جيد، ومردود نفسي عميق، ويكفي أن يتذكر صاحبه القول الآتي، فتطمئن نفسه، ويهدأ باله، ويزيد أمله في الله ـ سبحانه وتعالى:

«قيل: إن الله يحب التاجر الصدوق، والصانع الناصح، لأنه حكيم».[1]

والنصح في العمل أول درجات الإتقان، ومادام على الإنسان أن يعمل، فعمله قرين له، وصاحب ملازم، فلا أقل من أن يعتني بهذا الصاحب، فيجعله في أجمل صورة، وعلى أفضل وجه؛ وإلا كانت الصحبة نكدة، وكانت الملازمة عناءً وشقاءً؛ مثل إنسان قرن بجيفة، يلزمه تحملها، والصبر عليها؛ أما العمل الصالح المصاحب للمرء فهو كرائحة العطر

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٣٤٥.

الزكية، وقد قيل:

«العمل قرين لا يستطاع فراقه، فمن استطاع أن يكون قرينه صالحاً فليعمل، فإنه لا يصحبه في آخرته غير عمله».[1]

وإذا كان هذا مجال من مجالات الحمد في العمل، فهناك ما لا يحمد من قلة العمل؛ وذلك عندما يطغى القول على العمل، ويكون هو رأس المال، والأقوال هي المسيطرة على حساب العمل، وما أكثر الذين يدعون بأقوالهم، ولا يبرهنون على ما يقولون بأفعالهم، وهذا عجز في الإرادة، ونقص في التفكير، وضحالة في النضج، ورداءة في الرجولة؛ ويُغطى عن هذه النواقص بالتظاهر، والإدعاء؛ والوسيلة هي الأقوال البراقة، وفيها صرف لما قد يكون بقي للشخص من ذكاء إلى غير مكانه، شذوذاً

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٣٤٤.

وانحرافاً؛ وهناك بيتان يمثلان من يقول ولا يفعل وهما:

«لما قدم عبدالعزيز بن سلمة الماجشون من العراق، وسئل عن أهلها، قال:

بِهَا مَا شِئْتَ مِنْ رَجُلٍ نَبِيْلٍ
وَلٰكِنَّ الوَفَاءَ بِهَا قَلِيْلُ
يَقُوْلُ فَلَا تَرَى إِلَّا جَمِيْلًا
وَلٰكِنْ لَيْسَ يَفْعَلُ مَا يَقُوْلُ»[1]

وطموح الناس في العمل يتراوح بين الضحالة والعمق، وبين النظرة المؤقتة، والنظرة البعيدة الدائمة؛ فهناك من يعمل وليس في ذهنه إلا قوت يومه، أو شهره، أو سنته، أو فترة حياته؛ وهناك من يضع الأسس لآماد بعيدة، وآجال طويلة، قد تصل إلى عدد من الأجيال من عقبه؛ وفرق بين رجلين سارا في طريقين مختلفين هذا

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٨٠.

قنوع، وذاك طموح؛ وهناك قصة رمزية تري الكسب الذي ربحه صاحب النظرة البعيدة، والطموح المتناهي، وعمق حب العمل في نفس أحد المزارعين، والقصة مشهورة، ومتداولة في عدد من الكتب، لصدق الصورة فيها، وبلاغة الحكمة التي ترمي إليها، وهي:

«حكي أن كسرى مر بشيخ كبير، يغرس فسيلًا، فقال له:

يا هذا كم أتى عليك من العمر؟

قال: ثمانون سنة.

قال: أفتغرس فسيلًا بعد الثمانين؟

فقال: أيها الملك، لو اتكل الآباء على هذا لضاع الأبناء.

فقال كسرى: زه، يأخذ أربعة آلاف درهم.

فقال: أيها الملك، الفسيل يطعم بعد سنين من غرسه، وهذا قد أطعمني في سنته.

فقال: زه، يأخذ أربعة آلاف درهم.

فقال: أيها الملك، الفسيل يطعم في السنة مرة، وهذا قد أطعمني في أول السنة مرتين.

فقال: زه، يأخذ أربعة آلاف.

فقال الوزير: إن لم ينهض الملك أردى هذا، بحكمته، بيت المال»[1].

والحث على العمل، وطلب الرزق، والتحبيب إليه، ورد في نصوص كثيرة في كتب الأخلاق والأدب، نثراً وشعراً، وإيماناً بأهمية هذا الأمر، ورغبة في الحث عليه، لأن في التراخي عن ذلك ملامة عظمى، والنتائج الوخيمة لذلك عظمى كذلك، ومما قاله بعض الحكماء عن طلب الرزق، والاستماتة في ذلك، القول الآتي:

«لا تدع الحيلة في التماس الرزق، بكل

(١) محاضرات الأدباء: ١٨٠، المحاسن والاضداد: ١١٢.

مكان، فالكريم محتال، والدنيء عيال».[1]

وأن يكون الإنسان عالة على غيره، وهو قادر على الكسب، عيب كبير، لا يقبله مجتمع، ولا يرضاه دين، وهو وصمة عار على صاحبه، وعلى أهله، وعلى مجتمعه، ولهذا قال هذا الحكيم إن على المرء أن يحتال: أي يطرق جميع السبل، ولا يتواني، ولا يستسلم لليأس، ولا يحبط الله عمل من جد واجتهد، وطرق جميع السبل الموصلة، واحتال بالطرق والوسائل الفاضلة.

أما الشعر فيمثله قول عروة بن الورد:

«إِذَا المَرْءُ لَمْ يَطْلُبْ مَعَاشاً لِنَفْسِهِ
شَكَى الفَقْرَ أَوْلَامَ الصَّدِيْقَ فَأَكْثَرَا
فَسِرْ فِيْ بِلَادِ اللهِ وَالْتَمِسِ الغِنَى
تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوْتَ فَتُعْذَرَا»[2]

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٨٠.

(٢) محاضرات الأدباء: ١٨١.

وأهمية العمل للمرء، وفائدة ذلك لمجتمعه، تتبين في القصة الآتية، التي تبين أن نقص العمل جرح للدين في بعض جوانبه؛ وهي لفتة نبوية تحمل معاني ثَرَّةَ، وفكراً سامياً:

«قدم قوم على النبي ﷺ فقالوا:

إن فلاناً يصوم النهار، ويقوم الليل، ويكثر الذكر.

فقال: أيكم كان يكفي طعامه وشرابه؟

فقالوا: كلنا.

فقال: كلكم خير منه»[1].

لم يشفع لهذا الرجل اتجاهه الديني، ونيته الطيبة فيه، لأنها رجحت على كفة أخرى لها حقها منه، ونسي جانبها في غمرة انغماسه في الطاعة، فنبه الرسول ﷺ إلى ما غفل عنه، وحذر بطريق غير مباشر غيره من أن يحذو حذوه،

(١) محاضرات الأدباء: ١٨١.

وخير الأمور الوسط في هذا الجانب، فلكل جانب حقه، فإذا طغى جانب على جانب اختل التوازن، وحدث الخطأ، وضاع العمل.

هذا في ازدياد التدين على العمل، وهو أخذ للآخرة مما للدنيا مما هو مندوب له، ومحثوث عليه، فما بالك بأن يُترك جانب لحساب جانب آخر، وكلاهما أمر دنيوي، إنما قلل العرف السائد من شأن أحدهما، عصبية، وقلة اعتبار، مما أوجب الاختلال في الموازين، ولهذا تنبه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لهذا؛ فحذر منه:

«كان عمر يقول:

مكسبة فيها دناءة خير من مسألة الناس». [1]

قد ينظر بعض الناس في الزمن القديم إلى صنعة الصانع، وما فيها من عدم النظافة،

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٣٤٥.

ومثلها مهنة الصايغ، ولا يصل نقدهم لمهنة التسول، فنبه عمر إلى خلاف ما يرون، ورأى في تدني مهنة الصانع شرف طلب الرزق بالعرق والجهد، وهي خير من مذلة السؤال، التي يركن إليها بعض الناس، ويتغافل عما فيها من مهانة تركسه في الدناءة، وهو لا يدري.

وقد علق أعرابي على منظر رأى أن فيه شيئاً مما في هذا، والخبر كالآتي:

«رأى أعرابي جنازة حمزة الزيات، وقد حشد لها الناس، فقال:

ما رأيت أرفع لخساسة من عمل صالح». [1]

الزيات يلحق ثيابه من الزيت ما يلصق الغبار بها، فتتوسخ، ولكن صلاح حمزة هذا، وصدق عمله ونظافته، نظفته، فلم يذكر الناس ثيابه ووساختها، ولكنهم ذكروا نظافة نفسه،

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٨١.

فاحتشدوا يشيعونه؛ ولم يُظِرهُ ما ظُن أنه دناءة مهنة، حين رفعه الدين على الرؤوس، سراجاً مضيئاً، ولم يضره عمله الشريف إذ غلفه بغلاف الدين البهي، فغطى نور هذا عند من يقدر الحقيقة، على دنس المهنة، واعتبار بعض الناس الخاطئ.

ونعود إلى المسألة ومذلتها لصاحبها، ونعطي مثلًا مضيئاً لتصرف سامٍ للرسول ﷺ عندما عمل على إبعاد رجل عن المسألة، ودله على طريق عمل شريف؛ لا تضيره بساطته ولا يعيبه تدنيه، وأوجد له عملًا مفيداً مدراً، فكان له باب نجاة من السؤال، وباب كسب للرزق واسع، جعل الله له فيه البركة:

«روى أنس أن رجلًا من الأنصار جاء إلى النبي ﷺ وقال:

أتيتك من أهل بيت لا أراني أرجع إليهم

من الجوع.

فقال: أما عندك شيء؟

قال: لا.

فأعطاه درهمين وقال:

اذهب، فابتع بأحدهما طعاماً، وبالآخر فأساً، فاحتطب وَبعْ.

فغاب خمسة عشر يوماً، ثم جاء، فقال

بارك الله لي فيما أمرتني به أصبت عشرة دراهم، فابتعت لأهلي بخمسة طعاماً، وبخمسة كسوة.

فقال النبي ﷺ: هذا خير لك من المسألة؛ إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: دمٍ موجع، أو غُرمٍ مفظع، أو عُدمٍ مدقع». [1]

إن التفكير النبوي، وراء هذا التصرف، كان عميقاً، وكان غاب عن الرجل أن يحتال

(١) المحاسن والاضداد: ١١٢، محاضرات الأدباء: ١٨٣.

لرزقه، ويجد الطريق إلى ذلك، فدلّه ـ صلوات الله وسلامه ـ على الطريق الذي لم يهتد إليه بنفسه، ولم يعطه فأساً فقط؛ ولكنه أعطاه العلاج السريع لجوعه وأهله، ثم طلب منه في الخطوة التالية أن يقوم بواجبه لنفسه، فأذاقه طعم حلاوة الكسب، ودفعه في طريقٍ حَمِدَه؛ والحكمة بالغة في تصرفه ﷺ، لقد أغناه عن الناس، وجعله صالحاً في مجتمعه، إذ أضاف إلى العاملين فيه، حطاباً، مقبلاً على عمله، راغباً فيه، عارفاً بفائدته.

ثم انظر إلى الجانب الاقتصادي، وسرعة دِرَّةِ هذا العمل الذي قام به الرسول ﷺ درهمان، أحدهما كفاه لطعامه وطعام أهله، والآخر لعدته للكسب؛ وقارن هذا بعشرة الدراهم التي جزء منها موّن بيته بحاجته من الطعام لفترة، وزاد ما معه ليكفي لكسوة أهله؛ إنه

رزق عميم، وكسب عظيم، لابد أنه مع الوقت اشترى بيتاً، وحسن من حاله بسد حاجة أهله؛ لقد وضع الرسول ﷺ في يد الرجل المَلَكَة التي بها يغلب قسوة الزمن؛ وأعاد له احترام نفسه، واحترام مجتمعه؛ وهذه قصة تؤخذ عبرة، وتحتذى، ويقتدى بها في زمننا هذا تجاه من يأتون لطلب الإحسان، وهم قادرون على العمل.

والعمل والاحتيال له قد يضيق مجاله في محيط الإنسان أو في بلده، فيبحث عنه في دائرة أوسع؛ ولهذا عمرت الأسفار براً وبحراً، وفي أيامنا هذه جواً؛ وكان السفر في وقت من الأوقات قطعة من جهنم، لما فيه من تعب بالغ، وجهد مُضْنٍ، وأخطار محدقة؛ فالبحر وتقلباته، والأمواج وشدتها، والشعاب المرجانية ومفاجآتها، والقراصنة وهجماتهم، كلها أمور متوقعة، ومتواترة، ومتكررة؛ ويقابل القراصنة

في البحر قطاع الطرق في البر، وحوادث السيارات تقابل تلاطم الأمواج، والارتطام بالشعاب في البحر؛ والخلل في الطائرات وسقوطها إضافة أضافها زمننا، جعلت من السفر في الجو أخطاراً تضاهي الأخطار في البر والبحر؛ ومع هذا ركب المرء قديماً وحديثاً البحر، وطرق البر، واعتلى الطائرات، فالسفر إحدى وسائل طلب الرزق، وقد روي عن الرسول ﷺ قوله: «سافروا تغنموا». [1]

ويقول الشاعر:

«فَسِرْ فِيْ بِلَادِ اللهِ والْتَمِسِ الغِنَى
تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوْتَ فَتُعْذَرَا
وَلَا تَرْضَ مِنْ عَيْشٍ بِدُوْنٍ وَلَا تَنَمْ
وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ كَانَ مُعْسِرَا» [2]

---

(١) المحاسن والاضداد: ١١٢.

(٢) المحاسن والاضداد: ١١٢.

والسفر وطلب الرزق، والاحتيال له، قد لا يكون ذا نتيجة، ناجحة، ولكنه محاولة من المحاولات، فإذا لم تكن الوسيلة الناجحة فإن أحد الشعراء ينفس عما بداخله بقوله:

«كَفَى حَزَناً أَنَّ النَّوَى قَذَفَتْ بِنَا
بَعِيْداً وَأَنَّ الرِّزْقَ أَعْيَتْ مَذَاهِبُه
وَلَوْ أَنَّنَا إِذْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا
غَنِي وَاحِدٌ مِنَّا تَمَوَّلَ صَاحِبُهْ
وَلٰكِنَّنَا مِنْ دَهْرِنَا فِيْ مَؤُوْنَةٍ
يُكَالِبُنَا طَوْراً وَطَوْراً نُكَالِبُه»[1]

ويبعد المادحون للعمل، الذامون للكسل والتواكل، في حثهم، فيأتون بأمثال هي صورة متقنة للحالة التي تصدوا لها، وهذا أحد الأمثلة المعبرة في هذا المجال؛ ورغم أن عنصر المغالاة فيه ظاهر، إلا أن هذا مقصود لتأثير

(١) المحاسن والاضداد: ١١٢.

الصورة، التي يرسمها هذا المثل، وهي صورة مرعبة، لتفضيل الكلب، وهو الحيوان النجس، على الأسد، ملك الغابة، ذو القوة الجبارة، والمثل يقول:

«كلب جوال خير من أسد رابض». [1]

وفي القصص الشعبية التي تقال على لسان الحيوانات هناك قصة رمزية جميلة، تبين الفرق بين الجاد في طلب الرزق، والمتراخي فيه، وتبين المهتم، وتقارنه بالمهمل؛ وترسم صورة متقنة، لمغبة ما يجنيه هذا من خير، وما يفقده هذا من خير، والقصة كمايلي مأخوذة من طبيعة كل واحدة من الحشرتين:

دأبت النملة وقت الثمار على جمع حبات القمح، ووضعها بعناية وإتقان في مخازن تحت الأرض حيث تسكن، ولم تُضِع دقيقة واحدة

---

(١) المحاسن والاضداد: ١١٢.

من وقت عملها، بل استغلته لجمع ما يكفيها عندما ينتهي الحصاد، ويأتي الشتاء ببرده الشديد، واختفاء المحاصيل؛ مدركة فائدة هذا العمل، ومستهينة بالتعب، مقابل الراحة التي سوف تجنيها في المستقبل.

وخلافها الدبور أو الزنبور الذي كان ينتقل من مكان إلى مكان في الحقول، يغني، ويرفه عن نفسه، مستغلًا الوقت الجميل الذي هو فيه، وقت الزهور والثمار، والجو المعتدل؛ وساهياً عن ما سوف يأتي من وقت عصيب، ولا يفكر إلا في اللحظة التي هو فيها، ممتعاً نفسه بما حوله، وبما يحصل عليه، موغلًا في الغفلة، وسادراً في غيه.

وعندما نصحته النملة بالعمل للمستقبل، والسعي لخزن ما سوف ينفعه في المستقبل، وقت العسرة والشدة، والبرد القارس، عندما

تختفي الثمار، ولا ينفع أحداً إلا ما جمع وخزن؛ وانتقدته على هذا التنقل بين الأغصان، وأعشاب المياه، والغناء المتواصل، والطرب الذي سوف لا ينفعه عندما يحزبه الأمر.

ردّ عليها بتهاون وتجاهل واستهتار وقال لها:

«ساعة من طربي يساويك يا معكوفة الذنب».

وطار عنها منشداً قصيدة، ومترنماً بما يفرحه ويبهجه.

ومرت الأيام، وَصَوَّح النبت، وجاء الشتاء ببرده القارس، ورياحه الشديدة، واستكنت الحيوانات في جحورها، والطيور في أعشاشها، وملاجئها، تقتات على ما ادخرته، أو ما بقي صالحاً للأكل في الشتاء، مما لا يصلح إلا لبعض الحيوانات والطيور والفراش.

تذكرت «الذبة» أو الدبّور أو الزنبور ما قالته

النملة وما خزنته، وادخرته لهذا الوقت، فذهبت إليها، وطرقت بابها، وخرجت إليها تلك، وسألتها عما جاء بها، فقالت أريد طعاماً مما ادخرتيه، فأغلقت النملة بابها بغضب بعد أن قالت لها:

«من غبى عشاه أصبح يلقاه».

من احتفظ بعشائه فإنه سوف يجده ويستفيد منه عندما يحتاجه.

هذا المثل الشعبي يماثله قول شعبي آخر وهو:

«من ضيع افتقد».

ومثل عربي فصيح يقول:

«من غلى دماغه صائفاً غلت قدره شاتياً».[1]

أجل لقد غلى دماغ النملة صيفاً، وغلت قدرها شتاءاً.

وقد مر بنا حث على الاحتيال على الرزق،

---

(١) المحاسن والاضداد: ١١٢.

والسعي للحصول عليه، والعمل على استمراره، وعدم انقطاعه، لأن فيه حياة المرء وذويه، وفيه سعادته وسعادتهم، وجمل الحث هذه لا تكاد تحصى، وتأتي في أول نصيحة، أو استنهاض للهمة، ومما نقله الجاحظ القول الآتي؛ وسبق أن ذكرناه:

«قال بعض الحكماء: لا تدع الحيلة في التماس الرزق بكل مكان فإن الكريم محتال، والدني عيال».[1]

وهناك تعبير آخر رمى إلى المرمى نفسه، ولكنه نحا منحى آخر، واختار منهجاً مغايراً في الوصول إلى الهدف، وهو قول عبدالله بن طاهر:

«من سعى رعى، ومن لزم المنام رأى الأحلام».[2]

---

(١) المحاسن والاضداد: ١١٢، محاضرات الأدباء: ١٨٠.

(٢) المحاسن والاضداد: ١١٢.

وما على المرء إلا أن يسعى، وليس عليه إدراك النجاح كما قال كشاجم.[1]

وقال أحد الشعراء:

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتِراً
مِنَ المَالِ يَطْرحْ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ
لِيَبْلُغَ عُذْراً أَوْ يَنَالَ غَنِيْمَةً
وَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحِ[2]

لقد ساوى بين من نجح في قصده، وكلل عمله بالنجاح، بمن لم ينجح ولكنه حاول جهده أن يصل إلى مبتغاه، وهذا قول حق، فالنجاح بيد الله ـ سبحانه ـ في كل أمر، وإذا لم ينجح جهد اليوم في هذا السبيل فقد ينجح غداً في سبيل آخر، وكم من أناس عرفناهم أخذوا سنين وهم يحاولون، ويقولون عن محاولاتهم

(١) محاضرات الأدباء: ١٨٣.
(٢) المحاسن والاضداد: ١١٢.

أن الحظ لم يواتهم، وفجأة ينفتح أمامهم باب من الرزق واسع، ولم يكونوا يحلمون به؛ والماء الراكد يأسن، والماء الجاري تتجدد صفحته، ويحلو مذاقه، ويصفو لونه.

والعمل المستمر يعطي الإنسان تجربة تفيده في مقتبل الحياة، ففي هذا اليوم الأمر معمى قبل أن يجرب، وغداً ينكشف جانب من جوانبه، ومع الوقت لا يبقى فيه لمحاولة سر أو غموض.

وقد لا يكون الكسب في العمل مستمراً، أو متواتراً، أو متتابعاً، ففي مرة قد يأتي عميماً، وفي وقت قد يأتي أقل من المجهود، ولكن المردود النفسي الذي يخرج به الإنسان كبير، لأنه يعرف أن النقص لم يكن بسببه، فقد بذل الجهد، ولم يبخل بطاقته، ولكن الله لم يرد له في هذه الخطوة التوفيق، وقد يكون ذلك لصالحه وهو

لا يدري؛ وقد ينكشف له الأمر يوماً، فيحمد الله على ما قضى، وفي البيتين الآتيين إشارة إلى بعض هذا:

وَلَيْسَ الرِّزْقُ عَنْ طَلَبٍ حَثِيْثٍ
وَلٰكِنْ أَدْلِ دَلْوكَ فِي الدِّلَاءِ
تَجِئْكَ بِمِثْلِهَا حِيْناً وَطَوْراً
تَجِيءُ بِحَمْأَةٍ وَقَلِيْلِ مَاء[1]

وهناك قول حكيم لعمرو بن عتبة، يقول فيه:

«من لم يقدِّمه الحزم أخره العجز». [2]

ومثله القول السائر:

«وفاز باللذة الجسور».

ولا يقتصر عذر من لم ينجح في عمل، بَذَل جهده فيه، على نفسه، بل إن الناس أنفسهم

---

(١) المحاسن والاضداد: ١١٣.
(٢) المحاسن والاضداد: ١١٢.

يعذرونه؛ ورأي الناس في المجتمع مهم، لأنهم هم الذين يكونون للمرء الصورة في مجتمعه، وما يرسمونه له من صورة تؤثر تأثيراً كبيراً في حياته، وفي حياة أهله، والمرء قد يعرف نفسه، ولكن الناس ليس لهم إلا الظاهر، ولهذا يحرص الناس على ألا يُروا في مجتمعهم إلا على أحسن صورة، هذا إذا كانوا أسوياءَ في خلقهم، طبيعين في تفكيرهم، وعذر الناس للمرء العامل يرسم البيتان الآيتان له صورة صادقة، والبيتان هما:

قال عروة بن الورد؛ وقد مرت بنا من قبل، فهي صالحة هناك، وصالحة هنا:

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَطْلُبْ مَعَاشاً لِنَفْسِهِ
شَكَى الفَقْرَ أَوْ لَامَ الصَّدِيْقَ فَأَكْثَرَا
فَسِرْ فِيْ بِلَادِ اللهِ وَالْتَمِسِ الغِنَى
تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوْتَ فَتُعْذَرَا[1]

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٨٠.

وقد يضل المرء عن الطريق رغم حسن نيته وهو لا يدري، فيترك العمل اعتماداً على التوكل، وهو فهم خاطئ للتوكل؛ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أوجد الأسباب لتحصل نتائجها، والتفكير السليم هو أن يعمل الإنسان، ويتوكل على الله في عمله؛ فالله ـ سبحانه ـ يرزق الطير عندما تبحث عن رزقها، وتنقب عنه، والله قادر على أن يرزقها في أعشاشها، ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ وضع نظاماً للكون لا يختل، فجعل في طيران الطير، وفي حركتها، وفي بحثها عن الرزق، فوائد جمة، لا تحصى؛ أرأيت إنساناً يبقى في مكان واحد لا يبرحه، يؤتى له بطعامه وشرابه، وتقضى له حوائجه جميعها دون أن يتحرك، إنه سوف يمرض ويموت.

وقد وردت أقوال في هذا الرأي الخاطئ،

والنظرة المعوجة، وحذر منها العلماء والحكماء جهدهم، ونبهوا إلى الخطل فيها، ومن ذلك قول أحد الحكماء:

«قال حكيم لرجل يجلس إليه ما حرفتك؟

قال: التوكل على ربي، والثقة بما عنده.

فقال الحكيم: الثقة بربك تحرك عليك إصلاح معيشتك؟ أوما علمت أن طلب ما تعف به عن المسألة حزم، والعجز عنه فشل، والفقر مفسد للتقى، متهم للبريء، ولا يرضى به إلا الدنيء؟ وأنشد:

فَإِنْ قُلْتَ يَكْفِينِي التَوُكُّلُ وَالأَسَى
فَقَدْ يَطْلُبُ الرِّزْقَ الَّذِيْ يَتَوَكَّلُ[1]»

نعم، إن كل طالب رزق عليه أن يعمل وأن يتوكل على الله.

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٨١.

والقول الآتي فيه إيضاح للفكرة، وتبيان عميق لها؛ ولابد أن قائلها قد رأى من الناس، مما وهموا فيه، ما أقلقه، فقال هذه الكلمات الثمينة، والأفكار الرصينة، والأدلة المختارة، والآيات الكريمة.

قيل لحكيم: احذر كل الحذر أن يخدعك الشيطان، فيمثل لك التواني في التوكل، ويورثك الهوينا، بإحالتك على القدر، فإن الله أمرنا بالتوكل عند انقطاع الحيل، والتسليم للقضاء بعد الإعذار، فقال: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾[1].

وقال: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[2].

وقال عمر لرجل: ما معيشتك؟

قال: رزق الله.

فقال: لكل رزق سبب، فما سبب رزقك؟[3]

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

(٣) محاضرات الأدباء: ١٨١.

وانشغال المرء بالعمل له شقان مهمان، أولهما أنه يجلب الرزق، ويأتي بالكسب، ويؤمن حياة سعيدة للمرء، فلا يحتاج إلى منة أحد، ولا تكون لأحد عليه اليد العليا، وثانيهما أن الفراغ يوقع صاحبه في رذائل بعضها مادي، يقود إليها قرناء السوء العاطلون، والعمل يشغل الإنسان عن هذه الرذائل، ويبعد العامل عن محيط السفهاء، المتردون في أسافل الأخلاق، وقد روي عن بزرجمهر قوله:

«إن يكن الشغل محمدة، فالفراغ مفسدة».[1]

وعبر آخر عن مدح العمل، وذم الفراغ بقوله:

«الفراغ من شأن الأموات، والاشتغال من شأن الأحياء، فإن قدرت أن تكون حياً فافعل».[2]

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٨٢.

(٢) محاضرات الأدباء: ١٨٢.

وفي قول آخر جاء التحذير من الفراغ هكذا:

«أحذركم عاقبة الفراغ، فإنه شر من السكر»[1].

والله تبارك وتعالى حث الإنسان على أن يضرب في الأرض ليكسب رزقه، وهيأ على الأرض له أسباب النجاح إذا هو تحرك وطلب معاشه في أي بقعة يجد أن الله قسم له فيها الرزق، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[2].

والتهاون في الحركة لطلب الرزق وصمة يصاب بها المرء لا يدري عمقها، وبعد أثرها، إلا بعد أن يتمكن منه داء الكسل والتعاجز عن العمل، وحينئذ لا يجني من فعله العاجز إلا

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٨٢.

(٢) سورة الملك، الآية: ١٥.

أحلاماً ضائعة:

«قيل رأس العجز أن تقيم فلا تريم، وأن تخيم فلا تظعن، فمن طلب جلب، ومن نام رأى الأحلام» .[1]

والسعي للحصول على المال ليس فقط لكفاف العيش في الحاضر، ولكنه عدة للمستقبل، وما قد يأتي به من حوادث يحتاج المرء أمامها إلى ما يزيد عن بلغته، والفلاسفة يضيفون إلى هذا فائدة أخرى للمال، فائدة تلمس عزتهم وكرامتهم، وهي أن المال لا يحوجهم إلى طلب العون من غيرهم:

«قيل لأفلاطون: لم تدخر المال وأنت شيخ؟ فقال: لأن يموت الإنسان، ويخلف مالاً لعدوه، خير من أن يحتاج إلى أصدقائه في حياته» .[2]

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٨٣ .

(٢) محاضرات الأدباء: ١٨٥ .

ومثل هذا القول، بعبارة أقصر، القول الآتي:

«قيل خلف للأعداء، ولا تحتج إلى الأصدقاء». [1]

وقيل لحكيم: لم حفظت الفلاسفة ما في أيديهم؟

فقال: لئلا يقيموا أنفسهم المقام الذي لا يستحقونه، فقد علموا أن لا اتكال على ما في يد الغير». [2]

ومن الأقوال التي تنظم العمل، وتراعي النواحي النفسية فيه، ما روي عن النبي ﷺ أنه قال:

«أفضل العمل أدومه وإن قل». [3]

وهذا أمر مجرب، لأن الانتظام يأتي بنتيجة

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٨٥.

(٢) محاضرات الأدباء: ١٨٥.

(٣) المستطرف: ٢/ ٦٢، مطبعة الحلبي، ط ١٣٧١هـ.

ثابتة، يساعد عليها التعود على حالات بعينها، تقلل الجهد في التفكير، وفي التنفيذ، ولا يتطرق إلى صاحبها الملل، وهو ما أدركه الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ حين قال:

«قليل مدام عليه خير من كثير مملول».[1]

والعمل الذي يحكمه علم هو خير الأعمال، لأن صاحبه يسير فيه تحت نور مشع، يريه طريقه، فلا يضل، ولا يزل؛ ولا يضيع فيه جهد، ولا تقل فائدة، مع ثقة تامة، وعزم أكيد، لا يخالط ذلك شك، ولا يدخله تردد، وقد لاحظ ذلك أحد الحكماء، فقال:

«لا شيء أحسن من عقل زانه حلم، ومن عمل زانه علم».[2]

وتصاحب العلم مع العمل، وما يأتي منهما

---

(١) المستطرف: ٢/ ٦٢.

(٢) المستطرف: ٢/ ٦٢.

من خير لصاحبهما، أمر مؤكد، لا يغيب عن ذهن المفكر، ولا عن بصر المتدبر؛ وفرق بين من يسير في الظلام، يتحسس طريقه، ومن يمشي في النور تحت ضوء الشمس وإشعاعها، والقول الجميل الآتي يبين تلازم العلم والعمل، وما يأتي من ذلك:

«الدنيا كلها ظلمات، إلا موضع العلم، والعلم كله هباء، إلا موضع العمل، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص؛ هذا هو العمل»[1].

وهذه هي ميادين التنافس التي يطفو على سطحها أناس، ويرسب في أعماقها أناس؛ يأتي أحد المتسابقين المعلي، والآخر المصلي، (كما يقال في تعاريف درجات الفوز في السباق).

ورجحان العمل، وأهميته، وما يرى من فناء غيره، وبقاء أثره، يتمثل في قول أنس ـ رضي

---

(١) المستطرف: ٢/ ٦٢.

الله عنه ـ :

«يتبع الميت ثلاث، يرجع اثنان، ويبقى واحد:

يتبعه أهله، وماله، وعمله؛ فيرجع أهله، وماله، ولا يرجع عمله»[1].

وقصة داوود ـ عليه السلام ـ وما يروى عنه فيها، تبين أن المرء في عيب من الناس، ولوم، فإذا عمل زال عنه ذلك، وليس هناك نَبِيٌّ عاش بدون عمل، يعود عليه برزق، وقصة داوود تروى في بعض الكتب هكذا، وقد أشار إلى جانب منها القرآن الكريم:

«جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾[2].

أي دروع من الحديد، وذلك أن داوود ـ عليه

---

(١) المستطرف: ٢/ ٦٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٠.

الصلاة والسلام ـ كان يدور في الصحاري، فإذا رأى من لا يعرفه تحدث معه في أمر داوود، فإذا سمعه عابه بشيء يصلحه من نفسه، فسمع يوماً من يقول:

إني لا أجد في داوود عيباً إلا أنه يأكل من غير كسبه.

فعند ذلك صلى داوود ـ عليه الصلاة والسلام ـ في محرابه، وتضرع بين يدي الله ـ تعالى ـ وسأله أن يعلمه ما يستعين به على قوته، فعلمه الله ـ تعالى ـ صنعة الحديد، وجعله في يده كالشمع، فاحترفها، واستعان بها على أمره، وسار يحكم الدروع» .[1]

ومن الأبيات الجميلة، التي ترسم صورة لما يأتي من عدم العمل، ساقها صاحب المستطرف لهلال بن العلاء الرقّاء:

---

(١) المستطرف: ٢/ ٦٢.

«كَأَنَّ التَّوانِي أَنْكَحَ العَجْزَ بِنْتَهُ
وَسَاقَ إِلَيْهَا حِيْنَ زَوَّجَهَا مَهْرَا

فِرَاشاً وَطِيْئاً، ثُمَّ قَالَ لَهَا: اتَّكِي
فَإِنَّكُمَا لَابُدَّ أَنْ تَلِدَا الفَقْرَا»[1]

ويأتي أحد الشعراء بحجة بالغة، يستقيها من موقف من المواقف الواردة في القرآن الكريم، مشيراً إلى قوله تعالى لمريم: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[2].

يقول الشاعر:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمٰنِ فِيْ الأَمْرِ كُلِّهِ
وَلَا تَرْغَبَنْ فِي العَجْزِ يَوْماً عَنِ الطَّلَبْ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ قَالَ لِمَرْيَمٍ
وَهُزِّيْ إِلَيْكِ الجِذْعَ يُسَاقِطِ الرُّطَبْ

---

(١) المستطرف: ٢/ ٦٤.

(٢) سورة مريم، الآية: ٢٥.

فَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيَهُ مِنْ غَيْرِ هَزِّهِ
جَنَتْهُ، وَلٰكِنْ كُلُّ رِزْقٍ لَهُ سَبَبْ»[1]

هذه بعض الصور عن العمل، وهي لمحة سريعة، جاءت على بعض جوانبه، وما قيل فيها، ومن أي الزوايا نظر إليها، وهي تفتح الباب أمام من أراد الاستزادة مما في التراث، من أقوال رصينه، وأفكار منيرة.

* * *

(١) المستطرف: ٢/ ٦٤.

النصائح عقود من اللؤلؤ

كلمة النصح وحدها تدل على إخلاص القول، قد يكون ظاهراً وباطناً، أو ظاهراً فقط؛ ولكنه في كل الأحوال مفيد، لأن من أهديت له النصيحة هو في حلٍّ من قبولها، أو ردها؛ وهذا يتوقف على نظرة من نُصح إلى الناصح، عقلًا، وولاء، وإخلاصا، وتجرداً.

وبعض النصائح هي عقود من اللؤلؤ والجواهر، لأنها تأتي ممن يملك النصيحة، ويجد إعطاءها؛ ومن تلك النصائح نصيحة الأب لابنه أو ابنته، والأم لابنها أو ابنتها؛ فإذا جاءت جامعة، ونتيجة تجارب طويلة في الحياة، كان ذلك أتم لها، وأكثر فائدة.

وبعض النصائح الخاصة هي في الحقيقة نصائح عامة، لوفائها بجميع الجوانب التي

تلمس كثيراً من الناس، مهما كان سيرهم في الحياة؛ والمبني من النصائح على التجارب، وعلى مقارنة بعضها ببعض، والتدبر فيها زمناً طويلًا، والتعديل في فكرتها، والتغيير فيها، تأتي كاملة، ولا يقف نفعها عند زمن دون زمن، أو ظرف دون ظرف، أو حالة دون حالة.

وبعض الوصايا المدونة في بعض كتب الأدب هي نموذج صادق، لما تحويه بعض الوصايا من فوائد عامة، لا يستغني عنها إنسان عاقل؛ ومن هذه الوصايا المشهورة وصية الخطاب بن المعلى المخزومي لابنه، وهي وصية طويلة جامعة، وسوف نمر على أغلب ما فيها، فنرى عقل الخطاب وفكره، ومقدرته على الاستفادة من تجارب حياته، وسنجد أن له عيناً مبصرة، وأذناً سامعة، وفكراً متدبراً، ولساناً فصيحاً؛ وتبدأ النصيحة، أو الوصية كما رواها البستي

في كتابه «روضة العقلاء، ونزهة الفضلاء»، بقوله:

«أخبرني محمد بن المنذر بن سعيد، حدثنا أبو حاتم محمد بن إدريس الحنظلي، حدثني عبدالرحمن بن أبي عطيه الحمصي، عن الخطاب ابن المعلى المخزومي القرشي، أنه وعظ ابنه، فقال:[1]

«يا بني، عليك بتقوى الله وطاعته، وتجنب محارمه باتباع سنته ومعالمه، حتى تصح عيوبك، وتقر عينك؛ فإنها لا تخفى على الله خافية».

هذا بدء موفق بدأ به الخَطَّابُ وصيته، فرأْس الأمر مخافة الله، ومن خاف الله سلم من عيوب كثيرة، وحماه الله من نفسه، ومن غيرها؛ وتقوى الله وطاعته تجعله يجتنب المحارم استجابة لدعوة الدين في القرآن والسنة؛ ولم ينس أن يذكره بأن

---

(١) روضة العقلاء: ١٩٨.

الله يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، لا تخفى عليه خافية، مهما كانت صغيرة، أو مخبأة، حتى النية في القلب، وهي جنين الفكرة التي يتبعها العمل، يعلم عنها، وعما توصل إليه، أكثر مما يعرف ناويها، ومِجُنُّها.

ومسلمٌ مثلَ الخطاب يتوقع منه أن يستهل قوله بإطارٍ وافٍ من الدين، ولا أوفى من الحث على طاعة الله، والسير في ضوء ما يأمر به، وتجنب ما ينهى عنه؛ وما يأتي بعد ذلك فهو تبع له، وداخل في حيّزه.

«وإني قد وسمت لك وسماً، ووضعت لك رسماً، إن أنت حفظته، ووعيته، وعملت به، ملأت أعين الملوك، وانقاد لك به الصعلوك، ولم تزل مرتجى مشرفاً، يُحتاج إليك، ويرغب إلى ما في يديك؛ فأطع أباك، واقتصر على وصية أبيك، وفَرِّغ لذلك ذهنك، واشغل به قلبك، ولُبَّك».

انتقل إلى مقدمة الوصية بعد التمهيد، فوصف ما يجب على ابنه تجاهها، من تدبرها، والتبصر فيها، وأن لا يمر بها مر الكرام فهي ثمينة، تستحق أن يبذل فيها الجهد، وينفق فيها الوقت، وبين له فوائد السير عليها، وما سوف يجنيه من ذلك، مع الملوك والناس؛ والمكانة التي سوف يحوزها في مجتمعه عند خاصة الناس وعامتهم.

«وإياك وهذر الكلام، وكثرة الضحك والمزاح، ومهازلة الإخوان، فإن ذلك يذهب البهاء، ويوقف الشحناء».

وهذا أول بدء الوصية، وهو بدء مهم، حذره فيه من الثرثرة، وكثرة الكلام الذي لا زبدة فيه، فهذا وكثرة الضحك والمزاح، تقضي على احترام الناس له، وتوجب الجرأة عليه، والاستهانة به؛ ومثل ذلك الهزل مع الإخوان فهذا يكسر

حاجز الوقار معهم، وقد يكون فيه الزلل، الذي يوجد الفرقة والخصام.

«وعليك بالرزانة والتوقر، من غير كبر يوصف منك، ولا خيلاء تحكى عنك».

هذه الفقرة من الوصية هي نتيجة للتمسك بما جاء في الفقرة السابقة، وهي نتيجة حتمية لها؛ ولعلها الهدف الأساس لتلك؛ ومع هذا نبهه إلى أن الرزانة والتوقر يجب أن يأتيا مسامقين للطبيعة، لا تكلف فيهما، وإلا أدخلتاه في المحذور، فاتُّهم بالكبر، وظُنَّ فيه الخيلاء.

«والْق صديقك، وعدوك، بوجه الرضى، وكف الأذى؛ من غير ذلة لهم، ولا هيبة منهم».

هذه أمور خيّرة؛ فحسن المقابلة للعدو والصديق فيها كسب لنوعيهما؛ فهي للأول حق، وللثاني تكرم وتفضل، وليكن ذلك أيضاً بطريق طبيعي، لا يزيد عن المقدار، فيتصف

بصفة الذلة، والخوف منهم، ولا ينقص، فيقل المقدار.

«وكن في جميع أمورك في أوسطها، فإن خير الأمور أوساطها».

وهذا قول حكيم، يبعد المرء عن المغالاة، ويجعله في موقف أقرب إلى التوفيق منه إلى عدمه؛ ويُمكّن المرء من المتابعة، إذا كان في هذا زيادة في الخير؛ أو التراجع إذا كان الأمر خلاف ذلك، وهذا مفيد في صلة المرء بالناس، ولهذا قالوا: «أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون صديقك يوما ما»؛ ومع كل إنسان أثبتت الأيام أن هذا القول صادق وثمين.

«وقلل الكلام، وأفش السلام، وامش متمكناً قصداً، ولا تَخُطَّ برجلك، ولا تسحب ذيلك، ولا تلْوِ عنقك، ولا رداءك؛ ولا تنظر في عطفك، ولا تكثر الالتفات».

يزعجه كثرة الكلام، ولهذا أعاده هنا، وسيعيده مرة ثالثة، لأنه يشغل باله، ويقلق ذهنه، ويريد أن يؤكد، بإعادته عدة مرات، اهتمامه به، لخطره، وسوء نتائجه، أما إفشاء السلام ففضيلة كبرى في ذاتها، وفي نتائجها، فهي سنة حسنة، من أداها فله أجر، ومن تجاهلها فعليه إثم، ثم هي تقرب بين القلوب، وتحبب الناس بعضهم ببعض، وتزيل سوء التفاهم بينهم في كثير من الأحيان. ويلاحظ أن هذه الفقرة ركزت على السير وما يجب فيه، وما يوفر المروءة ولا يجرحها؛ فالسير قصداً يدل على أن الإنسان يعرف هدفه، ومتمكن من نفسه، بينما لا يكون المرء كذلك إذا أخذ يميناً، ثم يساراً، ثم عاد يميناً، وهكذا.

وأوصاه بأن ينقل رجله نقلًا كاملًا، ولا يَخُطَّ برجله الأرض، ويبدو أن هذا عيب ملاحظ في

زمنهم، ولا يعمله إلا ذو الكبر والخيلاء، أو من بقدمهم عيب يوجب ذلك، وهو لا يريده أن يفهم عنه أي من ذلك؛ وسحب الذيل من الخيلاء، وكذلك لوي العنق، والنظر في داخل الملابس، وكثرة الالتفات.

«ولا تقف على الجماعات، ولا تتخذ السوق مجلساً، ولا الحوانيت متحدثاً».

هذه الفقرة مكملة للفقرة السابقة المختصة بالمشي والأسواق، وهذه الأمور مخالفتها تجرح المروءة، وجرح المروءة رذيلة، حسب عرف المجتمع، وكان قضاة زمن العثمانيين لا يقبلون شهادة من يأكل في المطاعم، خارج بيته، أو وهو سائر، لأن هذا يحط من قدره.

«ولا تكثر المراء، ولا تنازع السفهاء».

كثرة المراء تجرح الاحترام، وتدخل الإنسان في حيز السفهاء، وهو ما أكدته الجملة الثانية،

وهذه أيضاً تجرح الفضيلة، التي أراد الخَطَّاب ابنه أن يحافظ عليها، وأن يتمسك بها.

«فإن تكلمت فاختصر، وإن مزحت فاقتصر».

عاد مرة ثالثة يحذر من إطالة الكلام، ويدعو إلى الاختصار، فخير الكلام ما قل ودل، والإطالة والتكرار يوجب الملل والنفرة.[1]

والمزاح إذا زاد عن الحد نزع الهيبة، وقد يجلب تغلث القلوب، ويتلو ذلك الجفوة، وفقد الأصدقاء، أو الجلساء، والمزاح يجب أن لا يزيد عن مقدار ملح الطعام، يُسوِّغه، ولا ينفر من طعمه.

«وإذا جلست فتربع، وتحفظ من تشبيك أصابعك، وتفقيعها، والعبث بلحيتك، وخاتمك، وذؤابة سيفك، وتخليل أسنانك، وإدخال يدك في أنفك، وكثرة طرد الذباب عنك، وكثرة التثاؤب، والتمطي، وأشباه

(١) عن كثرة الكلام، راجع «إطلالة على التراث»: ١٣/ ٣٩٩.

ذلك مما يستخفه الناس، ويغتمزون به فيك». [1]

انتهى في فقرة سابقة من الحديث عن المشي وآدابه، والآن دخل في آداب الجلوس، وما يقبله العرف في ذلك الزمن، وعماده مراعاة المروءة، وهي محورٌ تدور حوله العادات، ويتلون حسنها أو قبحها بنظرة الناس في زمن ما؛ ومثل ذلك ما كان في يوم من الأيام جرحاً للمروءة، مما يسقط في أعين الناس، فقد لا يزوجه الكرماء، وقد ينفر من مجالسته، وينزل إلى مستوى غير محمود، والجارح للمروءة هنا هو كل ما خالف العادات، وكان مما يحذر منه، ويعتبر من أكبر المنتقد من الخلق.

وفرقعة الأصابع لا تزال مما ينتقده بعض الناس، أما طرد الذباب فغريب على مجتمعنا، ولكنه ليس غريباً على مجتمعهم؛ وهم يمدحون

(١) روضة العقلاء: ١٩٨.

عالماً جلس لطلابه، فوقع ذباب على أرنبة أنفه، وآذاه أذى زائداً، وصبر عليه، حتى لا يجرح مروءته؛ والعبرة لا بما نراه اليوم، ولكن بما كانوا يرونه، والعبرة أيضاً بالوصية التي دققت إلى الحد الذي وصلت فيه إلى هذا الأمر الجانبي في نظرنا؛ أما التثاؤب فأحياناً يُغلب الإنسان عليه، خاصة إذا تثاءب أحد الحاضرين، ولكنهم يوصون بوضع اليد على الفم تخفيفاً للعيب، والتثاؤب غير ممتدح عند المسلم، لأنه دليل كسل، ولهذا فالمتثائب يقول بعد التثاؤب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ومن لم يقلها يصبح عرضة للإنتقاد.

«وليكن مجلسك هاديا، وحديثك مقسوماً، واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك، بغير إظهار عجب منك، ولا مسألة إعادة».

وهذه صورة للمجلس يتخذه المرء لنفسه،

وإطاره الهدوء، وهي الروح التي يجب أن تسود فيه، فلا يكون صاخباً، لا فرق بينه وبين سوق الحراج؛ وصاحب المجلس يجب أن يقسم حديثه بين مجالسيه، فلا يعطي التفاتاً منقطعاً لشخص، ويهمل غيره؛ فالمجالسون فيه سواء، وعدم المساواة فيها جرح، قد ينفر بسببه من أُهمل، فيفقده صاحب المجلس، هذا إذا لم يكن يقصد ذلك؛ وحق الحديث الجيد أن يصغى إليه، دون إظهار دهشة أو تعجب، إلا لما يوجب ذلك، وإلا بدا صاحب المجلس قليل العلم، يدهشه منه أقله، ويفاجأ بما لا يستحق المفاجأة، وتُحذِّر الوصية من طلب إعادة الحديث؛ لأن هذا يوحي بأحد أمرين كلاهما منتقد؛ إما أن يكون المستمع ساهياً لم يتابع الحديث، وهذا فيه رائحة عدم الاهتمام، أو الاستخفاف، أو فيه عدم الفهم، نقصاً في الذكاء والإدراك.

«وغض عن الفكاهات من المضاحك والحكايات».

هذه تأتي أحياناً صدفة، ودون أن يخطط لها، ولهذا فقد لا يمكن تلافيها، وعلى صاحب المجلس أن يتجاهلها تجاهلًا لا يجرح، ولا يشجع على الاستمرار فيها؛ لأن إظهار الإعجاب، أو حجب عدم الرضى، قد يشجع على الاستمرار في هذا الاتجاه، فيصبح المجلس مجلس مزاح، مما يزيل الهيبة، ويقضي على الوقار.

«ولا تحدث عن إعجابك بولدك، ولا جاريتك، ولا عن فرسك، ولا عن سيفك».

وهذا قد يبدو غريباً، ولكن لعل الإعجاب بالابن والجارية يقصر من اجتهادهما في تحسين نفسيهما؛ ويقفان عند حد الإعجاب الحالي، فلا يجتهدان في طلب المزيد مما يرفع قدرهما عند من أعجب بهما؛ هذا مع احتمال تقدير النفس

أكثر من قدرها، واحتقار الآخرين، بمن فيهم الوالد والسيد؛ ولعل النهي عن الإعجاب بالفرس، خوف العين، وكذلك السيف، فقد تجعلهما العين، يُقصِّران وقت الحاجة إليهما، وفي هذا من الخطر ما فيه، فقد يصل إلى الموت.

«وإياك وأحاديث الرؤيا، فإنك إن أظهرت عجبا بشيء منها طمع فيك السفهاء فولدوا لك الأحلام، واغتمزوا في عقلك».

لقد درس الخَطَّاب نفس الناس، وعرف مناطق الضعف فيها، وأماكن الوهن، فنبه إليها ابنه؛ والأحلام حقل واسع، ويركب حصانه أناس يكذبون، ويحاولون أن يصلوا عن طريق تلفيق الأحلام إلى مناهم، مستهينين بعقول بعض من يقع فريسة لهم.

«ولا تَصَنَّع تصنع المرأة، ولا تَبَذَّل تبذل العبد، ولا تهلب لحيتك، ولا تبطنها، وتوق

كثرة الحَفّ، ونتف الشيب، وكثرة الكحل، والإسراف في الدهن؛ وليكن كحلك غبا».

بعض هذه الأمور لا ندركها، ولا تعني كثيراً لأبناء زمننا، ممن لم يقرؤا عنها، أو لم يعاصروا بعض ما كان متبقياً منها، ولكنها كانت محل اهتمام القوم في ذلك الزمن، وكانت تعطي قيمة يقدر على أساسها الشخص، ووجودها كان مبنياً على ظواهر اجتماعية، تتبلور مع الزمن، يقبل منها ما يقبل، ويرفض ما يرفض، ولابد أن يكون وراء كل أمر أو نهي منطق، إلا أن مرور الزمن أضاع معالمه، وحجبها عنا، بضباب أحدثته أقدام العصور على أرض التغير والتطور؛ والرجولة تقتضي ألا يتشبه الرجل بالمرأة، ولا ينزل بمستواه إلى مستوى العبد، في ترك ما يلزم الرجل في الأناقة، وحسن الهندام، وجميل التصرف؛ والهلب

هو الشعر الخشن، وشعر ذيل الحصان يسمى هلبا مثلًا، ويبدو أن بعض الناس لا يُقرُّ وجود الشعرة الخشنة في لحيته، فيقضي عليها، مما يوجد ثغرات يأتي منها التشويه؛ ومن التشويه أيضاً في نظر الخطاب تبطين اللحية، وهو حلق ما تحت الذقن والحنك من الشعر؛ وحذر ابنه أيضاً من حف اللحية، والجور عليها، وتتبع الشيب وقلعه؛ والمغالاة في التكحل، والدهن؛ فالأمر الوسط في هذا أفضل.

«ولا تلح في الحاجات، ولا تخشع في الطلبات».

أما الالحاح في الحاجات فمدلوله مفهوم، والقول حق، لأن الإلحاح يزعج، وقد يأتي بخلاف المطلوب، لما تكون عليه الحالة النفسية لمن طلبت منه الحاجة، لمطرقة الالحاح التي أخذت تنزل على أعصابه؛ أما الخشعة في

الطلبات، فلعل المقصود هو عدم الركون للحياء، فبهذا قد يضيع حق، أو يتأخر كسب، فالطلب مفيد، ولكن الالحاح فيه مضر.

«ولا تعلم أهلك وولدك ـ فضلًا عن غيرهم ـ عدد مالك، فإنهم إن رأوه قليلًا هنت عليهم، وإن كان كثيراً لم تبلغ به رضاهم».

الناس في هذا يختلفون، والأمر يتوقف على حال الأسرة، وعلاقة بعضهم ببعض، والتربية التي نُشِّئوا عليها، والمحيط الذي عاشوا فيه؛ فقد يكون هذا الحذر نافعاً مع أسرة، ولا قيمة له مع أسرة أخرى، فهذه إن رأت قليلًا ساهمت في التوفير، والمساعدة في كسب الرزق، وإن رأت كثيراً حمدت الله، وزادت ثقتها بولي أمرها، وفرحت له بما أعطاه الله.

«وأَخِفْهُم في غير عنف، ولن لهم في غير ضعف».

هذا قول ثمين، ولكنه يحتاج فى التطبيق إلى ميزان ذهب أو جواهر، لدقة الفاصل بين جزئه الأول والثاني؛ فالإخافة تحتاج إلى فهم وإدراك للنواحي النفسية، وحسن أداء للتأديب؛ واللين يحتاج إلى وزن دقيق، حتى لا يدخل الإنسان مع أهله وبنيه إلى درجة قلة الهيبة، أو الاستهانة؛ ولكن هذا القول مفيد أن يكون أمام الإنسان مبدأ يضعه أمام عينه وهو يعامل أهله، وبنيه.

«ولا تهازل أَمَتَك».

الحقيقة أن الهزل مع أي إنسان يزيل الكلفة، ويرفع الحجب، فإذا لم يكن هذا الحال مقصوداً، فإن الهازل يكون قد وقع فيما لم يرده، ودخل إلى الخطأ بقدميه؛ والهزل مع الأَمَةِ شَرُّه مستطير، إذْ يدخل الإنسان إلى عمل إيجابي ضار، وعمل سلبي تضيع معه الفائدة، فقد يستجره الهزل مع أمته إلى عاطفة مدمرة، وإلى تراخ من الأمة

في عملها وواجبها .

«وإذا خاصمت فتوقر ، وتحفظ من جهلك ، وتجنب من عجلتك ، وتفكر في حجتك» .

هذا قول صوابه واضح ، وصدقه بيّن ، فالمخاصمة فيها أخذ ورد ، والمحاجة يؤخذ المرء فيها بما يقول ، وتُحصى عليه أقواله ؛ التي قد تكون حجة عليه ؛ ولهذا حث الخَطَّاب على التوقر ، وجزء من التوقر عفة اللسان ، ومحاذرة الزلل في القول ، والبعد عن الحديث فيما يجهله المرء ، أو يعجل في التلفظ به ، وفوق هذا على المرء أن يفكر قبل أن يقول ، وأن يدير الرأي قبل أن يتلفظ ، فليس أقرب إلى الزلل من أن يسبق القول الفكر .

«وأَرِ الحاكم شيئاً من حلمك» .

هذا باب من الأدب واسع ، أجمله الخطاب في هذه الكلمة ، فالإنسان عند مقابلته للحاكم

عليه أن يكون حليماً، ولا يستفزه قول، ولا يخرجه عن صوابه ما قد يُقابل به في مجلس الحكم، مما قد يفاجأ به مما لا تقبله نفسه، والحاكم هنا لا يقصد به الحاكم المنفذ فقط، ولكنه أيضاً يعني القاضي، ومجلسه يحتاج إلى حلم وأناه، لأنهما يساعدانه في إيجاد جَوٍّ رضىً يعود عليه بالنفع؛ والحاكم بشر، ولحم ودم، يرضيه القول اللين، والتسامح الظاهر، وتقلقه المناكفة، والتعالي، ورفع المرء نفسه فوق محلها، فإن لم يَضرّ، أمسك نفعه، وكثيراً ما قُلِب مجلس القضاء بسبب أحد الخصوم إلى جو عابس، أقل ما يراه القاضي تجاهه، إرجاء تكملة النظر في القضية، أو الحكم فيها حكماً مشوشاً، لأن الجو لا يساعد على التفكير السليم؛ وإذا لم يكن المرء حليماً أمام القاضي تجاهه، وتجاه خصمه، فقد يتلفظ بما يكون جرماً أكبر من الجرم الذي استدعي

من أجله.

ومادام الأمر في مجلس الحكم أو القضاء فللأدب فيه تكملة، يقول الخطاب فيها:

«ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا تحفز على ركبتيك، وتوق حمرة الوجه، وعرق الجبين، وإن سُفِهَ عليك فاحلم، وإذا هدأ غضبك فتكلم».

هذه كلها أمور تضيف إلى الوقار، وإلى إظهار المرء بالمظهر اللائق في هذا المقام الخطير، فكثرة الإشارة لا تدل على رزانة، والجلسة غير السوية دليل على عدم احترام المجلس ومن فيه؛ أما حمرة الوجه فقد لا يكون بيد الإنسان تفاديها، إلا إذا تفادى أسبابها، وعود نفسه على ذلك، ومثلها عرق الجبين؛ ويؤكد الموصي على الحلم أمام السفه، فقد يحتد الحاكم أو القاضي، فيجب عليك أن لا تزيد النار اشتعالاً، وترمي

فيها بحطب جزل، يزيد لهبها، فتحرق من حولها، بما فيهم أنت، بل صب عليها ذنوباً من ماء، وبقدر ما تكون هادئاً حليماً تكسب ما لا تكسبه بالغضب، أو عدم السيطرة على النفس؛ وفي الوقت متسع بعد أن يهدأ الأمر أن تتكلم، وتفصح عما يفيدك، في ضوء اجتلابك لرضى الآخرين.

«وأكرم عرضك، وألق الفضول عنك».

إكرام العرض إبعاده عما يدنسه، بفعل منك، أو بتشجيع الآخرين على ذلك، بأن تمس أعراضهم، فيمسوا عرضك؛ والفضول لا يأتي بخير، وعليك بما يسد الحاجة، ولا يزيد عليها، عملاً كان ذلك، أو قولاً؛ فالزيادة قد يكون ضررها مثل النقص، إذا لم تكن في محلها.

«وإن قرّبك سلطان فكن منه على حد السنان، وإن استرسل إليك، فلا تأمن من انقلابه عليك،

وارفق به رفقك بالصبي، وكَلِّمه بما يشتهي، ولا يحملنك ما ترى من إلطافه إياك، وخاصته بك، أن تدخل بينه وبين أحد من ولده وحشمه، وإن كان لذلك منك مستمعاً، وللقول منك مطيعاً، فإن سقطة الداخل بين الملك وأهله صرعة لا تنهض، وزلة لا تقال».

يتحدث الخطاب وفي ذهنه الخلفاء في زمنه، وقبل زمنه، وفي ذهنه أيضاً بلاطهم وحاشيتهم، وجلساؤهم، وعمالهم ووزراؤهم؛ ويأخذ من الحوادث التي وقعت في ذلك الزمن دروساً يلقنها ابنه فيما لو قدر الله له أن يكون في موقف يقتضيه أن يصحب الخليفة، أو يعمل له، أو يكون من جلسائه، أو الداخلين عليه.

وعموماً أوصى ابنه أن يعامل السلطان معاملة تختلف عن معاملته لأمثاله هو من الناس؛ فالسلطان موقفه يختلف، والحذر من

رفع الكلفة معه واجب، فما يدري المرء متى تأتي الزلة التي تغضب السلطان دون قصد، ولهذا فالحذر في القول والفعل مطلوب، حتى لو بدا من السلطان ما يشجع على رفع الكلفة، فيجب أن يقابل هذا بحذر، لأن رفع الكلفة فيه مزالق قد لا تحمد عقباها؛ وحذر من الدخول بينه وبين أهله، أو ولده، أو حاشيته، فإن هؤلاء في النهاية أعز عنده منك، وإن أبدى أنه يستمع لما تقوله فيهم، فقد يكون هذا استدراجاً لك، ليتأكد من فِكْرٍ وَصَلَهُ عنك، أو نميمة بُلغت له؛ فأنت تتمادى على عمى في طريق فتحه لك، ورَصَدٍ أقامه لك، وفخ يحدوك إليه؛ وكان بلاط الخليفة عرضة للإيقاع بين من يخالطون الخليفة، وكم راح أناس نتيجة الدسائس، والأكاذيب؛ والعصر العباسي مليء بالمصائب التي حلت بمن كانوا في أعلى السلطة،

فَجُوزوا بأشنع الجزاء؛ وبعضهم كان ضحية التآمر أو الظن. لهذا لا يتعجب المرء أن يركز الخَطّاب في وصيته على هذا الجانب، وكأنه يقول لابنه إن النجاة في الابتعاد عن السلطان.

«وإذا وعدت فحقق، وإذا حدثت فاصدق». [1]

هذه مزارع الثقة عند الناس، لأن الوعد عهد، فإذا لم يف المرء بما وعد به، فلا ثقة في أي قول يقوله بعد ذلك، ولا يصدق في أي حديث يتحدث به.

«ولا تجهر بمنطقك كمنازع الأصم، ولا تخافت به كتخافت الأخرس».

هذه وصية تتصل بتهيئة الجو للاستماع للقول، ومن تعرض في يوم من الأيام لبعض من يرفعون أصواتهم، وهم بين يديك، تسمع قولهم ولو كان همساً، أو بعض من يهمسون

---

(١) روضة العقلاء: ١٩٩.

حتى لا تكاد تعرف ما يقولون، لعرف مقدار المعاناة في مثل هذه المواقف؛ وهناك نوع ثالث من المتكلمين، يرفع صوته ببعض الكلمات إلى مرتبة الصراخ، ثم يخفضه إلى حد الهمس الذي لا يسمع، وإنما ترى فيه حركة الشفاه، وهذا أسوأ الثلاثة؛ والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ .[1]

ولعل هذه الآية هي التي أوحت إلى الخطاب بهذه الجملة من الوصية.

«وتخير محاسن القول بالحديث المقبول، وإذا حدثت بسماع فانسبه إلى أهله، وإياك (و) الأحاديث العابرة المشنعة، التي تنكرها القلوب، وتقف لها الجلود؛ وإياك ومضعف الكلام مثل: نعم نعم، ولا لا، وعجل عجل، وما أشبه

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

ذلك» .

جميل أن نطل على عادات القوم في ذلك الزمن، ونعرف مدرج عاداتهم وتقاليدهم، وما يحكم الأمور بينهم، وما يرونه جائزاً، وما يرونه غير ذلك؛ وبعض ما يوصي به الخطاب غريب علينا، ولكن من السهل أن نحدس ما يكمن وراءهُ بالنسبة لهم؛ فلا غرابة أن يطلب من ابنه أن يتخير محاسن القول في الحديث، ليقبل، وأن يجعل لما يرويه قيمة بإعطاء مصدره، وسلسلة رواته، وأن يبتعد عن الأخبار الشاذة المزعجة، كالقتل مع التمثيل بالمقتول، وقتل الأطفال والنساء، وتعذيب الحيوان، وبشاعة حروق الناس، وموت الغرق، ومصائب الجنون، وفظائع الجن، وبلاء الشياطين؛ ولكننا نقف قليلًا أمام تكرار بعض الألفاظ مثل نعم نعم، ولا لا، ولعل ما جفل الخطاب منها أن الواحدة

تكفي، والزيادة مثل النقص، وقد تؤول بعدم إصغاء المتحدث أو المستمع، وغفلته، مما يجرح الشعور.

«وإذا توضأت فأجد عرك كفيك، وليكن وضعك الحرض من الإشنان في فيك كفعلك بالسواك، ولا تتنخع في الطِّسْت، وليكن طرحك الماء من فيك مترسلًا، ولا تمج فتنضح على أقرب جلسائك».

هذا جانب مهم من جوانب الحياة اليومية، يخص النظافة، والتبلغ بالماء، وطريقة تنظيف الفم بالإشنان، وهو خدن الصابون، في ذلك الزمن؛ وحذر من التنخع «التنخم» في طست الغسيل، فبجانب القذارة في الصوت، هناك بشاعة في المنظر؛ ولم ينس أن ينبه إلى طريقة طرح الماء من الفم بعد المضمضة، وأن يكون نزوله من الفم مسترسلًا، كما ينزل من الصنبور،

لا يدفع بقوة، فيأتي رذاذه على من حوله، ممن ينتظر دوره ليغسل يديه وفمه.

«ولا تعض نصف اللقمة، ثم تعيد ما بقي منها منصبغاً، فإن ذلك مكروه؛ ولا تكثر الاستسقاء على مائدة الملك، ولا تعبث بالمشاش، ولا تَعِب شيئاً، مما يقرب إليك على مائدة، بِقِلَّةٍ: خَلّ أو تابل أو عسل، فإن السحابة قد صيرت لنفسها مهابة».

وقد دخل في وصيته إلى آداب المائدة، مما يحسن تفاديه، فعض نصف اللقمة، ثم غمسها مرة أخرى في الإدام، أمر يقزز النفس، وكثرة طلب الماء مستهجن؛ والماء وجوده على المائدة هو لمساعدة الآكل إذا غص، وإلا فالشرب على الأكل لا ينصح به؛ وأهل نجد يقولون عن الماء على المائدة: «إنه الدية»، أي أن الداعي إذا أوجد الماء على السفرة، ومات أحد الآكلين

غاصا، فإنه لا دية له، مادام الماء كان موجوداً، وهذه فكرة طريفة! هذا التحذير من كثرة الشرب على سفرة الملك، ولكن هذا يشمل غيرها، لا لأجل الاحترام كما هو في ذهن الموصي، ولكن مراعاة لما يتطلبه العلم الحديث الخاص بالتغذية والصحة.

ونهى الخطاب عن العبث بالعظام، و «عرمشتها»، واستخراج مخها، فهذا منتقد، لأن الحركات اللازمة لهذا تلفت النظر، والعمل نفسه يملأ اليدين والوجه بالدسم؛ ويحدث في تقاطيع الوجه صوراً مضحكة. وحذر من انتقاد ما على السفرة من توابل، كأن يبدي عليها ملاحظة أنها قليلة، ومتباعدة، وأنهى الوصية بجملة غير واضحة، وهي أن السحابة قد صيرت لنفسها مهابة، فإما أن يكون في الجملة تحريف، أو قبلها سقط، أو إذا تكلفنا لها

معنى، فهي أن السحابة على بعدها، وقلة ما قد يأتي منها يكفي النظر إليها لتملأ النفس مهابة؛ ومعنى هذا أن الخل، والتوابل، والعسل، لا يقصد بها الاشباع، وإنما الاستلطاف.

«ولا تمسك إمساك المثبور، ولا تبذر تبذير السفيه المغرور، واعرف في مالك واجب الحقوق، وحرمة الصديق».

ثم انتقل إلى المال، وما يجب فيه، فنهى عن البخل الذي يجعل اليد كأنها مغلولة، وعن الإسراف الذي يدل على السفه؛ وفي المال حقوق يجب أن تراعى، وتصرف لمن له حق فيها، وللصديق حرمة، يجب أن تراعى، ولا تهمل، ويجب أن يتحرى عن حاجته، وسدّ عوزه.

«واستغن عن الناس يحتاجوا إليك، واعلم أن الجشع يدعو إلى الطبع، والرغبة ـ كما قيل ـ تدق الرقبة؛ ورب أكلة تمنع أكلات، والتعفف

مال جسيم، وخلق كريم».

والإستغناء عن الناس نعمة، والجشع نقمة، لأنه يعود الإنسان عادات خسيسة، ومتى ما أعطى الإنسان نفسه هواها قادته إلى الهلاك، وقد يأكل المرء أكلة يبشم منها، فيمرض، فيحرم بسبب ذلك من عدة وجبات؛ ومن عف اغتنى بذلك عن المال وذله.

«ومعرفة الرجل قدره، تشرف ذكره؛ ومن تعدّى القدر، هوى في بعيد القعر».

رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه، فوقف عند هذا القدر، ولم يتعده، وبهذا يكون له ذكر حسن، أما من رفع نفسه فوق قدرها أنزله الناس إلى درجات دنيا، هم يختارونها له؛ ومن ناطح طبيعة الأمور، كسر قرنه، وسالت دماؤه.

«والصدق زين، والكذب شين؛ ولصدق يسرع عطب صاحبه، أحسن عاقبة من كذب

يسلم عليه قائله».

والصدق محمود في كل الأديان، وعند كل المفكرين والحكماء، وفيه النجاة، وبه الفخر والاعتزاز، حتى لو تعرض الإنسان من أجله للأذى، لأن فيه رضى النفس، وراحة الذهن، وملء الصدر بالثقة؛ والشعور بقوة الإرادة، والتميز على الآخرين.

«ومعاداة الحليم خير من مصادقة الأحمق، ولزوم الكريم على الهوان خير من صحبة اللئيم على الإحسان».

الحليم عاقل قد لا يلحق بك ضرراً على الابتعاد عنه، والنفرة منه، ويرى في ذلك راحة له ولك، ولكن المصيبة الطامة هي في مصادقة الأحمق، الذي لا تدري متى يجلب لك الأذى، ويلحق بك السوء؛ والحليم الكريم، وإن شاب لزومك له بعض ما لا يريح، فهذا خير من

صحبة اللئيم، وإن جاء منه خير.

«ولقرب ملك جواد، خير من مجاورة بحر طراد».

هذه الجملة لم يتبين لي فيها حكمة، إلا إذا كان هناك سقط أو تحريف.

«وزوجة السوء الداء العضال، ونكاح العجوز يذهب بماء الوجه، وطاعة النساء تزري بالعقلاء».

يبدو أن هذه الجمل مضافة فيما بعد لأصل الوصية، لأن لا مكان لها هنا، خاصة وأن الحديث عن الزوجة سوف يأتي لاحقاً فيما بعد هذا، وهو أقرب إلى القبول.

«تشبه بأهل العقل تكن منهم، وتصنع للشرف تدركه». [1]

---

(١) روضة العقلاء: ٢٠٠.

إذا تشبه المرء بأهل العقل تصنعاً في أول الأمر، فإنه يتعود على عاداتهم الكريمة، وأخلاقهم العالية، فيأتي ذلك منه، مع الزمن، طبيعة وسليقة؛ وقد قيل:

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تكُونُوا مِثْلَهُم
إِنَّ التَشَبُّـهَ بِـالـرِّجَـالِ فَـلَاحُ

ومثل ذلك الشرف، والتمثل به تصنعاً، لابد أن تدرك المتمثل عدوى الشرف الطيبة.

«واعلم أن كل امرئ حيث وضع نفسه، وإنما ينسب الصانع إلى صنعته، والمرء يعرف بقرينه، وإياك وإخوان السوء، فإنهم يخونون من رافقهم، ويحزنون من صادقهم، وقربهم أعدى من الجرب، ورفضهم من استكمال الأدب، واستخفار المستجير لؤم، والعجلة شؤم، وسوء التدبير وهن».

وهذه نصيحة فيها بعض العموم، وتؤكد

بعض ما مر، وتجعل أمر المرء في يده، فهو يضع نفسه حيث اختار، ثم يحكمه هذا الاختيار، ويلون حياته بلونه؛ والقرين بالمقارن يقتدي، وبه يتأثر، ويلحق سمعة هذا ما عليه ذاك من خلق، إن حسن فحسن، وإن قبيح فقبيح؛ ولهذا على الإنسان أن يحسن الاختيار فيبتعد عن قرناء السوء، خاصة أولئك الذين تلطخت سمعتهم، ولم يبق مزيد عليها، فقد تكسرت النصال على النصال، ولم يعد يهمهم أي عيب يرتكبونه، فلم يبق للناس قول سيء في صاحبه لم يقولوه؛ أما صاحب الصفحة البيضاء، فأي دنس خلقي يتعرض له يتضح، ويتبين للناس؛ وأقل قول فيه يؤلم ويؤذي.

وأحياناً يأتي شك في بعض الجمل، يشعر القارئ المتبصر أنها مضافة، لأنها لا تأتي بمعنى قيم، ويكاد يكون السجع هو المقصود منها،

مثل جملة: «ورفضهم من استكمال الأدب»، وجملة: «والعجلة شؤم»، وكلمة: «سوء التدبير وهن» لا مكان لها هنا إلا إذا كان القصد هو التقصير في اختيار القرين، أو الصديق، وهذا مستبعد.

«والإخوان اثنان: فمحافظ عليك عند البلاء، وصديق لك في الرخاء؛ فاحفظ صديق البلاء، وتجنب صديق العافية، فإنهم (كذا) أعدى الأعداء».

وهذه قاعدة ثابتة، في أنه ليس كل من أظهر الصداقة صديق، ولا يكشف عمق الصداقة، وإخلاصها، إلا التعرض للمحن، فهي المحك، وهي التي تنفي القذى، ولا تبقي إلا الصافي.

«ومن اتبع الهوى مال به الردى، ولا يعجبنك الجهم من الرجال، ولا تحقر ضئيلًا كالخلال، فإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه؛ ولا ينتفع

به بأكثر من أصغريه».

ولاشك أن اتباع الهوى، وإهمال ما يمليه العقل، مجلبة للخلل، ومعقبة للندم؛ فالعقل يهدي والهوى يضل؛ والهوى أحياناً تقوده العاطفة؛ والعاطفة إذا ألجمت بلجام، وأحسن قبضها، والتصرف بها، جاء منها نفع؛ أما إذا لم تلجم، فإنها تقود إلى الضلال، وتردي في الهاوية.

والحياة فيها من المظاهر ما قد يضر، فعلى الإنسان أن لا تغره المظاهر، ولابد له من الغوص إلى البواطن؛ فمنظر إنسان ضخم الجسم، جهم الكيان، قد يرجح عليه صغير الجسم، نابه القلب، فصيح اللسان؛ أما جملة: «ولا ينتفع به بأكثر من أصغريه» فيبدو أنها مضافة إضافة متأخرة للشرح، ولهذا فهي زائدة.

«وتوق الفساد، وإن كنت في بلاد الأعادي، ولا تفرش عرضك لمن دونك، ولا تجعل مالك أكثر عليك من عرضك؛ ولا تكثر الكلام، فتثقل على الأقوام، وامنح البشر جليسك، والقبول من لاقاك».

البعد عن الفساد غنيمة، وعدم التلوث به رجولة، وعلى المرء الصالح أن يجعل ذلك عن إيمان ويقين، وأن يأخذه مبدءاً ثابتاً مبرراً، مقتنعاً به، لا أن يكون مراعاة للناس، فإذا أمنهم فسد، سواء كان ذلك سراً، أو كان في بلاد غريبة لا يراه من يعرفه؛ لأن البعد عن الفساد، على أساس عقيدة، فيه رضى داخلي، عميق في النفس، يشع فيها السعادة والبهجة.

وعلى المرء أن يوفر عِرضه خاصة على من هو دونه، لأن في مخالفته هذا رذيلتين، رذيلة تعريض العرض للذم، وكون ذلك ممن هو في

موقع متدن، فيزيد المرء بهذا الطين بلة، وقد سبق أن أشار الموصي إلى شيء من هذا، وذكرنا أن من الأمور التي تجلب مس العرض، بدء الناس بما يسيء إلى عرضهم، فيكيلون الصاع صاعين.

ويهتم الموصي بالعِرْض، ويؤكد أهميته، ووجوب تقديم صيانته على المحافظة على المال، فالعِرْض مثل الزجاجة كسرها لا يجبر، أما المال فيعوض، وعدمه لا يترك ندوباً في النفس.

ويعود الموصي إلى الحديث عن تقليل الكلام، وهو قول معاد معناه، مما يوحي بأحد أمرين: إما أن يكون تكرار ذلك عائداً إلى اهتمام الموصي بهذا الجانب، أو أن هذه الجمل المكررة، عن هذا الأمر، مضافة فيما بعد؛ وقد أضاف هنا إلى سبب التحذير من الكلام الكثير موجبه،

وهو أن المكثر يثقل على المستمعين، فيضيقون به ذرعاً، ويتفادون مجالسته، أو مخالطته؛ وفي هذا المجال ينصح أيضاً بتلقي الجليس بالبشر، والقبول.

«وإياك وكثرة التبريق والتزليق، فإن ظاهر ذلك ينسب إلى التأنيث، وإياك والتصنع لمغازلة النساء، وكن متقرباً، متعززاً، منتهزاً في فرصتك، رفيقاً في حاجتك، متثبتاً في حملتك، والبس لكل دهر ثيابه، ومع كل قوم شكلهم».

هذا المقطع من الوصية يرمي إلى كمال الرجولة، بالابتعاد عن التشبه بالمرأة، في الملبس، أو الحركات، أو السير.

ثم يأتي بأمر عام يدعو فيه إلى التقرب، والتعزز، ولعل القصد التقرب من الناس، وعدم التذلل، مع انتهاز للفرصة إذا سنحت، وعدم إضاعتها، فما ذهب قد لا يعود؛ وعندما

يكون للمرء حاجة عند أحد فعليه بالرفق، لضمان الحصول على البغية، ومن مسببات النجاح أن يخطط المرء لما سيقول عند الطلب، ويعيد الأمر في ذهنه؛ ويضع نفسه محل الآخرين، فيرى مدى وقع ما يقول عليهم؛ وأن يكون متثبتاً مما يتقدم له، لا يأتي وهو شاك، أو غير متأكد، فهذا قد يوقعه في حرج، ويضيع عليه هدفه اليوم، ويصمه بالتسرع في المستقبل.

وعلى المرء أن يكون مرناً، يلبس لكل موقفٍ لباساً، ولا يكون آلة، تسير في اتجاه واحد لا تُخْلفه؛ لأن لكل أمر معالجة تختص به؛ ولكل أناس معاملة تتناسب معهم، وخلط الأوراق ـ كما يقال ـ يضيع كثيراً من الأمور، ويأتي بخلاف النتيجة المطلوبة.

«واحذر ما يُلزمك اللائمة في آخرتك، ولا تعجل في أمر حتى تنظر في عاقبته، ولا ترد

حتى ترى وجه الصدر» .

هنا يؤكد على حق الآخرة، وأن لا يضيع في خضم متطلبات الحياة؛ وأردف أمراً منفصلاً عن ذلك وهو التفكير في عاقبة العمل قبل الإقدام عليه، فقد يكون الدخول في أمر سهل، ولكن الخروج منه صعب، فالحكمة تقتضي التنبه لهذا، وهو ما يقتضيه العقل .

ثم دخل في أمر خاص جداً، يتصل بالنظافة الجسمية، وأرشد إلى المواد التي تستعمل لشيء، ولا تستعمل لآخر، وهذا فيما يخص الشعر في مختلف أجزاء الجسم التي تقتضي السنة حلاقتها، ومراعاة ذلك في أوقاتها فقال :

«وعليك بالنورة في كل شهر مرة، وإياك وحلاق الإبط بالنورة» .

ثم ينتقل إلى أجزاء أخرى من البدن، لها حق في النظافة المستمرة؛ فَشَرَح الطريقة بتفصيل

واف، ويقول في ذلك:

«وليكن السواك من طبيعتك، وإذا استكت فعرضاً».

والسواك عرضاً متفق عليه في زمنهم، ولكنه في زمننا غير مقبول عند الأطباء، فهم ينصحون باستعمال الفرشة طولاً.

وينتقل الموصي فجأة إلى موضوع بعيد عن نظافة الجسم والفم، ولعل السبب في هذا أنه كان كلما عن له أمر سجله، فالترتيب جاء حسب طروء الفكرة، دون مراعاة لتناسق المواضيع، أو أن هناك إضافات من الرواة تزاد هنا وهناك، دون تنبه لنبوها عن مكانها؛ وقد انتقل المؤلف إلى العمارة فجأة، وما يصلح مُلْكاً، فقال:

«وعليك بالعمارة، فإنها أنفع التجارة، وعلاج الزرع خير من اقتناء الضرع».

وقد أضعف السجع هذه التوصية في لغتها؛ وإن كان المعنى واضحاً، فهو يوصي ابنه بأن تكون تجارته في المباني وفي المزارع، مع الابتعاد عن تجارة المواشي؛ وقد اتفق مع من قال من معاصرينا لابنه: «إجعل مالك فيما لا يأكل ولا يشرب»؛ فالدواب تأكل، والمزارع تشرب، وكلاهما في أكله وشربه معرض لتقلبات الزمن من قحط ومرض؛ ولكن الاتفاق بينهما لم يكن كاملًا، وإنما كان في نصف الفكرة؛ ولعل الخطاب كان في مكان قريب من نهر لا ينضب، فالقحط ونقص الماء مأمون عنده.

«ومنازعتك اللئيم تطمعه فيك، ومن أكرم عرضه أكرمه الناس».

وهذه فكرة مكررة في جزأيها، فالدخول في نزاع مع اللئيم تجرؤه، لأنه يكسب منه، ولا خسارة عليه، وأنت خلاف ذلك؛ وقد جاء

بالالتفات إلى العرض بمعنى سبق أن طرقه، ولكن بصيغة أخرى؛ ؛ فهل يا ترى هذا تأكيد، أو نسيان منه، أو إضافة من الراوي؟!

«وذم الجاهل إياك، أفضل من ثنائه عليك». [1]

هذه وما بعدها من الوصايا، القصيرة، الثمينة، المنفصل بعضها عن بعض، جاءت متراصة مزدحمة؛ فهل هي بقايا جمعت، وألقى بها كما هي، أو هي كذلك اجتهادات رواة أدلوا بدلوهم، وربما رجوا ثواب الله في هذه الإضافة؟ الله أعلم.

والجملة التي مرت رصينة وصادقة، ولا تحتاج إلى تعليق.

«ومعرفة الحق من أخلاق الصدق».

لأن الصادق تعود أن يبحث عن الحق،

---

(١) روضة العقلاء: ٢٠١.

فالحق والصدق أمران متداخلان متساندان.

«والرفيق الصالح ابن عم».

«بل إنه أخ أحياناً، لأن تصرفه لصالح من يرافق، سواء جاء التصرف مقصوداً، أو عفواً؛ والقريب يتوقع منه أن يسعى لصالح قريبه، ومادام الرفيق بهذه الصفة فقد انتقل بها إلى أن يكون فرداً من الأسرة.

«ومن أَيْسَرَ أُكبِرَ، ومن افتقر احتقر».

هذا مثل صادق في كثير من الأحوال، ولعل الإكبار للموسر آت من مقدرته على مساعدة المحتاج، أو الأمل فيه أن يكون كذلك عند الحاجة، وخلاف ذلك الفقير الذي قد يكون عبأ على مجتمعه، في احتياجه إلى أفراده، وعدم مقدرته على تقديم شيء لمحيطه.

«قصر في المقالة، مخافة الإجابة».

عاد الموصي مرة أخرى إلى فكرة اختصار الكلام، والجزء الثاني إما أن يكون فيه تحريف، وأن طول المقالة يوجب الملل، والنفرة؛ أو أن المقصود أن في إطالة الكلام ما يعطي السامع فرصة لتلمس مواقع الزلل التي بها يرد على المتكلم.

«والساعي بك غالب عليك».

لأن الساعي يعمل في الخفاء، وأنت غافل، وهو يخطط بدقة، وينتهز الفرص، ليبني صرح الوقيعة لبنة لبنة، وأنت لا تدري، أنت غافل، وهو جاد في حفر حفر العثرة لك؛ ولهذا يغلب، وقد تلف أناس كثيرون، نتيجة مثل هذه الأمور، وقصة المملوك الذي حذر بائعُهُ مشتريَه، بأنه يكذب في السنة كذبة واحدة، فاستهان المشتري بأمر هذه الكذبة؛ فلما جاء موعد الكذبة قال المملوك لسيده:

إن زوجتك تخونك، وأنها قررت قتلك الليلة، وسيكون سلاحها مقصاً تخفيه تحت «الوسادة» ؛ وجاء للزوجة، وقال إن زوجك يحب غيرك، ولا ينفعك في التخلص من هذا الحب إلا السحر، فأتيني بعدد من الشعرات من أسفل ذقنه ؛ فاستعدت لذلك، ولما قربت المقص من حلق زوجها، أمسك بيدها، وقتلها بسلاحها، ولنا أن نتصور حاله، وحال أهلها.

عندما كشف المملوك أن هذه كذبته السنوية، إنه سعى وغلب، لغفلة الزوجة والزوج عن حقيقة سعيه.

«وطول السفر ملالة، وكثرة المنى ضلالة».

مجاورة هاتين الجملتين اقتضاهما السجع، وإلا فالفكرتان متباعدتان، ولكنهما صادقتان فيما ترميان إليه، خاصة السفر في تلك الأيام.

وسيطرة السجع، وتصرفه في تجاور الجمل

المتباعدة لا يقتصر على هاتين الجملتين، بل يتعداهما إلى ما بعدهما.

«وليس للغائب صديق، ولا على الميت شفيق».

والسجع هنا جمع بين أمرين متباعدين؛ ويقابل القول الأول القول الشعبي المشهور: «من غاب عن العين غاب عن القلب».

ولاشك أن مُراعاة الحاضر تزيد عن مراعاة من هو غائب، لأن الحاضر يرى، فيناقش، أما الغائب فلا يرى، وعلى هذا فغالباً لا يكون عنده أساس لمعرفة ما حدث؛ وغيابه يقلل من رعاية الآخرين لأموره؛ وفي هذا أيضاً مثل شعبي يقول: «من غاب عن عنزه جاءت بتيس»، على أساس أن السخلة أثمن من التيس.

ويحضرني مع ذكر التيس قصة صديقين، أحدهما يملك عنزاً حبلى «دافع»، وكان ينوي

السفر، ويريد أن يودعها عند أحد أصدقائه، فوقع اختياره على صديق له أولاد متعددون، وليس له بنات، فحذره هذا أن يضع العنز عنده، فغالباً تأتي بتيس، قياساً على حاله هو، ولكن صاحبه طمأنه أن عنزه عودته أنها تلد إناثاً، وسافر الصديق وترك العنز عند أبي الأولاد، فجاءت العنز بتوأم، تيسين!

أما قوله «ولا على الميت شفيق»، فقد يعني أن الحزن على الميت يبهت مع الزمن، فيقل الحزن عليه، وقد تقل رعاية ورثته وماله؛ وقد يكون القصد أنه لا يحس، فحمله، ووضعه، لا يحتاج إلى تمهل ورأفة؛ ولعل السجعة هي الأساس في الجملة وليس المعنى.

«وأدب الشيخ عناء، وتأديب الغلام شقاء».

وهذا جانب يلمس تجربة صادقة، فالشيخ، وقد كبر يصعب تغيير طباعه، أو تعديل عاداته،

أو إقناعه بغير أفكاره، لأن عوده في هذه الأمور قد يبس، ولا فائدة من محاولة حنيه، أو تشكيله بغير الشكل الذي هو عليه.

والغلام، وهو على الفطرة، يحتاج إلى وقت طويل، وتنبه مستديم، وملاحظة دقيقة، لا يأتي المقصود معه إلا بالتكرار، وتجربة طرق مختلفة، وتبديل هذه الطرق بين آن وآخر، حسب نمو الغلام، وتقدم سنه.

«والفاحش أمير، والوقاح وزير».

والسجع يقود الموصي برسن قوي، لا يستطيع مقاومته، حتى لو اقتسر المعنى، أو أبهم المدلول؛ وإلا فالأمير لا يلزمه أن يكون فاحشاً، والفحش لا يجعل من الإنسان أميراً، إلا إذا كان في ذهنه، أن الفحش هو الحزم، والقوة، والسيطرة، فقد يقبل هذا على أنه من لوازم نجاح تنفيذ الأعمال.

والوقاحة هي قلة الأدب، وعدم الحياء، ولعلها تناسب زمن الموصي، عندما كان الوزير هو السلطان الثاني، في دول ذلك الزمن؛ وما لم يكن الوزير وقحاً أمام الناس، أكلوه استضعافاً، واستهانة. ومع هذا فالسجع لا يعفي من الملامة في عدم التأكد من مرمى الجملة.

«والحليم مطية الأحمق، والحمق داء لا شفاء له، والحلم خير وزير».

هذا قول فيه جانب من الصدق، فالحلم قد يشجع الأحمق على الاستهانة بالحليم، وإحراجه، وإزعاجه، وتكرير ذلك اعتماداً على سعة بال الحليم، وجهلاً بمدى أذى الأحمق للناس.

والحمق كما قال النص داء لا شفاء له، لأنه في طبيعة المرء، وليس في تطبعه، لأن تغيير الطبيعة صعب، خلاف تغيير التطبع، فالتطبع يمكن أن يمحى، ويحل محله تطبع آخر، وبدل

الصفة صفة أخرى.

أما قوله: والحلم خير وزير، فقد يبدو مناقضاً لما قاله عن وقاحة الوزير، في الجملة السابقة؛ إلا أن المقصود هنا: أن الحلم خير معضد ومعين لصاحبه، لأنه يكفيه المشاكل، ويجنبه نتائج الحمق الذي يقع فيه صاحبه؛ لأن كثيراً من الأمور تنتهي في وقتها إذا قوبلت بالحلم؛ وتسلم من التعقيد.

«والدين أزين الأمور».

هذا سراج من الحقيقة وهاج، لا يتطرق إليه الشك، ولا يعتريه الضعف؛ يؤكده العقل، وتعضده التجربة، من آمن به سعد، ومن لم يؤمن به شقي؛ هو عماد السعادة، وحجر الزاوية في الحياة، والوسيلة إلى التقرب في أمور الآخرة، عرفته الأمم في أجيال سابقة، ولاتزال العقول النيرة، والقلوب السليمة، تأخذه منهجاً

ونبراساً.

«والسماجة سفاهة».

والسماجة صفة معنوية، تنطوي عليها أفعال منتقدة، فكل ما جانب العقل، وخالف العادات الحسنة، وشذ عن المألوف، ففيه سماجة، وسفيه من يقدم على ذلك طائعاً مختاراً؛ وعقله ناقص، وإدراكه معتل.

«والسكران شيطان، وكلامه هذيان».

ولا أدري لماذا اختار هذا الوصف للسكر، إلا إذا كان وصفاً لنتائجه، وما يأتي منه من تصرف، لا يعقل صاحبه مدى أذاه، كأن يقدم على قتل، أو طلاق، أو سرقة، أو ما إلى ذلك من أضرار لا يمكن أن يقدم عليها، وهو في قواه العقلية؛ أما أن كلامه هذيان، فهذه صحيح، خاصة إذا كان تأثير السكر عليه شديداً، فإن السكران يعيد أقواله، ويكررها بطريقة مملة،

ويأتي بأقوال تافهة لا توافق سنه، ولا مقامه، وتنزله إلى مستوى متدن، لا يرضاه لنفسه، عندما يصحو، ويعرف ما جاء منه.

«والشعر من السحر، والتهدد هجر».

لا رابط بين الجملتين إلا السجع، وتتاليهما؛ وإذا كانت الجملة الأولى مسلم بها، وقد روي مثلها عن الرسول ﷺ إذ قال: إن من البيان لسحرا، والشعر بيان، إلا أن الجملة الثانية توحي بالابتسار، والتكلف؛ والتهدد لا يتجانس مع الشعر، حتى يؤتى به جاراً تالياً له، وصفة «الهجر» هي ذريعة للسجع أكثر من أن يكون معناها مقصوداً وقد يكون الموصي قصد بالتهدد الهجو، فهذا هروب من الواضح إلى الغامض المشكل، وهو عيب في التفكير.

«والشح شقاء، والشجاعة بقاء».

ويبدو أن مؤلف الوصية أراد أن يأتي بالفضائل

والرذائل، منظومة في نهج واحد، معطياً كل فضيلة أو رذيلة صفة تبين مداها وأثرها، معتمداً على السجع شافعاً مقبولًا، ووسيطاً معتبراً. أما أن الشح شقاء، فأمر ملاحظ وملموس، لأن الشحيح بماله، يجمعه، ويحرم نفسه منه، ويبقى شقياً بعبادته للمال، وحرصه عليه، تاركاً أمجاد الكرم، لبريق المال، ونهايته لورثة قد ينسونه في فترة قصيرة، فهو شَقِيَ، وهم سعدوا، وهو حرم، وهم وجدوا، وهو قَتَّر وهم أسرفوا، وهو عانى وهم تمتعوا.

وهنا يحسن أن نذكر قصة شعبية لطيفة، مؤداها أن غنياً بخيلًا كان يجمع المال، ويشح بالانفاق على نفسه وزوجته واعتاد أن يسافر من بلدته إلى بلدة مجاورة، وإمعاناً في البخل كان يتلمس أن يضيفه أحد الكرماء في هذه البلدة التي جاءها تاجراً؛ فدعاه رجل، وأكرمه

إكراماً فائقاً، ولعله عجب من إنفاقه، وسأله عن سببه، فأجابهُ المسؤول أنه اعتاد أن يتسمع أخبار البخلاء المسنين؛ فإذا سمع عن موت أحدهم خطب امرأته، بعد أن تعتد، وعاش في مال البخيل؛ وقال: إنه سمع أن في البلدة المجاورة رجلًا، قد كبر في السن، وأنه ينتظر موته، حتى يتزوج امرأته؛ وانطبقت أوصافه عليه.

ارتعب البخيل مما سمع، فعاد إلى مدينته، ومر بقصاب، واشترى منه لحماً بكمية مجزية، ودخل بيته، ورمى باللحم إلى زوجته، وقال: اطبخي، فوالله لن يهنأ ذاك بمالي. وطلق البخل، واعتدل في أمره!

أما الشجاعة، فتواترت الأقوال في أنها تساعد على تفادي الأخطار، لأن الإقدام فيه حماية، وقد قيل: «اطلب الموت توهب لك الحياة».

«والهديّة من الأخلاق السرية، وهي تورث المحبة».

وإذا كانت الهدية تأتي من المتصف بالأخلاق الحميدة، وتجعل مقام صاحبها متمكناً بين الخاصة، فإن اختيارها يدل على ذوق صاحبها، واختيار المناسبة يوحي ببراعة التفكير؛ ولأن فيها مخاطبة للقلوب، فهي تورث المحبة، وتكشف عن مقدار اعتبار المهدي للمهدَى إليه.

«ومن ابتدأ المعروف صار ديناً، ومن المعروف ابتداء من غير مسألة».

وينطوي تحت هاتين الجملتين معاني سامية، فالمبتدئ برهن على أن الآخر، ممن وقع عليه المعروف، كان في ذهن صاحب المعروف، يوليه اهتماماً، ويرعى أموره بخفية، وعن بعد، وحين رأى أن وقت المبادرة قد أزف

سارع إلى أداء حقه فيها؛ سواء كان تأييداً معنوياً، أو رفداً مادياً، أو مساهمة في رفع ضائقة، أو بدءاً في تجمل؛ وفيها من الجمال منتهاه عندما توفر على المحتاج ذلة السؤال؛ وهو أمر قليل من يعرف مقداره؛ وكثير من الناس يعرف عن حاجة أخيه، ولكنه لا يساعده حتى يطلب منه ذلك، ويدفق ماء وجهه، ويذل نفسه؛ وتأخر المساعدة إلا عند المسألة أحياناً يكون وراءه تفكير سقيم، وهو أن المحتاج لم يتقدم لنقص شعوره بالقرب من القادر على المساعدة، أو لعدم شعوره بعمق القربى التي توجب رفع الكلفة، والمصارحة بالحاجة، وقد يصل الأمر بالقادر أن يخاطب نفسه قائلًا: دع ترفعه عن طلب المساعدة ينفعه؛ وقد يكون بعضنا سمع عن شيء من هذا؛ والحقيقة أن العطاء أحياناً يكون ثقيلًا على المعطي، فيفرح أن صديقه، أو

قريبه، أو المحسوب عليه، لم يطلب منه المساعدة، لأن في هذا توفيراً ينفع وقت اللزوم لمقابلة طلب من يطلب.

«وصاحب الرياء يرجع إلى السخاء، ولرياء بخير خير من معالنة بشر».

دخلت المغالاة بعض الشيء في هذه الجملة، فالرياء مكروه، ومنهي عنه شرعاً؛ ولكن الموصي نصح به ابنه فقط في حالة مقارنته بالمصارحة الوقحة، ورأى ما يمكن أن يسمى بالمجاملة أهون عن الوقاحة؛ وهذا يتمثل عندما يطلب شخص من آخر رأيه في أمر، فيرى أن قول الحقيقة، يجرح، فيلجأ إلى قول فيه مجاملة؛ في هذا الحد تقبل هذه الوصية.

«والعرق نزاع، والعادة طبيعة لازمة: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر».

هذا قول متواتر، فالمرء يرث بعض طبائع

آبائه، والعرق دسّاس، كما يقولون؛ وكذلك العادة تصبح لازمة إذا لم يتنبه الإنسان للسيء منها، فيتخلص منه، والمعوج ويعدل منه.

«ومن حل عقداً احتمل حقداً».

لعل المقصود من تراجع عما تعهد به، استوجب أن يسخط عليه، لأن العقود عهود، والعهد مطلوب فيه الوفاء، لأن العدل يقتضي هذا، إلا إذا رضي الطرف الآخر أن يتخلى عن حقه في الالتزام.

«ومراجعة السلطان خُرق بالسلطان».

والمفترض أن السلطان لا يصدر أمراً إلا بعد الجزم بصحته، لأن أمره يصدر عن مشورة وتأن، خاصة إذا كانت الأمور تخص الحدود، أو الحقوق؛ والإلحاح على السلطان في تغيير قراره، مع معرفة صحته، فيه غباء، وقلة عقل.

«والفرار عار، والتقدم مخاطرة».

والفرار من مقابلة الأمر جبن، يلحق صاحبه العار، ومن المؤكد أن المقصود هو الفرار من الحق، أما الفرار من أسد ضار، وحيوان مفترس، وطائر جارح، وحية فاتنة، فمما يقتضيه العقل، وتستوجبه الحكمة، وفيه المحمدة، إذ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ .[1]

«وأعجل منفعة إيسارٌ في دعة».

الموسر، الغني، ومن لا يرى ضيماً عليه في الإنفاق، هؤلاء منفعتهم لمن احتاج إلى المنفعة سريعة، ومحمودة. واليسر والدعة في حد ذاتهما منفعة لمن حازهما.

«وكثرة العلل من البخل، وشر الرجال كثير الاعتلال».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

وعادة البخيل يجد الأعذار الكافية، المتعددة، لرد السائل، والتهرب من مساعدة المحتاج، وهذا لا خير فيه.

«وحسن اللقاء يذهب بالشحناء».

في كثير من الأحوال عندما يلتقي اثنان، وتتقابل العينان، يزول ما بين الاثنين، مما قد يكون حدث بينهما من سوء فهم، خاصة إذا لم يكن الأمر عميقاً، ولم يتلون بلون الحقد والانتقام.

«ولين الكلام من أخلاق الكرام».

لين الكلام يأتي عادة ممن يثق من نفسه، ويفسح فيها مكاناً للآخرين، يدفن فيه حدتهم، ويميع فيه سخطهم؛ واللين لا يأتي منه إلا الخير، خاصة إذا جاء بنية صافية، يظهر دليلها على الوجه، وتشهد الحركات بصدقها، وتعبير الوجه بصحتها.

«يا بني، إن زوجة الرجل سكنه، ولا عيش له مع خلافها، فإذا هممت بنكاح امرأة، فسل عن أهلها، فإن العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة».

هذه نصيحة قيمة، تداولها أهل العصور المختلفة، والاعتراف بها، وبفائدتها، إلى يومنا هذا؛ والأخذ بها يضمن حسن النتيجة، بعد هذه الحيطة، من التحري والاستقصاء عن الأهل، حتى لا يكون هناك من العيوب الخُلقية، والخلقية، ما يكون سبباً في شقاء الزوجين، أو سرعة حدوث الفرقة بينهما، ولعله أبو الأسود الدؤلي الذي مَنَّ على أبنائه في رعايتهم بأن تحرى ذلك قبل أن يولدوا، بحسن اختياره لأمهم.

والزوج أو الزوجة قد يكون أحدهما سبب سعادة متناهية، أو شقاء دائم، ولا عيش بسلام

إذا لم يكن هناك اتفاق تام بين الزوج والزوجة، بصرف النظر عمن أتى منه الخلل؛ وقد تتعقد الأمور بعد أن يولد الأولاد، فيصبح الافتراق صعباً، والبقاء على الزواج جحيماً.

«وأعلم أن النساء أشد اختلافاً من أصابع الكف، فتوق منهن كل ذات بَذَا، مجبولة على الأذى؛ فمنهن المعجبة بنفسها، المزرية ببعلها، إن أكرمها، رأته لفضلها عليه، ولا تشكر على جميل، ولا ترضى منه بقليل؛ لسانها عليه سيف صقيل، قد كشفت القحة ستر الحياء عن وجهها، فلا تستحي من إعوارها، ولا تستحي من جارها؛ كلبة هرّارة، مُهارِشة عقّارة؛ فوجه زوجها مكلوم، وعرضه مشتوم، ولا ترعى لدين ولا لدنيا، ولا تحْفظه لصحبة، ولا لكثرة بنين؛ حجابه مهتوك، وستره منشور، وخيره مدفون؛ يصبح كئيباً، ويمسي عانياً؛ شرابه مر، وطعامه

غيظ، وولده ضياع، وبيته مستهلك، وثوبه وسخ، ورأسه شعث، إن ضحك فواهن، وإن تكلم فمتكاره؛ نهاره ليل، وليله ويل، تلدغه مثل الحية العقارة، وتلسعه مثل العقرب الجرارة». [1]

لنذكر أن الخَطّاب يوصي ابنه، ولم يكن في سبيل إعطاء أوصاف الزوجة السيئة، أو الرجل السيء، بل اقتصر على الزوجة، لأنه يوصي ابنه، وهذا ما يخصه وإلا فمثلما أن في النساء سيئات، ففي الرجال سيؤون، ومثلما أن النساء أشد اختلافاً مثل أصابع الكف، ففي الرجال مثل هذا الاختلاف، ولو كانت كاتبة الوصية امرأة فربما جاءت بما هو أشد وأقسى.

ولم يترك الخطاب رذيلة يمكن أن تتصف بها امرأة إلا ذكرها، حتى بدا الأمر مرعباً،

---

(١) روضة العقلاء: ٢٠٢.

ورسم الزوج بأنه ضحية مسكينة، ورسم المرأة كأنها لبؤة تخربش الوجوه، وتحدث الكلوم، وجعلها متغطرسة، ناكرة للمعروف، لا حياء عندها مضيعة لبيتها، ولبنيها، ولزوجها؛ تقلب وقته إلى جحيم؛ هي حية رقطاء في حجر زوجها!

لقد أعطى صفة أحد أقسام الزوجة، ثم انتقل إلى نوع آخر، ملأ الصفحة فيه بالعيوب، وعدد فيها المساوئ، بفصاحة واقتدار؛ ولعل له تجربة مريرة، جعلته يتحدث بهذه المرارة.

«ومنهن شفشليق: «العجوز المسترخية»، شعشع: «طويلة»، سلفع: «الصخابة البذيئة»، ذات سم منقع، وابراق واختلاف، تهب مع الرياح، وتطير مع كل ذي جناح؛ إن قال: لا، قالت: نعم؛ وإن قال: نعم، قالت: لا؛ مولدة لمخازيه، محتقرة لما في يديه؛ تضرب له الأمثال، وتقصر به دون الرجال، وتنقله من

حال إلى حال؛ حتى قلا بيتَهُ، وملّ ولده، وغث عيشه، وهانت عليه نفسه، وحتى أنكره إخوانه، ورحمه جيرانه».

وبعد أن عدد هذه الصفات السيئة، ورسم الصور المرعبة، واستقصى مجالات السوء في هذه الزوجة انتقل يحذر من نوع آخر، هو:

«ومنهن الورهاء (كثيرة الحمق) الحمقاء: ذات الدل في غير موضعها، الماضغة للسانها، الآخذة في غير شأنها، قد قنعت بحبه، ورضيت بكسبه، تأكل كالحمار الراتع، تنتشر الشمس ولما يسمع لها صوت، ولم يكنس لها بيت؛ طعامها بائت، وإناؤها وضر (مدهن) وعجينها حامض، وماؤها فاتر، ومتاعها مزروع (مبعثر) وماعونها ممنوع، وخادمها مضروب، وجارها محروب».

صفة الكسل في هذا النوع من الزوجات،

يؤدي إلى مساوئ عددها الموصي، وبيَّن ما تأتي به من فوضى في البيت في وعائه، وآلاته، وخدمه، ويتبع الأذى الجار بعد الدار.

والحمد لله أن الختام مسك، والعاقبة حميدة، فقد تكلم عن الزوجة المختارة، ذات الصفات الحميدة، والأخلاق الحسنة، وهي التي تُتْرِبُ اليد؛ ووصفها بمايلي:

«ومنهن العطوف الودود، المباركة الولود؛ المأمونة على غيبها، المحبوبة في جيرانها، المحمودة في سرها وإعلانها؛ الكريمة التبعل، الكثيرة التفضل، الخافضة صوتاً، النظيفة بيتاً، خادمها مسمن، وابنها مزين، وخيرها دائم، وزوجها ناعم، مرموقة مألوفة، وبالعفاف والخيرات موصوفة». (1)

لاشك في أن هذه الصفات مثالية، ولا تعدم

---

(1) روضة العقلاء: ٢٠٣.

أن تتوفر في زوجة، إذا وفق الله؛ ولهذا نصح في أول الأمر في حسن الاختيار، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وضع صوراً معينة على أساسها يمكن أن تختار الزوجة، وقد ورد الحديث بها في الصحيحين، فقد قال الرسول ﷺ رواية عن أبي هريرة (في كتاب النكاح):

«تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك». [1]

ثم ختم الوصية بقوله:

«جعلك الله، يا بني، ممن يقتدي بالهدى، ويأتم بالتقى، ويجتنب السخط، ويحب الرضى.

والله خليفتي عليك، والمتولي لأمرك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على محمد نبي الهدى، وعلى آله وسلم تسليماً

---

(١) صحيح البخاري

كثيراً». [1]

وهكذا تنتهي هذه الوصية الجامعة، التي جاءت من والد لولده، أملًا في أن يتبع ما فيها، ويستفيد بما احتوته من درر، رأى والده أن يتركها له، لتساعده على عبور نهر الحياة، بما فيه من تيارات عنيفة، وسير رخاء، آونة هذا، وأخرى ذاك.

وقد يكون زيد فيها ـ كما قلنا ـ مع مرور الزمن، اجتهاداً، ظن من زاده أن فيه خيراً يضاف إلى خير، ونوراً يلحق بنور؛ وقد تدل على ذلك بعض الظواهر، منها ركاكة الجملة، ومنها نبوها، وقلق مكانها، ومنها بعد معناها عما جاورها، سابقاً، أو لاحقاً؛ ومنها تكرار ما جاء حشواً، في حين أن ما في معناه جاء ضافياً، وافياً، مثل الحديث عن الزوجة؛ وقد

(١) روضة العقلاء: ٢٠٧.

رأينا التفصيل المستفيض، مما يجعل ما جاء في ثنايا الحديث مختصراً إلى حد الإخلال بالمعنى، أو المبنى للجملة.

والذي يهمنا في المقام الأول أننا تمكنا من الاطلالة على ما في ذلك المجتمع، مما هو مقبول، أو غير مقبول؛ وما يأتي في مقدمة الاهتمام، أو على هامشه؛ وهذا مكننا من أن نجد من المجال الواسع للمقارنة، ما يبين قيمة ما عندنا من عادات وتقاليد، وما عندهم، وأن نلمح ما كان الأصل لما عندنا مما بدأت ملامح أصله تمحي؛ ومجرد اهتمام الوالد، بأن يترك لابنه هذا المظهر الحضاري، هو مصدر اعتزاز بآبائنا، وتنبههم إلى فائدة فعل هذا، وقد أثروا صفحة الأدب بهذه الوصايا والنصائح، وهي تؤلف مجموعاً ضخماً لو أنها جمعت، وفوائد عظمى، لو أنها درست، وحققت، وغيص في بحورها

العميقة، للبحث عن جواهر القول، ونادر الفكر فيها.

ولا يستطيع أحدنا أن يهمل تذكر أن هذه الفترة المضيئة، من تاريخنا كان كثير من العالم المضيء اليوم بالأمس في ظلمة داكنة، وضياع تام؛ وهذا قد يحرك في الجيل الجديد العزة، والنخوة، ليحاولوا بناء صرح قوي، على الأسس القوية التي وضعها أجدادهم، وبنوا ما يتناسب مع زمنهم، ويوائم الحياة الجديدة.

* * *

جولة في كتاب

هذا الكتاب هو: «كتاب الاختيارين» صنعه الأخفش الصغير، المولود عام: ٢٣٥هـ والمتوفَّى عام: ٣١٥هـ، وقد حققه الدكتور فخر الدين قباوة.

والكتاب مختار من كتابين، الأول: «المفضليات» للمفضل الضبي، وكان المفضل ألفه استجابة لرغبة الخليفة أبي جعفر المنصور، واختاره من أجود قصائد المقلين من العرب، ليستفيد منها ابنه المهدي في دراسته. والثاني ألفه الأصمعي استجابة لطلب من الخليفة هارون الرشيد، ورغبة في أن يستفيد منه ابنه الأمين في دراسته.

وقد لقي الكتابان قبولًا حسناً من الأدباء، فتناقلوهما، وشرحوهما، وعلقوا عليهما؛ ومن جملة من وجه لهما عناية متميزة الأخفش

الصغير، إذ اختار منهما ما أصبحت حصيلته هذا الكتاب؛ فهو بهذا خلاصة الخلاصة، وهذا يدل على ما يتوقع أن يكون فيه من النفع والفائدة.

ونحن سوف نمر بما فيه مر الكرام، نقف وقفة هنا، ووقفة هناك، نتدبر بعض ما يلفت النظر مما يعتبر عادة متأصلة، أو صورة تتكرر، أو تعبيراً محبباً، أو أسلوباً متميزاً، لعلنا في النهاية نأخذ صورة ترشدنا إلى بعض ما أقنع الأصمعي والمفضل والأخفش الصغير بالاختيار.

***

١ – عند ذكر طفيل بن عوف ذكر المؤلف أن اسم أحد أجداده «أعصر»، ويبدو أنها كنية لحقته كما هي عادة العرب، ويقول المؤلف «إنما عصره بيت قاله:

أَعُمَيْـرَ ، إِنَّ أَبَـاكِ غَيَّـرَ رَأْسَـهُ
مَرُّ اللَّيَالِيْ، وَاخْتِلَافُ الأَعْصُرِ»

فسمى بهذا البيت «أعصُرا» .[1]

والعرب مفتونون بإعطاء اسم غير اسم الإنسان الأصل، ولهم أحد مهربين من الاسم، الأول بالكنية، كأبي فلان، أو أم فلان، أو ابن فلان، والثاني ما يمكن أن يسمى اللقب، وهو صفة «معايرة» أو «معايبة» في الغالب، تؤخذ من عملٍ عمله الإنسان، أو قولٍ قاله، وأحياناً لا يكون فيها «معايرة»، وتكون صيغة تصف جانباً حسناً في القول أو الفعل.

والعرب إلى اليوم تحافظ على هذا النهج، فهناك فلان الأعرج والأعمى، والأكتع، والأخفش، والغراب، وسيمر بنا كثير من

(١) كتاب الاختيارين : ١ .

ذلك في هذا الكتاب[1] وغيره، وقد كتبت مقالاً، قبل ذلك، في كتابي «إطلالة على التراث»، لمست هذا الجانب في الماضي والحاضر وفي تتبع الأمر طرافة، لأن المرء إذا «ألقى بالا» لهذا الأمر وجد أشياء ممتعة، بعضها يمكن أن يكون مصدراً للحكم على بعض الظواهر الاجتماعية.

وقد أثبت الأخفش قصيدة طفيل بن عوف التي مطلعها:

«بِالعُقْرِ دَارٌ مِنْ خَمِيْلَةَ هَيَّجَتْ
سَوَالِفَ حُبٍّ، فِيْ فُؤَادِكَ مُنْصِبِ»[2]

فبدأها بالنسيب كعادتهم، وأخذ يعدد أوصاف الجمال في أعضاء حبيبته، مدح مجرى الدمع، وضمور الحشى، وصفاء الثنايا، ثم انتقل إلى مدح قومه، فوصف شجعانهم،

---

(١) انظر ما سيأتي عن الأفوه، وسبب تسميته بذلك (ص: ٣٤٥).
(٢) كتاب الاختيارين: ٢.

وفعلهم، ووصف خيلهم، وسرعتها، وأصالتها، وأسهب في هذا، لأن القصيدة في وصف غارة شرسة؛ والخيل عدة النجاح في مثل هذه الغارة؛ وفي ذكر التفاصيل عنها دقةٌ متناهية، وصور رسمت بإتقان؛ وحيث أن الشعراء كثيراً ما يطرقون هذا الباب، في مثل هذه المناسبة، فالشاعر إذا لم يأت بصور جديدة لم يسر شعره؛ وبعد أن يصف خيل قومه ينثني ليصف حصانه، وأصالته وميزات جسمه، ثم يتلفت للقسي والسهام، ويصف بدقةٍ وضعها، ويصف جودتها، ولم ينس الرماح ودورها.

لقد مر على عدة الحرب من فرسان، ومن خيل، ومن سلاح، ليري شراسة المعركة، وأن النصر الذي أحرزوه كان غالياً؛ وهذا منهج معروف في مثل هذه المواقف، وما على الشاعر إلا أن يأتي بصور مبتدعة، أداتها التشبيه،

والاستعارة، وإلباس الأمر لباس غيره، حتى تبتهج الصورة، أو تسوغ المغالاة.

وينتهي من الخيل، وينتقل عنها إلى غيرها، ثم يعود إليها، وكأنه مشدود بقوة خفية نحوها، ولا غرو فهي من أسباب النجاح الأولى في الحرب ـ إذا وفق الله ـ وهي أغلى أداة تحت تصرفه، من حازها حاز العلا بين قومه، وله ميزة على من سواه؛ والخيل تزيد الشجاع شجاعة، وتعطيه الفرصة ليؤدي فنون الحرب التي يتقنها بجدارة.

وإذا أراد كاتب أن يأتي على أوصاف كثيرة للخيل، وفعلهن، ودورهن في القتال، ونظرة العربي إليهن، واستفادته منهن، فهذه القصيدة تعطيه من المعلومات ما يكفيه، إذ ترسم صورة كاملة لهذا، فلم تعط الموقعة نفسها ما أعطيت الخيل التي صالت وجالت فيها، ولا غرو في

ذلك فهي العنصر الأساسي في هذه الغارة .

* * *

٢- أما القصيدة الثانية فلعلقمة بن عبده التميمي، يبدؤها أيضاً بالنسيب، ويتضمن وصف محبوبة، ومعاملتها له، ثم ينتقل سريعاً إلى حصانه فيصفه بأنه حرٌّ ذكي، ويصف جسمه وقوته، وخفة حركته وسرعته، ويلاحظ أنه جاء ببيتين يشبهان ما قاله امرؤ القيس في وصف حصانه، وهما :

«وَقَدْ أَغْتَدِيْ والطَّيْرُ فِيْ وكُنَاتِهَا
وَمَاءُ النَّدَى يَجْرِيْ عَلَى كُلِّ مِذْنَبِ
بِمُنْجَرِدٍ، قَيْدِ الأَوَابِدِ، لَاحَهُ
طِرَادُ الهَوادِيْ، كُلَّ شَأْوٍ مُغربِ»[1]

وهذا يعني أنه انتقل إلى حصانه، ليعطيه

(١) كتاب الاختيارين : ٥٣ .

حقه من الوصف، الذي يبين مكامن الحسن والقوة، ويكشف عن الأصالة، وسلامة النسب، ولم ينس لونه، وما يدل على عتقه؛ ويمر على الأجزاء المهمة في جسمه، فيصفها بما يجعلها مركز المحامد، ثم بعد أن بين ما فيه من أصالة توحي بالقدرة، أخبر أن فائدته في الصيد كبرى، ثم أخذ يصف أرض الصيد، وصيدها، والشدة التي مر بها، والمناورة التي أتقنها حصانه، والدفاع الذي أبداه الصيد، وما تعرض له حصانه من تلك الحيوانات.

ويأتي البيت المشهور، لحسن الصورة التي رسمها، والتي أضفى عليها التشبيه رونقاً، صارت معه على كل لسان، والبيت هو:

كَأَنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا

وَأَرْحُلِنَا الجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُثَقَّبِ»[1]

---

(١) كتاب الاختيارين: ٦١.

٣- والقصيدة الثالثة للحادرة، واسمه على ما قيل عاصم بن منظور، وهذه القصيدة مما يمتدحه حسان بن ثابت، وتبدأ بالبيت الآتي:

بَكَرَتْ سُمَيَّةُ، بُكْرَةً، فَتَمَتَّعِ
وَغَدَتْ، غُدُوَّ مُفَارِقٍ، لَمْ يَرْبَعِ»[١]

ولم يشذ الحادرة عن قومه، إذا ابتدأ قصيدته بالنسيب، فأخذ يصف ضياء وجه محبوبته، وانتصاب عنقها، وحور عينيها، وحسن مبسمها، وأخذ هذا مدخلًا لوصف المطر، وهو موضوع يحلو للشعراء الفطاحل أن يطرقوه؛ ثم أخذ يمتدح قومه بالعفة، والشجاعة، ويقارن قومه بغيرهم، ليفضل قومه؛ وذكر كرمه في الشراب والأكل، وما ذبحه من السائمة، ووصف هذه السائمة بالسمن، ووصف الإبل وجودتها في مجالها، ونومه على

(١) كتاب الاختيارين: ٦٣.

ذراع بعيره حتى أثر هذا فيه.

❊ ❊ ❊

٤- والقصيدة الرابعة للأفوه الأودي، واسمه صلاءة بن عمرو، وسمي الأفوه لغلظ شفتيه، وظهور أسنانه؛ وهو فارس جاهلي قديم، ويقال إنه أول من قصد القصيد، وكان سيد قومه، وقائدهم في حروبهم، وأول قصيدته البيت الآتي:

«فِينَا مَعَاشِرُ، لَنْ يَبْنُوا، لِقَوْمِهِمُ
وَإِنْ بَنَى قَوْمُهُم مَا أَفْسَدُوا عَادُوا»[1]

وكما يتضح من البيت لم يبدأ الأفوه قصيدته بالنسيب، (إلا إذا كان سقط من الرواية) وإنما عمد إلى ذم قومٍ عنده، لا يبنون، وما يبنيه قومهم يفسدونه هم، واستمر في ثلبهم ونقدهم،

(١) كتاب الاختيارين: ٧٤.

ورميهم بالجهل والغي.

والقصيدة سهلة الفهم، ولكنها محكمة البناء، قوية في معانيها؛ أدخل فيها حقائق تاريخية، ولعلها تساهم في الدعوى التي تقول إنه أدرك المسيح؛ وسهولة الأبيات، ونغمتها الراقصة، وحكمتها البالغة تظهر في الأبيات الآتية، التي ترد دائماً في المختار من الشعر:

«وَالبَيْتُ لَا يُبْتَنَى إِلَّا لَهُ عَمَدٌ
ولَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ
فَـإِنْ تَجَمَّـعَ أَوْتَـادٌ وَأَعْمِـدَةٌ
وسَاكِنٌ بَلَغُوا الأَمْرَ الَّذِي كَادُوا
لا يَصْلُحُ القَوْمُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ
ولَا سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُم سَادُوا
إِذَا تَوَلَّى سَرَاةُ القَوْمِ أَمْرَهُمُ
نَمَى عَلَى ذَاكَ أَمْرُ القَوْمِ فَازْدَادُوا

تُلْقَى الأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلَحَتْ
فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالأَشْرَارِ تَنْقَادُ
أَمَارَةُ الغَيِّ أَنْ تَلْقَى الجَمِيعَ لَدَى الْـ
إِبْرَامِ لِلأَمْرِ وَالأَذْنَابُ أَكْتَادُ»[1]

***

٥- وينتقل المؤلف إلى القصيدة الخامسة، وهي لعبدة بن الطيب من تميم، ويبدأ قصيدته بالنسيب، فيشبب بخولة، ويتحدث عن الهجر والوصل، وهو حديث أغرم به الشعراء، ولا يكاد واحد منهم يخلو شعره منه، وعن الحديث عن القرب والبعد، وصدود الحبيبة، ورقابة أهلها، وما إلى ذلك مما يتكرر في شعرهم، وكأنه لازمة للغرام والتشبيب والعشق.

وهنا التفاتة مهمة، وهي أن الشاعر يذكر

(١) كتاب الاختيارين: ٧٦.

أن خولة وقد جاء بها في البيت الثاني مصغرة، إما للتمليح كما هي العادة، أو لأن وزن البيت اقتضى ذلك، حلت في ديار قريبة من الأعاجم، وهذا يري جانباً من جوانب تاريخ تحرك البادية، وقربهم من المدن للميرة، أو بعد نزوحهم مع الإسلام، وحدد بلاد العجم، وهي تختلف عن بلاد العرب، فإذا كانت الصحراء موطن الجمل، فأرض العجم فيها الفيل، ومع الفيل الديك رمز المدينة، ويماثله في الصحراء الكلب في بعض فوائده.

وقد سكن عرب خولة في نواحي العجم لقتالهم؛ وبُعدها ترك في القلب إحساساً لطيفاً خفياً قيده، وهو مثل الشعور الذي يعقب الحمى، مما يوحي بعودتها، وكرتها مرة أخرى.

ويذكر أن هناك علامات للنوى تعرف بها قبل حلولها؛ ومادام الأمر كذلك فعلى الحبيب

أن يستعد لذلك اليوم بأداة قادرة على مساعدته، وتتوفر هذه الميزة بناقة قوية، وأخذ يصفها في جسمها، وفي طبائعها، وفي سيرها؛ ووصف الناقة وسيرها، وطبعها الذكي الذي يعرف ما يريده الراكب، وهذا أمر درج عليه الشعراء، لأنها مرحلة من المراحل التي ينتقل بها الشاعر من الغزل إلى الهدف الأساس للقصيدة.

وقد سار هذا الشاعر على نسق من قبله من الشعراء فجعل الناقة وسيلته للرحيل من ديار الأحبة إلى حيث يهدف، ولهذا قال:

فَعَدِّ عِنْها، وَلَا تَشْغَلْكَ عَنْ عَمَلٍ
إِنَّ الصَّبَابَةَ، بَعْدَ الشَّيْبِ، تَضْلِيلُ(١)

وهو على ناقته لا ينسى منظراً صحراوياً آخر يأتي عرضاً، أو قصداً، وهو طائر القطا،

---

(١) كتاب الاختيارين: ٨١.

فيركز عليه قوله قليلًا، ولكنه سرعان ما يترك ذلك إلى الإبل وأمورها، فيوغل في وصفها، ويأتي بالشيء في صورة، ثم يأتي به في صورة أخرى، ويدخل في غرض ثان من أغراض القول، وهو الصيد، فيصف الثور الذي طارده، ويأتي بما يؤتى به عادة، من وصف الثور وجودته، وما هو عليه من خَلْق متكامل، ويصف المطاردة، والمراوغة، والحيل، والجهد المبذول، من كل منهم، بما في ذلك كلاب الصيد، وهي جزء من الصورة.

والقنص والصيد أمر محبب إلى راكب الفرس أو البعير، وفي الغرب صيد الثعالب من الهوايات التي يقبل عليها كبار القوم هناك؛ وصيد حمار الوحش عند العرب، والثيران البرية والوعول، والغزلان من الأمور التي تأخذ حيزاً في وصفها؛ والاستماع لما يقولونه عنها نثراً أو شعراً أكثر

متعة من رؤية مسرحية؛ ولهم قدرة نادرة في وصف دقائق القنص؛ وتفنن كل واحد منهم في الوصف، والإتيان بما لم يأت به الآخرون؛ وفَخْر الشعراء هو في تفتيق المعاني، والإتيان بأبكارها، التي لم يتطرق لها أحد، والصور البديعة التي تنسب إليهم فخراً من قبائلهم، واعتزازاً بشعرائهم.

ثم يذكر بتفصيل ممتع العراك بين الكلاب والطريدة، وكيف أن الثور استطاع في النهاية النجاء، بعد أن أدمى أجسام بعض الكلاب، وأحبط مسعاها، وقتل بعضها، واستراح منها، ثم أفلت منها وهو يسابق الريح، ويثير الغبار على جانبيه، والحصا يتنافر خلفه؛ ونجا بجلده من هذه الكلاب الشرسة.

وفي كل هذا وصف دقيق، وقدرة على التصوير، حتى لكأنك تراه عن بعد، لا يفوتك

منه دقيقة ولا جليلة.

ثم ينتقل الشاعر إلى أمر مهم، وهو الماء ووردِه، ويذكر كيف قاد قومه إلى حيث الماء، ثم دخل في وصف المنهل الذي وردوه، بعبارات زاهية، ثم ناموا وقت القيلولة، ليستيقظوا على اللحم المعد، وأخذ يصف اللحم، ثم يتخذ من ما بقي في أيديهم من الشحم وسيلة للانتقال إلى الخيل، فقال إنهم مسحوا أيديهم في أعراف الخيل.

ثم جذبته قوة خفية مرة أخرى إلى الإبل، ولعله ظن أنه لم يوفها حقها، أو أن وصفها في موقف يختلف عنه في موقف آخر؛ ووصفُه هذه المرة يلمس حثهن على السير المجهد، وهن حاملات روايا الماء؛ وهو يرجع أفضال ربه في أن يهب لهم المطر، بعد أن حباهم خير الأموال؛ ثم يخطر على باله في هذا المقام حكمة بالغة،

فيتكلم عن مبدأ عام، فيقول:

وَالمَرْءُ سَاعٍ لأَمْرٍ لَيْسَ يُدْرِكُهُ
وَالعَيْشُ شُحٌّ وَإِشْفَاقٌ وَتَأْمِيلُ[1]

ثم يصف المطر، وصلة الحيوانات البرية به، ثم يصف هذه وصغارها، ويرسم صورة لها وهي هادئة مطمئنة، ولكن ما لبث أن فزعت لما انْصلت عليها فارس بفرسه، ثم يصف ما في فرسه من صفات النجابة، ويرسم صوراً لطلعته، ولجسمه.

ثم يأتي بصورة شعرية جميلة لوصف الصبح، استقاها من لوازم الصبح، ومن موجودات تلك البيئة، فيقول:

«وَقَدْ غَدَوْتُ وَضَوْءُ الصُّبْحِ مُنْفَتِقٌ
وَدُوْنَهُ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ تَجْلِيْلُ

---

(١) كتاب الاختيارين: ٩٦.

إِذْ أَشْرَفَ الدِّيْكُ يَدْعُو بَعْضَ أُسْرَتِهِ
لَدَى الصَّبَاحِ، وَهُمْ قَوْمٌ مَعَازِيْلُ»[1]

وفي وصف الدجاج بأنهن بعض أسرته، وكونهن معازيل، صورة بديعة، ومخرج ذكي، وقد استدرك بعد قوله أن الديك دعا بعض اسرته، ليؤكد أنه لم يدعهن لحرب، وأنه لا سلاح معهن.

ثم يجد مدخلًا لوصف رجل جادّ وقت الجد، لاهٍ وقت اللهو؛ ثم يصف الطنافس والفرش الذي يجلس عليه، والجود الذي يأتي منه، ثم يصف الصور التي على الطنافس، من دجاج ومن أسد، ومن مختلف التماثيل، ويصف البيت الذي حل فيه، وهو مربع مثل الكعبة، مضاء بالقناديل، ويصف سمرهم وسهرهم، وما تناولوه في جلستهم هذه؛ وكانت هذه

---

(١) كتاب الاختيارين: ٩٩.

الليلة وما حدث فيها هي آخر ما نالته هذه القصيدة؛ وعلى هذا فهي قصيدة أوحاها للشاعر شعور غمره، فقال ما قال، وأعطى كل عنصر من العناصر التي أبرزها ما تستحق في ظل ما هو معروف في زمنه.

وفي القصيدة بعض ما يوحي بأن قصيدة كعب بن زهير تلوح بعض روحها في الأفق؛ على الأقل في النغمة والموسيقى والقافية.

وهذه القصيدة نموذج لما يمكن أن تكون عليه أغراض الشعر الذي لم يقصد به مدح شخص بعينه أو هجاؤه، وإنما هي قطعة فنية، إذ وجد الشاعر أن صدره مليء ببعض المعاني والصور والأحاسيس، فصاغها في قوالبها الشعرية التي عرفها قومه، وتعارفوا عليها، وقبلوها، وتطلعوا إليها من الشعراء.

ومطلع القصيدة:

«هَلْ حَبْلُ خَوْلَةَ، بَعْدَ الهَجْرِ، مَوْصولُ
أَم أَنْتَ عَنْهَا بَعِيْدُ الدَّارِ مَشْغُولُ
حَلَّتْ خُوَيْلَةُ فِي حَيٍّ مُجَاوِرَةً
أَهْلَ المَدَائِنِ فِيْهَا الدِّيْكُ والفِيْلُ
يُقَارِعُوْنَ رؤُوسَ العُجْمِ ضَاحِيَةً
مِنْهُم فَوَارِسُ لَا عُزْلٌ وَلَا مِيْلُ»[١]

***

٦- وفي القصيدة لسوار بن المضرب، أحد بني سعد، من كلاب، ينتقل الشاعر من غرض لغرض، وكلما ترك ذكر بعيره عاد إليه، مثل غيره، مضفيا عليه من صفات الجودة والأصالة ما جاء متتالياً مبتكراً؛ ومثل بعض من سبقه يبدأ قصيدته عن الغواني؛ ؛ ورغم أنه يقول إنه طوى عنهن الكشح، إلا أنه يتوجد على محبوبته

(١) كتاب الاختيارين: ٨٠.

سلمى المذحجية، ساكنة اليمن، ولعلها كانت في عمان، إذ جاء ذكر ذلك في شعره، وفي بدء القصيدة ما يفتح نافذة على منهج الشاعر فيها، وفي تنقله بين أجزائها:

«أَلَمْ تَرَنِي، وَإِنْ أَنْبَأْتُ أَنِّي
طَوَيْتُ الكَشْحَ عَنْ طَلَبِ الغَوَانِي

أُحِبُّ عُمَانَ، مِنْ حُبِيْ سُلَيْمَى
وَمَا طِبِّي بِحُبِّ قُرَى عُمَانِ

عَلاَقَةُ عَاشِقٍ وَهَوىً مُتَاحاً
فَمَا أَنَا وَالْهَوَى مُتَدَانِيَانِ

تَذَكَّرُ مَا تَذَكَّرُ مِنْ سُلَيْمَى
وَلَكِنَّ المَزَارَ بِهَا نَآنِي

فَلاَ أَنْسَى لَيَالِيَ بِاللَّكَنْدَى
فَنِيْن، وَكُلُّ هَذَا العَيْشِ فَانِي»(١)

---

(١) كتاب الاختيارين: ١٠٥.

ويستمر في الغزل ويدلف منه إلى نأيه وبعده، والأرض التي قطعها، ثم يدخل في ذكر وسيلته في سفره، وهي الناقة، فيأخذ في وصفها، وصفاً مفصلًا، ويأتي على صفاتها الجسدية، وأثر ذلك على حسن سيرها، واجتهادها في ذلك، ثم يجد فرصته ليعود إلى سلمى، فيأخذ في الحديث عنها، ويرد على عاذلتين فيقول:

فَعَاذِلَتَيَّ فِيْ سَلْمَى، دَعَانِي،
فَإِنِّي لَا أُطَاوِعُ مَنْ نَهَانِي
وَلَوْ أَنِّي أُطِيْعُكُمَا بِسَلْمَى
لَكُنْتُ كَبَعْضِ مَنْ لَا تُرْشِدَانِ
دَعَانِي مِنْ أَذَاتِكُمَا وَلَكِنْ
بِذِكْرِ المَذْحَجِيَّةِ عَلِّلَانِي
فَإِنَّ هَوَايَ مَا عَمِرَتْ سُلَيْمَى
يَمَانٍ إِنَّ مَنْزِلَهَا يَمَانِي

تَكِلُّ الرِّيْحُ دُوْنَ بِلَادِ سَلْمَى
وَشِــرَّاتِ المُنَــوَّقَـةِ الهِجَـانِ[1]

وهذا البيت يعيده شطره الثاني إلى ناقته مرة أخرى، وكأن هناك قوة خفية تجذبه نحوها، مثل فعل غيره من الشعراء؛ ويتحدث هذه المرة عن الجمال عموماً وصفتهن في قطع المسافات، والأراضي السهلة؛ والوعرة، ليلاً ونهاراً، ثم يأتي، مثل الشاعر السابق، إلى مظهر من مظاهر الصحراء، وهو مما يغرم به الشعراء، وما يُكثرون من وصفه، وما يأتي دائماً عند التفكير في الحبيبة، وهو طائر القمري، ولونه الكدري، فمشيه يذكر بالحبيبة، وصوته حزين، يتجاوب مع ما في نفس الشعراء من جوى، وهنا جاء به الشاعر عندما أطارت ناقته نائم الكدري ليلاً، وأزعجت فراخها؛ ثم يصف طلوع الفجر،

(١) كتاب الاختيارين: ١٠٩.

وهو منظر صحراوي أخاذ، ويستحق الوصف، ويعود إلى سلمى، وكأن القصيدة عنها، فيقول جاعلًا مدخله إليها الحديث عن الصبح، وعن طائر الحمام:

«وَشَقَّ الصُّبْحَ أُخْرَى اللَّيْلِ شَقّاً
جِمَاحَ أَغَرَّ مُنْقَطِعَ العِنَانِ
وَمَا سَلْمَى بِسَيِّئَةِ المُحَيَّا
وَلَا عَسْرَاءَ عَاسِيَةِ البَنَانِ
أَلَا قَدْ هَاجَنِيْ فَازْدَدْتُ شَوْقاً
بُكَاءُ حَمَامَتَيْنِ تَجَاوَبَانِ
تَنَادَى الطَّائِرَانِ بِصَرْمِ سَلْمَى
عَلَى غُصْنَيْنِ مِنْ غَرَب وَبَانِ»[1]

ثم يختم القصيدة بأن من حوله لو سألتهم سلمى عنه لمدحوه بما هو أهله، ثم يقول:

(١) كتاب الاختيارين: ١١٢.

وَإِنِّـــي لَا أَزَالُ أَخَــا حِفَــاظٍ
إِذَا لَمْ أَجْنِ كُنْتُ مِجَنَّ جَانِي[1]

والحمام والقطا والقمري أنواع من الطيور تستهوى العاشق، وتحرك في الشاعر أحاسيس رقة، يستفيد منها في شعره، فهي طيور جميلة في منظرها، مطربة في صوتها، يجد فيها شيئاً من محبوبته، ولهذا ركز بصره عليها، وتدبر أمورها.

والعربي في صحرائه عنده وقت كاف لتأمل ما حوله، تأمل متعة، وتأمل تبصر، ويرى فيما يراه غير ما يراه ابن المدينة، لطول الوقت المتاح له للتأمل، ولصفاء ذهنه من الصحراء، لقلة الضجيج، وقلة ما حوله مما يصرف نظره عما ركز عليه؛ ولهذا جاءت أوصاف الشيء، أياً كان، دقيقة، وعميقة.

---

(١) كتاب الاختيارين: ١١٣.

٧- وفي القصيدة السابعة وصف متقن ضافٍ للقطا، واختلف في قائله، بل قيل إنها مساجلة بين عدد من الشعراء.

والقصيدة صورة متكاملة لما عليه القطا، ونظرة العربي إليه، وهي قصيدة فريدة في تركيبها، فهي ـ ما عدا أبيات أربعة في آخرها، كلها عن القطا، لم يسبقها غزل، ولم تُفتتح بالتشبيب أو النسيب، ودُخل إلى موضوعها رأساً، وتبدأ بالأبيات الآتية:

أَمَّا القَطَاةُ فَإِنِّي سَوْفَ أَنْعَتُهَا
نَعْتاً يُوَافِقُ نَعْتِيْ بَعْضَ مَا فِيْهَا
صَفْرَاءُ مَطْرُوفَةٌ فِيْ رَيْشِهَا خَطَبُ
صُفْرٌ مَقَادِيْمُهَا سُوْدٌ خَوَافِيْهَا[1]

ثم يصف مجيؤها إلى الماء، وشربها منه، ولون الماء الآسن، ثم عودتها لتسقى فرخيها،

(١) كتاب الاختيارين: ١١٥.

فيصف حملها للماء، وطيرانها عالياً، ثم نزولها، ثم ذكر توقع فرخيها مجيئها، واستبطاءهما لها، ثم تطلّعهما إليها، ثم مدهما لرقبتيهما ليزقا من الماء الذي أتت به، ووصف خروجهما من البيضتين ضعيفين، ومحاولتهما الحركة والنهوض؛ ثم شبه ساقيهما بلين النبت، بحيث لم يستطيعا حملهما.

ثم فجأة تختم القصيدة بأربعة أبيات تبدو أنها لم تكن في الأصل، لانعدام الربط بينها وبين ما قبلها، وهي عن الشاعر، وعن غرض أجنبي عن الموضوع، فيقول أنه لا يشتكي قلة ذات اليد إلا لمن يمكن أن يستجيب لطلبه إن طلبه، وهو على هذا يشكو لِدِلهِمْ، وهو رجل شجاع من بني لام، وفرق بين هذا والقطاة!

***

٨- والقصيدة الثامنة لعامر بن جوين، وهو شاعر جاهلي، فاتك شريف، ووفيّ مُعَمَّر، طائي، والقصيدة راقصة القافية.

وبدأ قصيدته مخبراً بأنه حذر ابن عمار من النعمان بن المنذر، وبدأها بقوله:

«لَقَدْ نَهَيْتُ ابْنَ عَمَّارٍ، وَقُلْتُ لَهُ
لَا تَأْمَنَنَّ أَزْرَقَ العَيْنَيْنِ والشَّعَرَهْ
لَقَدْ نَهَيْتُكَ عَمَّا لَا كَفَاءَ لَهُ
إِلَّا الإِلٰهَ، وَعَنْ غوْثٍ، وَعَنْ قَطَرَهْ
إِنَّ المُلُوكَ مَتَى تَحْلُلُ بِسَاحِتَهِمْ
تَعْلَقْ بِثَوْبِكَ مِنْ نِيْرَانِهِمْ شَرَرَهْ
وَجَفْنَةٍ كَإِزَاءِ الحَوْضِ قَدْ ثَلَمُوا
وَمَنْطِقٍ مِثْلِ وَشْيِ البُرْدِ والحِبَرَهْ
إِنْ يَقْتُلُوهُ فَلا وَانٍ وَلَا وَكِلٌ
وَلَا ضَعِيفٌ وَلَا هَوْهَاءَةٌ هُمَرَهْ

مَـا قَتَلُـوهُ عَلَـى ذَنْـبٍ أَلَـمَّ بِـهِ
إِلَّا التَوَاصِيْ وَقَالُوا قُوْمُهُ حَسَرَهْ»

حذّر صاحبه، ولم يحْذر، فوقع فيما حذره منه، لأنه يعرف غدر المناذرة، وما يظهرونه من رقة الاستدراج، ثم عاد يرثي ابن عمار ويُعدِّد مناقبه؛ والقصيدة جزلة منتعشة، زادت جمالها القافية الراقصة.

***

٩- والقصيدة التاسعة للقطران السعدي، يبدؤها بالغزل، فيقول، ويقدم بين يديه الهجر، وهو من العناصر المفضلة عند الشعراء:

«أَبِا الْهَجْرِ نَسَّتْنَا رُمَيْلَةُ وَصْلَهَا
وَعَهْدُ الغَوَانِي أَنْ يَبِيْنَ خَلِيْلُهَا
وَمَا كَانَ رَأْياً مِنْ رُمَيْلَةَ هَجْرُهَا
وَلَا وَفْقُ حَقٍّ أَنْ يُرَدَّ رَسُوْلُهَا»[1]

(١) كتاب الاختيارين: ١٢١.

ثم استمر في حديثه عن «رميلة» لامساً بعض الجوانب من الهجر، وواصفاً لها، جسماً وتصرفاً؛ ثم يتحدث عن ناقته، ويصفها، ويصف سيرها، ومعاناتها في قطع الفيافي؛ ثم أخذ يتكلم عن الخسف والجور، ويمثل بكليب وجساس، وما كان منهما، وما جرَّا على قومهما؛ ثم صرف القول، وفيه تحذير، إلى من سماه أبا عمرو، وكشف له فيه عواقب ما قد يجر إليه الأمر، إلى أن يقول له:

«فَأَرْبَدَ أَنْهَيْتَ الأَعَادِيْ عِشَارَهُ
وتَنْسَى ظُلُولاً عَنْكَ كَانَ يَعُوْلُهَا
وأَخْذُكَ مِنْ تِسْعٍ لَبُونَ ابْنَ رَافِعٍ
بمَظْلُومَةِ الأَرْبَابِ لَغْوًا فَصِيْلُهَا
فعلَّكَ يَوْماً أَنْ تَرُوْعَكَ غَارَةٌ
بشُعْثِ النَّوَاصِيْ يَعْتَلِيْهَا فُحُوْلُهَا

فَتَلْقَى كَمِيّاً عِنْدَ أَوَّلِ مَشْهَدٍ
فَتَنْفَرِجَ الغُمَّى وَأَنْتَ قَتِيلُهَا
وعَلَّ فَتًى يَسْتَأْنِسُ اللَّيْلَ وَحْدَهُ
يذِيقُكَ أُخْرَى قَدْ أَمَرَّ نَسِيلُهَا»

حتى يقول:

«فَيَا رَاكِباً إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ
سرَاةَ قُرَيْشٍ وَهْيَ يُرْجَى فُضُولُهَا
وخُصَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَلَا تَدَعْ
كهُولاً كِرَاماً بِالبِطَاحِ كُهُولها»(١)

ويسير على هذه النغمة حتى نهاية القصيدة، ومعاني القصيدة، ومراميها لا تتضح إلا بمعرفة ما وراءها من خبر.

***

(١) كتاب الاختيارين: ١٣٠.

١٠ - والقصيدة العاشرة هي لعامر بن جوين ، وفي قافيتها شبه بقافيته في قصيدته السابقة ، وهي سوف تساعده على إضفاء لمسة جمال على أبياته ، مثلما فعلت السابقة .

وفي هذه المرة بدأ عامر قصيدته بذكر المرأة ، ورسم صورة لما يعتلج في نفسه مما يأتي في صدور الشعراء عند البدء بالنسيب ، فيقول :

«أَأَظْعَانُ سَلْمَى تِلْكُمُ المُتَحَمِّلَهْ
لتَصْرِمَنِيْ إِذْ خُلَّتِيْ مُتَدَلِّلَهْ
فمَا بَيْضَةٌ بَاتَ الظَّلِيْمُ يَحُفُّهَا
إِلَى جُؤْجُؤٍ حَافٍ بِمَيْثَاءَ حَوْمَلَهْ
ويُفْرِشُهَا بَيْنَ الجَنَاحِ وَدَفِّهِ
ويَثْنِيْ عَلَيْهَا زِفَّ هَدْبَاءَ مُخْمِلَهْ
بِأَحْسَنَ مِنْهَا يَوْمَ قَالَتْ : أَلَا تَرَى؟
تبَدَّلْ خَلِيْلًا إِنَّنِيْ مُتَبَدِّلَهْ

أَلَمْ تَرَ كَمْ بِالْجِزْعِ مِنْ مَلَكَانِنَا
وَكَمْ بِالصَّعِيْدِ مِنْ هِجَانٍ مُؤَبَّلَهْ

وَلَمْ أَرَ شَرْوَاهَا خُبَاسَةَ وَاحِدٍ
وَنَهْنَهْتُ نَفْسِي بَعْدَ مَا كِدْتُ أَفْعَلَهْ

(خُباسة: مغنم، يشير إلى مال أمرئ القيس، واخته هند، وكان امرؤ القيس استجار به بعد مقتل أبيه، ووفى له، ولم يغدر به).

إِذْ أَجَأٌ تَلَفَّعَتْ بِشِعَابِهَا
عَلَيَّ وَأَضْحَتْ بِالعَمَاءِ مُكَلَّلَهْ

(العماء الغيم الرقيق).

وأَصْبَحَتِ العَوْجَاءُ يَهْتَزُّ جيدها
كَجِيْدِ عَرُوْسٍ أَصْبَحَتْ مُتَبَذِّلَهْ

(العوجاء: هضبة تناوح جبلي أجا وسلمى).

وَتُصْبِحُ عَنْ غِبِّ الضَّبَابِ كَأَنَّمَا
تَرَوَّحَ قَيْنُ الهَضْبِ عَنْهَا بِمَصْقَلَهْ»[1]

---

(١) كتاب الاختيارين: ١٣٥.

ويستمر بهذا الفخر حتى نهاية القصيدة.

والقصيدة بدأت بالغزل، ووصف موقف سلمى معه، ورقة الموقف، ونعومة ما قالته، بوصف بديع، رسم فيه صورة معبرة، فجعل موقف الحنان هذا، رغم ما فيه من دعوى للقطيعة، بأنه يشبه حنو ذكر النعام على بيض أنثاه، فهو يربض عليها، ويضمها بين ريش جناحه، وبين ريش صدره، وهذا فيه من النعومة ما فيه.

ثم ينتقل إلى الفخر، ومناعة بلاده بحيث تحميه، وتحمي من يحتمي به؛ ويذكر أجا من بلاد الجبل، والحماة، وسنبس من طيء، ثم يختم بصورة من صور المناعة فيقول:

هُنَالِكَ لَا أَخْشَى تُنَالَ ظَعِينَتِي

إِذَا حَلَّ بَيْتِي بَيْنَ شُوْطٍ وَغَلْغَلَهْ»[1]

(١) كتاب الاختيارين: ١٣٧.

١١ – وفي القصيدة الحادية عشرة صور للكبر رسمت بإتقان، فجاءت ناطقة بما في داخل نفس الشاعر، ومكنون ضميره؛ وقد بدأها الشاعر بمخاطبة المرأة، واستمر يخاطبها إلى آخر القصيدة التي حملها فكره عن الكبر، ويبدأ القصيدة بمدخل مَهَّد به لما أراد خير تمهيد، فقال:

زَعَمَتْ أُمَامَةُ أَنَّنِيْ قَدْ سُؤْتُهَا
وَلَقَدْ أَنَى لِيْ أَنْ أَسُوءَ، وَأَكْبَرَا

وهو في هذا البيت يعطي نفسه الحق في أي أمر يفعله مادام قد كبر، ثم دخل في وصف الكبير وما يأتي منه، وما يأتي عليه، فيقول:

إِنَّ الْكَبِيْـرَ إِذَا يُشَـافُ رَأَيْتَـهُ
مقْرَنْشِعاً وَإِذَا يُهَانُ اسْتَزْمَرَا

وهذه حكمة بالغة، وقول صادق، فالكبير إذا أعطي حقه من التبجيل والاحترام، وأعطي

المكان البارز المجلّ في مجتمعه، بدا نشطاً، أما إذا أهين فإنه ينكمش على نفسه، ويذوي ويذبل، ويصبح من سقط المتاع، و «تنقمع» شوكته، وينزوي؛ ويستمر اليشكري في وصف الكبير عند رحيل القوم، أو عند رعيه للدواب، وما يبدو منه من ضعف عام، وضعف خاص في عينيه إذ يصبح يرى الشخص الواحد شخصين اثنين، وقد يكون مآله إلى العمى.

ويمعن في الوصف، ويقول عن نفسه، مؤكداً امتداد عمره إنه رأى والد من يخاطبها وهو صغير، وأباه شيخاً كبيراً أعسرا، ويفرح بأن يسعف بالماء البارد، وهذا غاية مناه، ويجد صعوبة في شرب الماء؛ صور متتالية معبرة، والأبيات التي جاء فيها هذا الوصف هي:

«وَإِذَا تَرَحَّلَ فِيْ الرَّعِيَّةِ خِلْتَهُ
كَسِلًا، وَعَزَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَذَّرَا

وَإِذَا تَرَاءَى الْقَوْمُ شَخْصاً خَالَهُ
شَخْصَيْنِ، ثُمَّتَ لَمْ يَكُنْ هُو أَبْصَرَا
وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَاكِ وَهُوَ وَلِيْدٌ
وَأَبَاهُ شَيْخاً، مِنْ بُنَانَةَ، أَعْسَرَا

(بُنانة: من ضبيعة بن ربيعة، وهم اليوم من قريش).

يَدْعُو بِبَرْدِ المَاءِ وَهُوَ قُصَارُهُ
فَإِذَا سَقَوْهُ المَاءَ مَجَّ وَغَرْغَرَا»[1]

***

١٢ - وفي القصيدة الثانية عشرة يعمد الأخنس ابن شهاب التغلبي إلى البدء التقليدي وهو ذكر الديار والأطلال، ويأتي بوصف دقيق لتناثر الأطلال في الديار، فيشبهها بالأحرف المكتوبة على رِقّ؛ وفي البيت الثاني يذكر ما شعر به من

(١) كتاب الاختيارين: ١٣٨.

سخنة تشبه حمى خيبر، وهي أشهر مكان للحمى في تلك الأزمان، ولتكمل الصورة ذكر أن النعام منبث بين تلك الأطلال.

ثم بعد هذه المقدمة يدلف إلى أهم وسائل عدة الرحيل فيذكر ناقته، ويصفها وسيرها، ثم يذكر سيفه ويصفه، ثم يصف نفسه، وما هو عليه من حرية في التحرك، ونظرة إلى المال، ثم يدخل في وصف جغرافي، ويبين بعض المواقع، بتفصيل عجيب، ومنازل القبائل من هذه الأماكن، وكأنه مدرس جغرافيا، ويعطي القبائل الصفات المشهورة عنها، ثم يصل إلى وصف قومه وديارهم، وأنهم أهل ترحال، ويصف مقامهم والخيل حول بيوتهم كأنها «معزى الحجاز!» منتشرة لا تحويها زرائب، ولا تحدها حظائر؛ ويصفهن الوصف اللائق بهن مدحاً؛ ويصف الفرسان الذين يركبونها،

وما يأتون به من شجاعة في الحروب ويختمها بقوله:

«فَلِلَّهِ قَوْمٌ مِثْلَ قَوْمِيْ سُوْقَةً
إذَا اجْتَمَعَتْ عِنْدَ المُلُوكِ العَصَائِبُ
تَرَى كُلَّ قَوْمٍ يَنْظُرُوْنَ إِلَيْهِمُ
وتَقْصُرُ عَمَّا يَبْلُغُونَ الذَّوَائِبُ
أَرَى كُلَّ قَوْمٍ قَارَبُوْا قَيْدَ فَحْلِهِم
ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهُو سَارِبُ»[1]

والبيت الأخير فيه صورة من الشجاعة المتناهية، فغير قومه يقيدون فحل إبلهم قيداً قصيراً، حتى لا يتقدم، فيؤخذ في غارة مع الإبل، أما هم فلا يقيدون فحلهم، بل يتركونه سائباً، دليل القوة والشجاعة، والاستهتار بغيرهم، فهم لا يخشون غارة، ولا يخافون أحداً، لمنعتهم.

---

(١) كتاب الاختيارين: ١٤٦.

والقصيدة احتوت على ما تحتوي عليه القصيدة في ذلك الزمن، من البدء في الحديث عن الأطلال، وتشبيهها، والحيوانات التي ترومها، وتدلج فيها؛ ومن ذكر الإبل، والفرسان، والديار وحمايتها، والمفاخرة بالقبيلة أو العشيرة.

* * *

١٣- وفي القصيدة الثالثة عشرة يبدأ مالك ابن زغبة الباهلي أبياته بالنسيب، والمرأة التي يشير إليها هي سلمى، ومثل غيره يذكر أن دارها نأت، وقد تأكد من عزمها البعد عنه عندما رأى رحيل أهلها.

ثم يصف العير، وما عليها من أدم من جلد الظباء، ويصف الظباء، وكأنه يعني النساء، ويأخذ هذا مدخلًا لوصف محبوبته فيصفها، ويصف عوارضها، وبياضها، ونعومة المحبوبة، وبشرتها الصافية، ووجهها ذا التقاسيم الجميلة،

ثم يصف شعرها الكث، إذ من كثرته يكاد يميلها إذا مشت.

ثم يأتي بقول بديع عجيب، فيقول، موحياً بمعنى فريد صادق عن النسيب:

وَمَا كَانَ طِبِّيْ حُبُّهَا غَيْرَ أَنَّمَا
يُقَامُ بِسَلْمَى لِلْقَوَافِي صُدُوْرُهَا

وهذا قول صريح في أن سلمى ليست محبوبة صدقاً، ولكن أُتِي بها للنسيب، وأصول الشعر، جرياً على ما يعمله الشعراء، وما درجوا عليه، ويؤكد هذا بيته التالي:

فَدَعْ ذَا وَلَكِنْ هَلْ أَتَاهَا مُغَارُنَا
بِذَاتِ العَرَاقِي يَوْمَ جَاءَ نَذِيْرُهَا

وهو بهذا يؤكد أنه لا يستطيع أن يستمر في نهج الآخرين، إلا إذا التزم بما يلتزمون به، ولهذا فهو يعود إلى المرأة ليخاطبها مفاخراً بما أقدم

عليه قومه من غارة، والكتيبة التي كانوا فيها، ثم يصف ما كانت عليه الغارة، وتنقصهم لعدوهم، بأخذه من أطرافه، ويصف دور السيوف، وما قامت به من عمل، دون أن تكل أو تتثلم؛ ثم يصف الخيل وحثهم لهن على الإقدام، وتعرضهم للرماح دون مبالاة، ويصف تتالي السهام، التي تتساقط عليهم كأنها الجراد؛ فأشبعوا من قتلى المعركة السباع والنسور في كل الأودية.

ثم يصف حلفاء عدوهم، وهبتهم لنجدتهم؛ ويصف حلفاء قومه، ونجدتهم لهم؛ ويصف ضرب السيوف والجراح، فيأتي بوصف محبب للشعراء، يتفننون في كلماته، ومعانيهم واحدة، فيقول:

بِضَرْبٍ كَآذَانِ الفِرَاءِ فُضُوْلُه
وَطَعْنٍ كإِيْزَاغِ المَخَاضِ تَبُوْرُها[1]

(١) كتاب الاختيارين: ١٥٢.

وآذان الفراء أي آذان حمار الوحش، وهو وصف دقيق للجراح، واللحم معلق ومنفرج، وإيزاغ المخاض: اندفاع البول من الإبل.

ثم يصف ما انتهت إليه المعركة من خذلان عدوهم، وانسحابهم جرحى، ويصف عزة قومه ونجدتهم، وغاراتهم، وحالة من يغيرون عليهم، بعد أن يسلبوهم.

***

١٤- والقصيدة الرابعة عشرة ليزيد بن عمرو الحنفي، ويبدؤها كما هو متوقع بمخاطبة المرأة، ويُحَمِّلُ قصيدته كثيراً من الحكم، وكأنه يبرر لما سوف يصف من أعمال أقدم عليها؛ فهو يبرر، بحكمة، لما فيه من ميل إلى الشر يبدأ به خصمه، والشر يبيت من العدو سراً، والموجه إليه الشر ساهٍ سادر غافل، لا يدري عما يبيت له، مثل الظبي الذي يرعى وهناك

من يترقبه؛ وينتقل إلى حكمة أخرى، ففي نظره أن سوء الحلم لا يُصلِح منه التأديب، ولعله يعتقد أن هذا السوء متمكن من بعض الناس كالغريزة.

ثم يدلف إلى حكمة أخرى، وكأنه يلقي دروساً عن تجربته في الحياة، فيقول: إن من يطول عمره يزيد عقله، لما مر به من تجارب استفاد منها؛ ويردف هذا بحكمة أخرى، وهي أن الإنسان إذا نجا من الموت اليوم فهو يقترب منه غداً؛ وعلى هذا فصاحب الإبل، وهي غالية عنده، سوف يأتيه الموت، فيفارق إبله مرغماً؛ والسالب اليوم مسلوب غداً؛ والأبيات هي:

«لَا أَسْمَعَنَّ بِلَوْمٍ تَعْذِلِيْنَ بِهِ
مَخَافَةَ الشَّرِّ؛ إِنَّ الشَّرَّ مَرْهُوبُ
وَإِنَّ مِنْهُ عَلَى الإِنْسَانِ بَائِتَةً
وَلَا يُغَيِّرُ سُوْءَ الحِلْمِ تَأْدِيْبُ

وَالحِلْمُ عِنْدَ ذَوِي الأَحْلَامِ مَوْعِظَةٌ
وَبَعْضُهُ لِسَفِيهِ الرأْيِ تَأْدِيْبُ
وَمَنْ يَطُلْ عُمْرُهُ لَا تَلْقَهُ غُمُراً
وَفِي الْحَوَادِثِ وَالأَيَّامِ تَجْرِيْبُ
وَكُلُّ يَوْمٍ، إِذَا يَخْلُو، وَلَيْلَتُهُ
مِنَ المَنِيَّةِ لِلإِنْسَانِ تَقْرِيْبُ
وَكُلُّ ذِيْ إِبِلٍ مُوْدٍ وَتَارِكُهَا
وَكُلُّ ذِيْ سَلَبٍ لَابُدَّ مَسْلُوبُ»[1]

ثم بعد هذه التهيئة من أبيات الحكمة بدأ يتحدث عن نفسه وعن حصانه، وصفاء أديمه، وسيولة خده، وأصالة نسبه، ونحافته، بحيث يشبه تيس عشب الربل، ويبدو كأنه مصبوب إلى الأمام إذا نظرت إليه من الخلف، وهذه صفة مستحبة في الخيل، ويستمر في وصف جودة حصانه، وينهي القول بأن هذا الحصان

(١) كتاب الاختيارين: ١٥٤.

هو ما هيأه لملاقاة العدو.

***

١٥- وفي الأبيات التي وردت لربيع بن علباء السلمي مكونة العدد خمسة عشر من هذه المجموعة الشعرية، يدخل الشاعر إلى وصف نفسه، والمفاخرة، مباشرة دون تمهيد؛ فيقول عن نفسه: أنه يعرف المعروف، ويحفظه لأهله، وأنه ذو حسب، وأنه سمح، حين لا يكون أكرم القوم كذلك؛ وهو بكل هذه الصفات يجري على نهج والده، وفي سلسلة نسبه من الأصالة ما يحافظ على الصفات الحسنة، والسجايا الكريمة:

«إِنِّي امْرُؤٌ، أَعْرِفُ المَعْرُوْفَ ذُوْ حَسَبٍ
سَمْحٌ إِذَا حَارَدَ الْقَوْمُ المَقَاصِيْدُ
أَجْرِيْ عَلَى سُنَّةٍ مِنْ وَالِدٍ سَبَقَتْ
وَفِي أُرُوْمَتِهِ مَا يَنْبُتُ العُوْدُ»[1]

---

(١) كتاب الاختيارين: ١٥٨.

ثم ينتقل إلى فخر آخر، وهو أنه مطالب بثارات، ولكنها لن يوصل إليه فيها، فهو في منعة من أن يصل إليه عدوه؛ وهو محسود، مثلما كل عاقل محسود؛ فصفاته أعجزت كل من أراد أن يمسها بسوء؛ وهو إذا كان ـ كما قال في مطلع أبياته ـ يعرف المعروف، فعنده لصالح قومه كثير من الأقوال والأفعال، يحمد المحسن، ويذم المسيء.

***

١٦ - وفي القصيدة السادسة عشرة تأتي أبيات عمرو بن الأطنابة المشهورة، التي على كل لسان، وتمثل بها كثيرون لصدقها، وقوتها، وهي من السهل الممتنع حقاً، وهي أبيات يوجهها إلى الأحلاف، كما جاء في أول بيت، والأبيات:

أَلَا مَنْ مُبْلِغ الأَحْلَافِ عَنِّي
فَقَدْ تُهْدَى النَّصِيحَةُ للنَّصِيحِ

وفي هذا البيت من السلاسة، والنغمة الراقصة ما جعله مطرباً، وقيمته في هذا، وفي ختام البيت بهذه الحكمة الصادقة، بأن النصيحة قد تهدى لمن يقبلها، ويعمل بها:

فَـإِنَّكُـمْ وَمَـا تُـزْجُـوْنَ نَحْـوِيْ
مِنْ القَوْلِ المُرَغَّى والصَّرِيْحِ

هذا البيت جملته الاستعارة، إذ لم يقل الشاعر عما يقوله أعداؤه عنه: قولكم الظاهر والباطن؛ وإنما استعار صفة من صفات اللبن ورغوته، واللبن ولا رغوة له؛ فهذا تغطيه الرغوة، وهذا واضح للعيان.

سَيَنْـدَمُ بَعْضُكُـم عَجِـلًا عَلَيْـهِ
ومَا أَثْرَى اللِّسَانُ إِلَى الجُرُوْحِ

حصاد الألسن يأتي بالندم، وينتهي بالأسف، وجرح اللسان أشد من جرح السنان.

أَبَتْ لِيْ عِفَّتِي وَأَبَى بَلَائِي
وَأَخْذِي الحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيْحِ

وبدأ يعدد الفضائل التي تحكمه، فبدأ بهذا البيت وأن ما يحكمه هي عفته وإقدامه، ودفع الثمن الغالي لكسب الحمد، وكرمه وقت الحاجة، وضرب رأس البطل المجد، ثم يصف السيف الذي يضرب به، والنفس الصافية التي يحملها، ولا تقبل القبيح، ولا تسكت عليه، ولا تغضي عنه، وتهدئة نفسه كلما جاشت، لأن هذا يريحها، وتحمد فعلها هذا.

وهذا كله يعمله ليُبقي المآثر المحمودة التي عرف بها، وليحمي عرضه، ويعود فيؤكد إرخاصه المال لما يطلبه قومه، ويدفع عنهم من به شر، والأبيات هي:

وَإِعْطَائِي عَلَى المَكْرُوْهِ مَالِي
وَضَرْبِي هَامَةَ البَطَلِ المُشِيْحِ

بِذِي شُطَبٍ كَلَوْنِ المِلْحِ صَافٍ
وَنَفْسٍ مَا تُقَرُّ عَلَى القَبِيْحِ

وَصْفُ السيف بذي الشطب، وأنه صاف أبيض كالملح، وصف للسيف أغرم به الشعراء؛ لعله بدأه واحد منهم فأعجب الشعراء به، فرددوه في شعرهم، بصور مختلفة.

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ
مكَانَكِ تُحْمَدِيْ أَوْ تَسْتَرِيْحِي
لَأَدْفَعَ عَنْ مَآثِرَ صَالِحَاتٍ
وأَحْمِيْ بَعْدُ عَنْ عِرْضٍ صَحِيْحِ
أُهِيْنُ المَالَ فِيْمَا بَيْنَ قَوْمِي
وأَدْفَعُ عَنْهُمُ سُنَنَ المَنِيْحِ

وعمر بن الاطنابة سار على النهج الذي يسير عليه أهل زمنه في تعداد المفاخر، ولمس الجوانب التي يلمسها أمثاله، والتي عادة تكون مسقط

فخرهم واعتزازهم.

***

١٧ - وفي القصيدة السابعة عشرة يأتي مالك ابن القين الخزرجي ببعض الحكم، وكأنه يريد مثل غيره أن يجعل لشعره قيمة إذا اشتملت على مظهر من مظاهر الفكر، التي تدل على حضارة، وعلى عمق في النظرة إلى الحياة، نتيجة التجارب، والتبصر بالأمور التي تمر بالمرء بعمق وتروٍّ، فيقول:

«إِذَا أَنْتَ حَمَّلْتَ الخَؤُوْنَ أَمَانَةً
فَإِنَّكَ قَدْ اسْنَدْتَهَا شَرَّ مَسْنَدِ
فَلَا تُظْهِرَنْ ذَمَّ امْرِئٍ قَبْلَ خَبْرِهِ
وبَعْدَ بَلَاءِ المَرْءِ فَاذْمُمْ أَوْ احْمَدِ
ولَا تَتْبَعَنْ رَأْيَ الضَّعِيفِ تَقُصُّهُ
ولٰكِنْ بِرَأْيِ المَرْءِ ذِيْ العَقْلِ فَاقْتَدِ»

ثم ينتقل للحديث عن نفسه ويتبع ذلك بحكمة صادقة، فيقول:

«تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوْتَ، وَإِنْ أَمُتْ
فتِلْكَ سَبِيْلٌ لَسْتُ فِيْهَا بِأَوْحَدِ
وقَدْ عَلِمُوا لَوْ يَنْفعُ العِلْمُ عَنْدَهُمْ
لئِنْ مِتُّ مَا الدَّاعِي عَلَيَّ بِمُخْلَدِ
فقُلْ لِلَّذِيْ يَبْقَى خِلَافَ الَّذِيْ مَضَى
تجَهَّزْ لأُخْرَى مِثْلَهَا، فَكَأَنْ قَدِ
لعَلَّ الَّذِيْ يَرْجُو رَدَايَ وَيَدْعِي
بِهِ قَبْلَ مَوْتِي أَنْ يَكُوْنَ هُوَ الرَّدِي
فمَا عَيْشُ مَنْ يَبْقَى وَرَائِي بِضَائِرِي
ومَا مَوْتُ مَنْ قَدْ مَاتَ قَبْلِيْ بِمُخْلِدِي
ولِلْمَرْءِ أَيَّامٌ تُعَدُّ وَقَدْ رَعَتْ
حبَالُ المَنَايَا لِلْفَتَى كُلَّ مَرْصَدِ»[1]

(١) كتاب الاختيارين: ١٦١.

وحديثه عن الموت فلسفي، وفيه تدبر، وفيه عظة، وقد تتبع فكرة عدم الخلود في جميع اتجاهاتها، ليقنع من يخاطبهم بأنه لا يخشى الموت، وأنه يعرف أنه حق، وأنه لابد آت، وقد يموت المرء قبل غيره، وقد يَدْفِن غيره، فالموت ليس في أيدي الناس؛ ولهذا فلا يفرح من يظن أنه يخشى الموت، أو يظن أنه يعتقد أنه يمكن أن يتفاداه.

وهذه الأبيات لم تبدأ بالنسيب، ولم تذكر فيها المرأة على نسق ما يحرصُ عليه الشعراء، ولعل الفكرة طغت على الشعور فتجاهلت ما عداها، وركزت على جانب الحِكَم؛ إلا إذا كان من اختار الأبيات أسقط أولها، واختار ما يدخل في الصميم رأساً.

***

١٨ - وهذا منهج نراه لدى يزيد بن الصامت

الشنّى في الأبيات الثامنة عشرة، فقد عمد الشاعر رأساً إلى طرق الفكرة دون تمهيد لها بالنسيب، أو التشبيب بالمرأة؛ وقد فصل فيها أخلاقه التي تحكمه في حياته مع مجتمعه، فأبان حسن سيره، وأنه لا يخطئ، ثم يحمل غيره ذنب خطئه، ولا «يهفي» نسبه ليشبع بطنه، ولا يخون جاره مع زوجته، ولا يدعي فعل ما قد لا يستطيعه، وليس ممن يهرب من مسؤوليته، أو مِنْ نجدة المحتاج؛ وليس ممن إذا هدأ الأمر بَيَّنَ نفسه، بعد أن اختفى وقت الحاجة.

وهي أبيات قيمة، ترسم صوراً مضيئة للخلق والفضيلة، التي كانت تتسم بها مجتمعات البادية، وتبين القيم التي هي مصدر فخرهم؛ والتي يفضل بها بعض الناس بعضاً، والأبيات على قصرها حبلى بما يرفع رأس قائلها، وهي:

«لَا أَجْتَنِي الذَّنْبَ لِلْمَولَى لأَجْرِمَهُ
وَلَا أُضِيْعُ لِطُوْلِ البِطْنَةِ الحَسَبَا
وَلَا أُخَادِعُ جَارِيْ عَنْ خَلِيْلَتِهِ
وَلَا يَرانِي لَهَا زِيْراً إِذَا ذَهَبَا
وَلَا أَقُوْلُ لِشَيْءٍ سَوْفَ أَفْعَلُهُ
وَلَسْتُ أَعْلَمُ مَا فِيْهِ إِذَا حَزَبَا
يَنْأَى القَرِيْبُ وَقَدْ مُدَّ الأَكُفُّ لَهُ
حَتَّى يَفُوتَ، وَيَدْنُو بَعْدَمَا نَضَبَا»(١)

***

١٩- والقصيدة التاسعة عشرة للحارث ابن مسهر الغساني، وأبرز معلم فيها أنه عدد مفاخره عن طريق مخاطبة المرأة، وهي هنا أم عمرو، وأول أبيات المخاطبة قوله:

(١) كتاب الاختيارين: ١٦٣.

«أَلَا، يَا أُمَّ عَمْرٍو، لَا تَلُومِي
وَأَبْقِـيْ إِنَّمَـا النَّـاسُ هَـامُ»(١)

***

٢٠- ثم في القصيدة العشرين يسلك رجل من بني ضبة المسلك نفسه، فيخاطب بمفاخره امرأة اسمها سوداء، ويأتي ببعض الحكم، التي حكمت سيره في الحياة، ومنها أن الغنى يوجب الكرم، وعدم الكرم محاذيره عَدَّدَها بقوله:

«إِذَا أَنْتَ أُعْطِيْتَ الغِنَى، ثُمَّ لَمْ تَجُدْ
بِفَضْلِ الغِنَى أُلْفِيْتَ مَالَكَ حَامِدُ
وَقَلَّ غَنَاءًا عَنْكَ مَالٌ جَمَعْتَهُ
إِذَا صَارَ مِيْرَاثاً وَوَارَاكَ لَاحِدُ»(٢)

عدم الكرم على هذا مذمة، والمال الذي

(١) كتاب الاختيارين: ١٦٤.
(٢) كتاب الاختيارين: ١٦٨.

لا ينفق مآله للوارث، وتحمل أذى الأقارب يحمي من أذى الأباعد، والحلم يحمي من نتائج الغضب؛ والعزم يأتي بالمكاسب، والتردد يجلب الخسارة.

***

٢١- والحكم والنصائح والعتاب على هذا النسق تأتي في القصيدة الواحدة والعشرين لحضرمي بن عامر الأسدي، يدخل رأساً فيها إلى غرضه، ويوجه اللوم على شخص آخر، وأنه من كثرة شتمه لصديقه، ونَبْزه له بالألقاب، انحط حديثه، ولم يعد يسمع له، مثله مثل طنين الذباب:

«مَازَالَ إِهْدَاءُ الهَوَاجِرِ[١] بَيْنَنَا
شَتْمُ الصَّدِيْقِ، وَكَثْرَةُ الأَلْقَابِ

(١) الهواجر: جمع هجر، وهو القبيح من الكلام.

حَتَّى تُرِكْتَ كَأَنَّ صَوْتَكَ فِيْهُمُ
فِيْ كُلِّ مَجْمَعَةٍ طَنِيْنُ ذُبَابِ
أَفْسَدْتَ جُنْدَكَ مِنْ صَدِيْقَك فَالْتَمِسْ
جَيْشاً تُجَمِّعُهُمْ مِنَ الأَوْغَابِ[1] »[2]

ويستمر منبهاً إلى أن ما يسعى إليه المخاطب يدعو إلى الفرقة بين الأقارب، والأصدقاء، ويقارنه بنفسه، إذ قد تحمله على فساده، حتى يجده عند الحاجة لمقابلة الأبعدين، ثم يأتي بزبدة القول، فيقول في الشطر الثاني في آخر بيت:

«كَيْمَا أُعِدُّكُمُ لأَبْعَدَ مِنْكُمُ
وَلَقَدْ يُجَاءُ إِلَى ذَوِي الأَلْبَابِ»[3]

***

٢٢- ومخاطبة آخر بما في النفس تأتي في

---

(١) الأوغاب: الضعفاء.

(٢) كتاب الاختيارين: ١٦٩.

(٣) كتاب الاختيارين: ١٧٠.

الأبيات في القصيدة الثانية والعشرين، بدؤها:

«طَـــالَ الثَّـــوَاءُ بِمَـــأْرِبِ
وَظَنَنْـــتُ أَنِّـــي غَيْـــرُ رَائِـــمْ

مَـــنْ مُبْلِـــغٌ عَـــوْفَ بْـــنَ لأَ
يٍ حَيْـــثُ كَـــانَ مِـــنَ الأَقَـــاوِمِ

أَنِّـــيْ غَـــدَوْتُ، وَكُنْـــتُ لاَ
أَغْـدُو، عَلَـى وَاقٍ وَحَـاتِـمِ»[1]

[الواق: طائر الصُّرَّد، وحاتم الغراب].

لعله يشير إلى التشاؤم بالطير إذا مرت يساراً، والتفاؤل إذا طارت يميناً، لأنه يقول بعد ذلك:

«فَـــإِذَا الأَشَـــائِـــمُ كَـــالأَيَـــا
مِـــنِ وَالأَيَـــامِـــنُ كَـــالأَشَـــائِـــمْ

ثم يقول:

---

(١) كتاب الاختيارين: ١٧١.

«وَكَـــذَاكَ لاَ خَيْـــرٌ وَلَا
شَـــرٌّ عَلَـــى أَحَـــدٍ بِـــدَائِـــمْ

لما تبين له تساوي الأمور، وأن ما يظنه الناس يؤثر، لا يؤثر، حتى الخير لا يدوم، ومثله الشر لا يدوم؛ ولهذا على المرء أن يقبل على الخير وفعله، ولا يظن أن تعقيد التمائم تنفعه، أو تضره، أو تمنعه؛ وينبذ ما تعارف عليه الناس، من التشاؤم بالعطاس، والتيامن بالحظوظ:

«لَا يَمْنَعَنَّـــكَ مِـــنْ بُغَـــا
ءِ الخَيْـــرِ تَعْقِيـــدُ التَّمَـــائِـــمْ
وَلَا التَّشَـــاؤُمُ بِـــالْعُطَـــا
سِ وَلَا التيَمُّنُ بِـالْمَقَـاسِـمْ»(١)

***

٢٣- وعن الغربة والتغرب يقول الأخنس

---

(١) كتاب الاختيارين: ١٧٢.

ابن شهاب التغلبي في القصيدة الثالثة والعشرين، ويخاطب بأفكاره المرأة ليلى، واعتراضها على سفره واغترابه، وأنه لا يحتاج إلى ذلك، إذ رزقه، وما يحتاجه للصرف عليها، مقيم بين يديه؛ فالإبل النجيبة عنده، لم يرثها من صديق، وهي منتقاة من إبل بني غراب، وهم بطن من طيء، يرعاها بحصان أصيل، وهي إبل نجيبة تقربه من قومه إذا أراد، وتبعده إذا أراد.

يقول في مطلعها:

«صَحَا قَلْبِي الغَدَاةَ عَنِ التَّصَابِي
وَبُـدِّلَ لَهْـوُهُ طُـوْلَ انْتِصَـابِ
تَقُـوْلُ لِـيَ ابْنَـةَ الكَعْبِـيِّ لَيْلَـى
أَجِـدَّكَ لَا تَمَـلُّ مِـنِ اغْتِـرَابِ»

ويقول عن إبله:

«تُبَاعَدُنِي إِذَا مَا شِئْتُ مِنْهُم
وَتُدْنِيْنِي إِذَا كَرِهُو اقْتِرَابِي

وَتُصْدِرُنِي كَمَا قَدْ أَوْرَدْتَنِي
كَأَنِّي بَيْنَ خَافِيَتي عُقَابِ»[1]

***

٢٤- وفي القصيدة الرابعة والعشرين يبدأ عمارة بن صفوان بن الحارثة أبياته بمخاطبة المرأة، مستهلاً مخاطبتها بحكمة:

أَجَارَتَنَا مَنْ يَجْتَمِعْ يَتفَرَّقِ
وَمَنْ يَكُ رَهْناً لِلْحَوادِثِ يغْلَقِ

[يغلق: ينقطع عن فك الرهن].

ثم يحشر ناقته حشراً بين هذه الحكمة وبين حكمة قادمة، يعود بعدها إلى ناقته، والحكمة الثانية يقول فيها:

«أَجَارَتَنَا، كُلُّ امْرِئٍ سَتُصِيبُهُ
حَوَادِثُ إِلاَّ تكْسِرِ العَظْمَ تَعْرُقِ»

(١) كتاب الاختيارين: ١٧٣.

[تعرق، تقضي على اللحم].

«وَتَفَرُّقُ بَيْنَ النَّاسِ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمْ
وَكُلُّ جَمِيعٍ صَالِحٌ لِتَفَرُّقِ
فَلَا السَّالِمُ البَاقِيْ عَلَى الدَّهْرِ خَالِدٌ
وَلَا الدَّهْرُ يَسْتَبْقِي حَبِيباً لِمُشْفِقِ»(١)

ثم يعود بعد ذلك لوصف ناقته.

***

٢٥- أما القصيدة الخامسة والعشرين، فهي عن النخلة، قالها رجل من بني العنبر، يقول فيها:

«لَنَا لِقْحَةٌ بِالْمَاءِ تُغْذَى بَنَاتُهَا
إِذَا بَرَكَتْ فِي مَنْزِلٍ لَمْ تَحَوَّلِ»

من لا يدري أن هذا عن النخلة يظن أن هذه

(١) كتاب الاختيارين: ١٧٦.

اللقحة ناقة، ويزيد الوهم هذا قوله إذا بركت؛ ثم يبدأ يقترب أكثر فأكثر من صفة النخلة، فيقول:

«تَدَحَّى، وتَسْمُو فِي السَّمَاءِ بِرأْسِها
وإِنْ هَبَّ يَوْمٌ شَأْمَلٌ لَمْ تَحَلَّلِ
لهَا أَخَوَاتٌ، حَوْلَهَا، مِنْ بَنَاتِهَا
جوَازِئ لَا تُلْقَى بِبَيْدَاءَ مَجْهَلِ
قِيَامٌ حَوَالَي فَحْلِهَا، وَهَو قَائِمٌ
تلَقَّحُ مِنْهُ وَهُوَ عَنْهَا بِمَعْزِلِ
ترَى الشَّارِبَ السَّكْرَانَ مِنْ حَلَبَاتِها
إذَا رَاحَ يَمْشِيْ مِثْلَ مَشْيِ المُخَبَّلِ»[1]

وهذه القصيدة تصلح أن تلقى على أنها لغز، وسيظن من يسمعها، دون أن يعرف أنها عن النخلة، أن المقصود الناقة، كما قلنا سابقاً،

(١) كتاب الاختيارين: ١٧٨.

لورود كلمة «القحة» ، وكلمة «بركت» ، وكذلك فيما بعد كلمة «قيام، حولها فحلها» .

* * *

٢٦- والقصيدة السادسة والعشرون طريفة، لأنها تصف راكباً سرى ليله، حتى أضناه التعب، فنام، فأيقظه آخر، وسريا معاً، وفي القصيدة صور ناطقة بالمراد، رسمت بدقة، بدأها بقوله :

«وَأَغْيَدَ مَيَّالٍ عَلَى حِنْوِ رَحْلِهِ
تُشَبِّهُهُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ هُدْهُدَا»(١)

ويختمها بقوله واصفاً تمتعهما بمسراهما ليلًا :

«فَيَا لَيْتَ هَذَا الصُّبْحَ ضَلَّ ضَلَالُهُ
وَيَا لَيْتَ هَذَا اللَّيْلَ يَمْتَدُّ سَرْمَدَا»(٢)

* * *

---

(١) كتاب الاختيارين : ١٧٩ .

(٢) كتاب الاختيارين : ١٨٠ .

والقصيدة السابعة والعشرون قصيدة ثمينة، لأنها تدعو إلى السلام، وبأفكار رصينة، وأقوال مقنعة، وتصدر عن ما يبدو أنه نفس خيره، وقيل إنها لابن حبناء: بلعاء بن قيس بن عبدالله ابن يعمر بن عوف الكناني، يقول فيها أن البغي قبيح كاسمه، وأسباب الهلاك إذا جاءت صدت عن الحزم، ويدعو أبا أروى إلى السلم، إما عن طريق الفكر السليم أو التحكيم، فالحرب سيئة، وتجر إلى أسوأ، وتأخذ الناس على غفلة، حتى إذا كان هناك غانمون، فلابد من قتلى، أو جرح عميق، وقد تكون يا أبا أروى منهم، ولكن يبدو أن أبا أروى اخْتار الحرب، وتلاقت الفرسان، وتقاتل الطرفان، وكان من ضحايا هذه الحرب أبو أروى؛ والأبيات مُطربة:

«دَعَوْتُ أَبَا أَرْوَى إِلَى السِّلْمْ كَيْ يَرَى
بِرَأْيٍ، أَصِيْلٍ، أَوْ يَؤُوْلَ إِلَى حُكْمِ

وَمَوْلًى دَعَاهُ البَغْيُ وَالبَغْيُ كَاسْمِهِ

ولِلْحَيْنِ أَسْبَابٌ تَصُدُّ عَنِ الحَزْمِ

أَتَانِيْ يَشُبُّ الحَرْبَ بَيْنِيْ وَبَيْنَهُ

ولِلْحَيْنِ أَسْبَابٌ تَصُدُّ عَنِ الحَزْمِ

وإِيَّاك والْحَرب الَّتِيْ لاَ أَدِيْمُهَا

صَحِيْحٌ، وَقَدْ تُعْدِي الصِّحَاحَ عَلَى سُقْمِ

ولَكِنَّهَا تَسْري إِذَا نَامَ أَهْلُهَا

فتَأْتِي عَلَى مَا لَيْسَ يَخْطُرُ بِالْوَهْمِ

فإِنْ ظَفِرَ القَوْمُ الأُلَى أَنْتَ فِيْهِمُ

فَآبُوا بِفَضْلٍ مِنْ سَنَاءٍ وَمِنْ غُنْمِ

فَلاَبُدَّ مِنْ قَتْلَى فَلَعَلَّكَ فِيْهِمُ

وإِلَّا فَجُرْحٌ لاَ يَجِنُّ عَلَى العَظْمِ

فلَمَّا رَمَى شَخْصِيْ رَمَيْتُ سَوَادَهُ

ولَابُدَّ أَنْ يُرْمَى سَوَادُ الَّذِي يَرْمِي

فكَانَ صَرِيْعَ الخَيْلِ، أَوَّلَ وَهْلَةٍ
فَيَا لَكَ مِنْ مُخْتَارِ جَهْلٍ عَلَى حِلْمِ»[1]

***

٢٨- والأعور بن يزيد الكلابي في القصيدة الثامنة والعشرين، ينحو نحو سابقه في ترجيح المهادنة، والميل إلى السلم؛ ولا ينصاع للمشاتمة؛ والأسباب، والحال، تشرحهما الأبيات:

«أَضَاءَ الصُّبْحُ فِي يَمَنٍ وَشَامٍ
لِذِيْ عَيْنَيْنِ وَانْقَطَعَ الكَلَامُ
وَقَالَ النَّاسُ: إِنَّ بَنِيْ كِلَابٍ
هُمُ الرَّأْسُ المُقَدَّمُ والسَّنَامُ
فَلَسْتُ بِشَاتِمٍ كَعْباً وَلٰكِنْ
عَلَى كَعْبٍ وَشَاعِرِهَا السَّلَامُ
فَكَائِنْ فِي القَبَائِلِ مِنْ قَبِيْلٍ
أَخُوْهُمْ فَوْقَهُمْ وهُمُوا كِرَامُ

(١) كتاب الاختيارين: ١٨٢.

بَنَانَا اللهُ فَوْقَ بَنِي أَبِيْنَا
كَمَا يُبْنَى عَلَى الثَّبَجِ السَّنَامُ»(١)

[الثبج: نتوء ما بين الكتفين والكاهل].

والأبيات راقصة، ودخل فيها الشاعر إلى موضوعها رأساً دون تمهيد، ولم يشبب، أو يأتي بنسيب؛ وقد تكون الأبيات اختيرت مما هو أطول مما دون هنا.

***

٢٩- والقصيدة التاسعة والعشرون لبشر ابن سلوة، وفيها عتب، وتذكير، يبدؤها بقوله:

«وَلَقَدْ أَمَرْتُ أَخَاكِ عَمْراً أَمْرَهُ
فَعَصَى وَضَيَّعَهُ بِذَاتِ العُجْرُمِ»(٢)

ثم يصف تلاقي الفئتين في المعركة، ودور

---

(١) كتاب الاختيارين: ١٨٣.

(٢) كتاب الاختيارين: ١٨٤.

الخيل والفرسان، وجاء بصور بديعة معبرة عن بعض الأشلاء مثل قوله :

«وَكَـأَنَّمَـا أَقْـدَامُهُـمْ وَأَكُفُّهُـمْ
كَرَبٌ، تَسَاقَطَ فِيْ خَلِيْجٍ مُفْعَمِ»[1]

ويستمر في وصف أجواء المعركة، وحركة القتال، والمناداة، وتدفق العشائر، وعمل السلاح وأثره بصور رسمت بدقة.

***

٣٠- والقصيدة الثلاثون لطريف العنبري، الشاعر الجاهلي، أول من استقبح لثام الفارس في أسواق العرب، ولهذا قال هذه القصيدة، عندما رأى الفرسان يتفرسون في وجهه، ومطلعها :

«أَوَ كُلَّمَا وَرَدَتْ عُكَاظَ قَبِيْلَةٌ
بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيْفَهُم يَتَوَسَّمُ»

(١) كتاب الاختيارين : ١٨٥ .

ثم يقول:

«فَتَوَسَّمُونِي ، إِنَّنِي أَنَا ذَاكُمُ
شَاكٍ سِلَاحِي فِي الحَوَادِثِ مُعْلَمُ»[1]

إلى أن يقول في نهاية الأبيات:

«وَلِكُلِّ بَكْرِيٍّ لَدَيَّ عَدَاوَةٌ
وَأَبُو رَبِيعَةَ شَانِئٌ وَمُحَرَّمُ»[2]

* * *

٣١- ويأتي الرد على طريف في القصيدة الواحدة والثلاثين من عمرو بن حني التغلبي، خصم طريف، ويبدؤها بقوله:

«وَلَقَدْ دَعَوْتَ، طَرِيْفُ، دَعْوَةَ جَاهِلٍ
سَفَهاً، وَأَنْتَ بِمَنْظَرٍ، لَوْ تَعْلَمِ»[3]

---

(١) كتاب الاختيارين: ١٨٩.
(٢) كتاب الاختيارين: ١٩٠.
(٣) كتاب الاختيارين: ١٩١.

ثم يذكر تلاقيهما في صدام معركة، ويصف الجيوش، وينهي أبياته بقوله، واصفاً نهاية طريف:

سَلَبُوكَ دِرْعَكَ، وَالأَغَرَّ كِلَيْهِمَا
وَبَنُو أُسَيْدٍ أَسْلَمُوكَ وَخَضَّمُ»[1]

وقد قتل طريف في يوم مبايض.

ويستمر المؤلف في اختيار الأبيات التي على هذا النمط، فيها تهديد، وفيها وعيد، وفيها فخر بأخذ الثأر، أو انزال الهزيمة بعدوّ باغٍ معتدٍ.

***

٣٢- وتأتي القصيدة الثانية والثلاثون، تالية للسابقة، سارية على هذا المنوال، مضيفة صوراً جديدة، ومعددة حوادث أخرى،

(١) كتاب الاختيارين: ١٩٢.

مسجلة جزءاً من تاريخ العرب في هذه الفترة، بعضهم مع بعض، وبعضهم مع جيرانهم ممن استقر، وأصبح من أهل المدر؛ والحارث بن ظالم قتل ابن عمرو بن الحارث الذي كان في حَجْر سنان، وسلمى امرأة سنان بن أبي حارثة، وهي بنت ظالم، أخت الحارث، ويعدد من قتلهم، ويهدد بقتل غيرهما، ممن هو أعز منهما وأقوى، ويبدأ الأبيات بالبيت الآتي:

«قِفَا، فَاسْمَعَا، أُخْبِرْكُمَا، إِذْ سَأَلْتُمَا
مُحَارِبُ مَوْلَاهُ، وَثَكْلَانُ نَادِمُ»[1]

يقول إنه هو الذي قتل مولاه أي ابن عمه، وأن والد القتيل نادم على ما بدر منه، وما جرى عليه من ثكل.

وينهي الأبيات بالتوعد الآتي:

---

(١) كتاب الاختيارين: ١٩٣.

«بَدَأْتُ بِهٰذِي وَانْثَنَيْتُ بِتِلْكُمُ
وَثَالِثَةٌ تَبْيَضُّ مِنْهَا المَقَادِمُ»[1]

❊ ❊ ❊

٣٣- وفي القصيدة الثالثة والثلاثين نعود مع مالك بن زغبة الباهلي إلى مخاطبة المرأة في مطلع القول، ليلج من ذلك إلى الافتخار بسيفه، وفعله، ثم يدلف من ذلك إلى فرسه، وأصالتها، وعملها، في الصيد والحرب، ثم يصف فعلهم هو وقومه في الحروب، ويعود إلى فعل الفرس، وما يكسبونه منها، ومن فعالهم، وأول الأبيات:

«أَنَوْراً، سَرْعَ مَاذَا، يَا فَرُوْقُ؟
وَحَبْلُ الوَصْلِ مُنْتَكِثٌ، حَذِيْقُ»[2]

---

(١) كتاب الاختيارين: ١٩٥.

(٢) كتاب الاختيارين: ١٩٦.

وأنوراً، تعني: أنفاراً، ترى هل اسم النَّوَرِ الحديث مأخوذ منها، لنفارهم من الاختلاط بغيرهم من القبائل التي لا يتصلون بها نسباً، أو لأن بقية القبائل ينفرون منهم؟ وفروق: هي المرأة المخاطبة، وهي سبورة لشرح مجالات فخره!

***

٣٤- وأفنون واسمه صريم بن معشر التغلبي له الأبيات الرابعة والثلاثون، وهي أبيات عتب فيها على قومه، لأنهم اطّرحوه، وطيبهم جاء لغيره، يقول في أولها:

«بَلِّغْ حُيَيّاً، وَخَلِّلْ فِيْ سَرَاتِهِمُ
أَنَّ الفُؤَادَ انْطَوَى مِنْهُمْ عَلَى حَزَنِ»[1]

***

(١) كتاب الاختيارين: ٢٠٣.

٣٥- والقصيدة لعلباء بن أرقم، وهي الخامسة والثلاثون، ولتفهم القصيدة يحسن أن نذكر أن النعمان قد حمى كبشاً، فوثب عليه علباء، فذبحه، فحُمِلَ إلى النعمان.

بدأ القصيدة بمخاطبةٍ عن زوجته، وما جاء منها، وما قاله لها، من تهديد، ووعيد، مقابل موقفها منه، ثم يمهد بهذا للاعتذار من النعمان، وكأنه يوحي بأنه لم يعرف أن التيس كان محمياً، لأنه لا علامة تدل على ذلك، ثم يصف الأسباب التي جعلته يذبح الكبش، وما فعلوا به بعد ذبحه هو وصحبه، ثم يرد على من خوفه بالنعمان، بأن النعمان خلاف ما يظنون في العفو والكرم.

والقصيدة طريفة، وتمثل واقعة نادرة، تري تصرف الجاني، ونظرته للحكام القادرين على أخذه بما فعل، وتكشف جانباً مما يجري في الصحراء من القحط والجوع، وما يؤدي إليه

ذلك، وتعطي نموذجاً لدقة الوصف، وجماله، والدخول في تفاصيل، دخولًا يدل على اهتمام بهذه الجوانب، يقول في مطلع الأبيات:

«أَلَا تِلْكُمَا عِرْسِي تَصُدُّ بِوَجْهِهَا
وَتَزْعُمُ فِيْ جَارَاتِهَا أَنَّ مَنْ ظَلَمْ
أَبُوْنَا، وَلَمْ أَظْلِمْ بِشَيْءٍ عَلِمْتُهُ
سِوَى مَا تَرَيْنَ فِيْ القَذَالِ مِنَ القِدَمْ»[1]

ويستمر في خطابه لها، ويحدد مواقع الخلاف معها، فيقول:

«فَيَوْماً تُوَافِيْنَا بِوَجْهٍ مُقَسَّمٍ
كَأَنْ ظَبيَةٌ تَعْطُو إِلَى نَاضِرِ السَّلَمْ
وَيَوْماً تُرِيْدُ مَا لَنَا مَعَ مَالِهَا
فَإِنْ لَمْ نُنِلْهَا لَمْ تُنِمْنَا، وَلَمْ تَنَمْ
نَبِيْتُ كَأَنَّا فِيْ خُصُومِ غَرَامَةٍ
وَتَسْمَعُ جَارَاتِي التَأَلِّيَ والقَسَمْ

(١) كتاب الاختيارين: ٢٠٥.

فَقُلْتُ لَهَا: إِلَّا تَنَاهَيْ فَإِنَّنِي
أَخُوْ النُّكْرِ حَتَّى تَقْرَعِي السِّنَّ مِنْ نَدَمْ»

ومن هذا ينتقل إلى النعمان معتذراً، ومستنزلاً عفوه، مبرراً فعله هو، مقللاً من أهمية الكبش، ويقص ما حدث، ولا يغفل عن وصف مسهب عن الذبح، والشوي، ومقابلة حاجة صحبه بذلك:

وَأَيُّ مَلِيْـكٍ فِـيْ مَعَـدٍّ عَلِمْتُـمُ
يُعَذِّبُ عَبْداً ذِيْ جَلَالٍ وَذِيْ كَرَمْ؟
أَمِنْ أَجْلِ كَبْشٍ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَ قَرْيَةٍ
وَلَا عِنْدَ أَذْوَادٍ رِتَاعٍ وَلَا غَنَمْ
يُمَشِّيْ كَأَنْ لَا حَيَّ بِالْجِزْعِ غَيْرَهُ
وَيُوْفِي جَرَاثِيمَ الْمَخَارِمِ وَالأَكَمْ
بَصُرْتُ بِهِ يَوْماً وَقَدْ كَادَ صُحْبَتِي
مِنَ الجُوْعِ أَلَّا يَبْلُغُوا الرَّجْمَ مِلْوَحَمْ»

وبعد وصف ضاف لما تم بعد ذبح الكبش، يبدأ في التعذر إلى النعمان، فيقول:

«أُخَوَّفُ بِالنَّعْمَانِ حَتَّى كَأَنَّمَا
قَتَلْتُ لَهُ خَالاً كَرِيماً، أَوْ ابْنَ عَمّ

وَإِنَّ يَدَ النَّعْمَانِ لَيْسَتْ بِصَعْبَةٍ
وَلَكِنْ سَماءٌ تُمْطِرُ الوَبْلَ وَالدِّيَمْ»[1]

***

٣٦- والقصيدة السادسة والثلاثون، قصيدة مشهورة، وهي قصيدة ذات نغم راقص، عضده في الإطراب والقبول قافية منعشة، ومجملها فخر، يفصل فيها الشاعر عن نفسه، وما يأتي به من موجبات الرجولة، ويبدأ القصيدة بالبيت الآتي:

يقول الشاعر عمرو بن قِعاس المرادي:

---

(١) كتاب الاختيارين: ٢٠٩.

«أَلَا يَا بَيْتُ بِالْعَلْيَاءِ، بَيْتُ،
وَلَوْلَا حُبُّ أَهْلِكَ مَا أَتَيْتُ
أَلَا يَا بَيْتُ، أَهْلُكَ أَوْعَدُوْنِيْ
كَأَنِّي كُلُّ ذَنْبِهِمُوْا جَنَيْتُ
أَلَا بَكَرَ العَوَاذِلُ وَاسْتُمِيْتُ
وَهَلْ أَنَا خَالِدٌ إِمَّا صَحَوْتُ؟

[استميت: أي صادوني، بعد أن طلبوني].

إِذَا مَا فَاتَنِيْ لَحْمٌ غَرِيْضٌ
قَطَعْتُ ذِرَاعَ بَكْرِيْ فَاشْتَوَيْتُ
وَكُنْتُ إِذَا أَرَى زِقًّا مَرِيْضاً
يَنَاحُ عَلَى جِنَازَتِهِ بَكَيْتُ
أُرَجِّلُ لِمَّتِي وَأَجُرُّ ثَوْبِي
وَتَحْمِلُ شِكَّتِي أُفُقٌ كُمَيْتُ

[الشكة: السلاح؛ وأفق: المشرف الشديدة].

أُمَشّي فِيْ دِيَارِ بَنِي غُطَيْفٍ
إذَا مَا شَاءَنِيْ أَمْرٌ أَبَيْتُ

وَسَوْدَاءِ المَحَاجِرِ، إِلْفِ صَخْرٍ
تُلَاحِظُنِيْ التَّطَلُّعَ قَدْ رَمَيْتُ

وَمَاءٍ لَيْسَ مِنْ عَدٍّ رَوَاءٍ
وَلَا مَاءَ السَّمَاءِ قَدِ اسْتَقَيْتُ

وَتَامُوْرٍ هَرَقْتُ، وَلَيْسَ خَمْراً
وَحَبَّةِ غَيْرِ طَاحِنَةٍ قَضَيْتُ

[تامور: أي دم].

وَلَحْمٍ لَمْ يَذُقْهُ النَّاسُ قَبْلِيْ
أَكَلْتُ عَلَى خَلَاءٍ وَانْتَقَيْتُ

وَبَرْكٍ قَدْ أَثَرْتُ بِمَشْرَفِيِّ
إِذَا مَازَلَّ عَنْ عُقْرٍ، رَمَيْتُ

[البرك: الإبل الباركة، والعقر: مواقع أيديها من الحوض].

مَتَى يَأْتِنِي يَوْمِيْ تَجِدْنِيْ
شُفِيْتُ مِنَ اللَّذَاذَةِ، واشْتَفَيْتُ»[1]

والقصيدة لها بقية في مراجع أخرى، ومنها: شرح شواهد المغني، والطرائف والخزانة، وقد تتابعت الصور الجميلة هنا وهناك، فسجلت فخره، وما يرى أنه محل اعتزاز.

***

٤٠- وتستمر القصائد تترى، في بعضها تماثل في النهج، وفي بعضها اختلاف؛ بعضها يبدأ بالغزل، وبعضها يذهب الشاعر فيه رأساً إلى هدفه؛ فإن تغزل تفنن في الإتيان بأبيات مبتدعة، وآراء جديدة في بعض مظاهرها، وتلمس منها مدخلًا إلى غرضه، مثلما جاء في القصيدة الأربعين، وابتدأها قيس بن الحدادية، بقوله:

---

(١) كتاب الاختيارين: ٢١١.

«إِنَّ الفُؤَادَ قَدْ أَمْسَى هَائِماً كَلِفَا
قد شَفَّهُ ذِكْرُ سَلْمَى اليَوْمَ فَانْتَكَسَا»[1]

ومنها يدلف إلى وصف بعيره، وصفاً دقيقاً، بديعاً، ثم وصف الوحش وصيده.

***

٤٢- أما مالك بن حريم الهمذاني، فيبدأ قصيدته الثانية والأربعين بذكر الشيب، وهذا يدخله في الغزل مدخلًا سهلًا، ثم يعدد مناقبه، ويصل إلى تعداد أربع خصال يقول عنها:

«وَإِنْ يَكُ شَابَ الرَّأْسُ مِنّي، فَإِنَّنِي
أَبَيْتُ عَلَى نَفْسِي مَنَاقِبَ أَرْبَعَا
فَــوَاحِــدَةٌ أَلَّا أَبِيْــتَ بِغِــرَّةٍ
إذَا مَا سَوامُ الحَيِّ حَوْلِيْ تَصَوَّعَا

(١) كتاب الاختيارين: ٢٢٢.

وَثَـانِيَـةٌ أَلَّا تُقَـذِّعَ جَـارَتِـي
إِذَا كَانَ جَارُ القَوْمِ فِيْهِمْ مُقَذَّعَا

[القذع: الفحش].

وَثَـالِثَـةٌ أَلَّا أُصَمِّـتَ كَلْبَنَـا
إِذَا نَزَلَ الأَضْيافُ حِرْصَاً لِنُوْدَعَا
وَرَابِعَـةٌ أَلَّا أُحَجِّـلَ قِـدْرَنَـا
عَلَى لَحْمِهَا، حِيْنَ الشِّتَاءِ، لِنَشْبَعَا»[1]

[نحجل: نخبىء تحت الحجلة، والحجلة موضع مثل القبة، يتخذ للعروس].

ويستمر في الفخر مُعَدِّداً للأنواع التي أتى منها، ولا ينسى وصف جودة فرسه، وأصالتها.

ويأتي بصورة جديدة، لم تمر بنا، وهي تعطي فكرة عن عادة من عاداتهم، وهي أنهم يخلعون نعال العبيد حتى لا يقودوا الخيل في الأماكن

(١) كتاب الاختيارين: ٢٣٤.

الصعبة، فتحفى أقدامها، بل يسيرون متوخين السهل، يقول في هذا:

«وَنَخْلَعُ نَعْلَ العَبْدِ مِنْ سُوْءِ قَوْدِهِ
لِكَيْلَا يَكُوْنَ العَبْدُ لِلسَّهْلِ أَضْرَعَا»(١)

وصورة أخرى عجيبة، وهو اهتمامه بما قد يقوله الضيف عن ما في قدره، وهل هو غث ما فيه من لحم، أو سمين، وأنه يريه إياه ليتأكد منه بعينيه:

«وَلَا يَسْأَلُ الضَّيْفُ الغَرِيْبُ إِذَا شَتَا
بِمَا زَخَرَتْ قِدْرِيْ بِهِ حِيْنَ وَدَّعَا
فَإِنْ يَكُ غَثّاً أَوْ سَمِيْنًا فَإِنَّنِي
سَأَجْعَلُ عَيْنَيْهِ لِنَفْسِهِ مَقْنَعَا»(٢)

***

(١) كتاب الاختيارين: ٢٣٦.
(٢) كتاب الاختيارين: ٢٣٩.

٤٣- والقصيدة الثالثة والأربعون لعامر بن معشر، يقول الأصمعي إنها للمفضل النكري، وتسمى المنصفة، لأن الشاعر أنصف الأعداء عندما وصف شدة بأسهم في اللقاء الذي كان بينهما؛ وهذه القصيدة تشبه في بعض مجاريها قصيدة عبدالشارق بن عبدالعزى الجهني، ومطلعها:

«تَنَادَوْا: يَالبَهْثَةَ يَوْمَ صَبْرٍ
فَقُلْنَا: أَحْسِنِي ضَرْباً جُهَيْنَا»(١)

أما عامر، أو المفضل، فقد بدأ قصيدته بالمطلع الآتي:

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ جِيرَتَنَا اسْتَقَلُّوا
فَنِيَّتُنَا وَنِيَّتُهُمْ فَرِيقُ»(٢)

[فريق: أي متفرقون، مختلفون].

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٤٧٣، إطلالة على التراث: ١١/ ٣٥٧.
(٢) كتاب الاختيارين: ٢٤١.

ثم سرعان ما يدخل في الغزل، وسرعان ما يخرج منه إلى هدفه الأساس، فيصف لقاءهم مع عدوهم، والمكان الذي مروا به، والمكان الذي دارت فيه المعركة، ثم يمدح قومه على صبرهم، وعلى مداومتهم المقاومة، وما بدا منهم من شجاعة، ثم دخل فيما اعتبر إنصافاً، فقال:

«تَلاَقَيْنَا بِسَبْسَبِ ذِيْ طُرَيْفٍ
وَبَعْضُهُمُ عَلَى بَعْضٍ حَنِيْقُ
فَجَاؤُا عَارِضاً بَرِداً وَجِئْنَا
كَمِثْلِ السَّيْلِ أَنَّ بِهِ الطَّرِيْقُ

[العارض: السحاب يعترض الأفق، والبرد: الذي فيه برد، و «أنَّ»: ضاق، فصار له مثل صوت الأنين].

رَمَيْنَا فِيْ وُجُوْهِهِمُ بِرَشْقٍ
تَغُصُّ بِهِ الحَنَاجِرُ والْحُلُوْقُ

كَـأَنَّ النَّبْـلَ بَيْنَهُـمُ جَـرَادٌ
تُصَفِّقُـهُ شَـآمِيَـةٌ خَـرِيْـقُ
وَجَدْنَا السِّدْرَ خَمَّاناً ضَعِيْفاً
وَكَـانَ النَّبْـعُ مَعْقِـدُهُ وَثِيْـقُ»[1]

[مقارنة بين ضعف قسي السدر، وقوة قسي النبع، وقيل: إن معناه: ذوو الأحساب والموالي، أو الدخلاء].

«وَأَلْفَيْنَـا القَنَـا حِيْنـاً خَـؤُوْنـاً
وَأَمَّـا المَشْـرَفِـيُّ فَـلَا يَلِيْـقُ»[2]

وهذا ما أشار إليه عمرو بن معدي كرب عند ما سأله عمر بن الخطاب عن السلاح، فأخذ يعدده، ويعدد فوائده، ومثالبه، فقال عن الرمح: «أخوك وربما خانك»، ومدح السيف.[3]

(١) كتاب الاختيارين: ٢٤٦.
(٢) كتاب الاختيارين: ٢٤٧.
(٣) بهجة المجالس: ٢/ ٤٦٩.

«وَبَسْلٌ مَا تَرَى فِيْهِمْ كَمِيّاً
كَبَا لِيَدَيْهِ إِلَّا فِيْهِ فُوْقُ»[1]

[فوق: يعني به السهم].

«يُقَلْقِلُ صَعْدَةً جَرْدَاءَ فِيْهَا
نَقِيْعُ السُّمِّ أَوْ قَرْنٌ مَحِيْقُ

[الصعدة: القناة المستوية، والقرن المحيق القاتل، لأنهم إذا لم يجدوا سناناً التمسوا قرون الثيران].

«فَأَلْقَيْنَا الرِّمَاحَ، وَكَانَ ضَرْباً
مُقِيْلَ الْهَامِ، كُلٌّ مَا يَذُوْقُ

[كل ما يذوق: أي كل ذاقه من الطرفين، أي نحن وهم، ومن ثَمَّ سميت: الْمُنْصِفَةَ].

ثم يقول فيما بعد في صورة رسمت بدقة:

---

(١) كتاب الاختيارين: ٢٤٧.

«كَـأَنَّ هَـزِيْـزَنَـا لَمَّـا الْتَقَيْنَـا
هَـزِيْـزُ أَبَـاءَةٍ فِيْهَـا حَـرِيْـقُ
[الأباءة: الأجمة من القصب].
بِكُـلِّ قَـرَارَةٍ مِنَّـا وَمِنْهُـمْ
بَنَـانُ فَتًـى وَجُمْجُمَـةٌ فَلِيْـقُ
فَكَـمْ مِـنْ سَيِّـدٍ مِنَّـا وَمِنْهُـمْ
بِذِي الطَّـرْفَـاءِ مَنْطِقُـهُ شَهِيْـقُ
فَأَشْبَعْنَا السِّبَاعَ، وَأَشْبَعُوهَا
فَـرَاحَـتْ كُلُّهَـا تَئِـقٌ يَفُـوْقُ
[تئق: ممتلئ، وأصابه من ذلك الفوارق].
تَـرَكْنَـا الطَّيْـرَ عَـاكِفَـةً عَلَيْهِـمْ
فَلِلْغِـرْبَـان مِـنْ شَبَـعٍ نَغِيْـقُ
[النغيق: صوت الغراب].
فَـأَبْكَيْنَـا نِسَـاءَهُـمُ وَأَبْكَـوْا
نِسَـاءًا مَـا يَسُـوْغُ لَهُـنَّ رِيْـقُ

يُجَاوِبْنَ النِّيَاحَ بِكُلِّ فَخْرٍ
فَقَدْ صَحِلَتْ مِنَ النَّوْحِ الحُلُوقُ

[صحل: بُحَّ].

تَرَكْنَا الحَارِثَ الوَضَّاحَ مِنْهُم
كَأَنَّ سَوادَ لِمَّتِهِ العُذُوْقُ

تعَاوِرُهُ رِمَاحُ بَنِيْ حُيَيٍّ
فَزَلَّ كَأَنَّهُ سَيْفٌ ذَلُوْقُ

[الذلوق المحدد القاطع].

وَقَدْ قَتَلُوا بِهِ مِنَّا غُلاماً
كَرِيْماً لَمْ تَأَشَّبْهُ العُرُوْقُ

[تأشبه: أي لم تشب دماءه دماء رديئة].

وسَائِلَةٍ بِثَعْلَبَةَ بْنِ سَيْرٍ
وقَدْ عَلِقَتْ بِثَعْلَبَةَ العُلُوقُ

[العلوق: الداهية].

فَظَلَّ يُخَالِسُ المَذَقَاتِ فِيْمَا
يُقَادُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ رَبِيْقُ

[المذقات: الطائفة من اللبن، والربيق: المشدد بالربقة، وهي الحبل المعد لذلك].

وَأَفْلَتَنَا ابْنُ قَرَّانٍ جَرِيْضاً
تَمُرُّ بِهِ مُسَاعِفَةٌ مَزُوْقُ

[الجريض: المغموم، شديد الهم، ومساعفة فرس كأنها عقاب، والمزوق التي تمزق الأرض بجريها].

ثم ينهي القصيدة بالأبيات الآتية:

فَلَمَّا اسْتَيْقَنُوا بِالصَّبْرِ مِنَّا
تُذُكِّرَتِ العَشَائِرُ وَالْحَدِيْقُ

[الحديق: الحدائق والبساتين].

فَأَبْقَيْنَا، وَلَوْ شِئْنَا تَرَكْنَا
لُجَيْماً لَا تَقُوْدُ وَلَا تَسُوقُ

وَأَنْعَمْنَــا وَأَبْــأَسْنَــا عَلَيْهِــمْ
لَنَـا فِـيْ كُـلِّ أَبْيَـاتٍ طَلِيْـقُ»[1]

***

٤٤- أما القصيدة الرابعة والأربعون فهي لثعلبة بن عمرو من بني شيبان، ومن أجمل الصور فيها الصورة الواردة في الأبيات الآتية:

«أَخِـيْ وَأَخُـوْكَ بِبَطْـنِ المَسِيْـ
ـبِ لَيْسَ بِهِ مِنْ مَعَدٍّ عَرِيْبُ
أَقْسَــمَ يُنْـذِرُ نَــذْراً دَمِــي
وأَقْسَمْـتُ إِنْ نِلْتُـهُ لَا يَـؤُوْبُ
فَــأَقْبَـلَ نَحْـوِيْ عَلَــى قُـدْرَةٍ
فلَمَّـا دَنَـا صَـدَّقَتْـهُ الكَـذُوْبُ

[الكذوب: نفسه].

---

(١) كتاب الاختيارين: ٢٥٢.

أَمَــالَ بِهَــا كَفَّــهُ مُــدْبِــراً
وَهَلْ يُنْجِيَنَّكَ رَكْضٌ وَعِيْبُ

[أمال بها: أي الفرس].

فَــأَرْدَفْتُــهُ كَصَفَــاةِ المَسِيْـ
ـلِ، لَمْ يَتَلَمَّسْ حَشَاهَا طَبِيْبُ
وَأَتْبَعْتُــــهُ طَعْنَــــةً ثَــــرَّةً
يَسِيْلُ عَلَى النَّحْرِ مِنْهَا صَبِيْبُ
فَــإِنْ قَتَلَتْــهُ فَلَــمْ آلُــهُ
وإِن يَنْجُ مِنْهَا، فَجُرْحٌ رَغِيْبُ

[آله: أدع جهداً].

وَإِنْ يَلْقَنِــيْ بَعْــدَهَــا يَلْقَنِــيْ
عَلَيْهِ مِنَ الذُّلِّ ثَوْبٌ قَشِيْبُ»[1]

* * *

(١) كتاب الاختيارين: ٢٥٣-٢٥٧.

٤٦- أما مسور بن عبدالملك بن سعيد بن يربوع المخزومي في القصيدة السادسة والأربعين، فبدأ أبياته عن الصيد، وجاء بصور جميلة، ثم ذكر قراه للضيف، ومدح سيفه ووصفهُ، وأول القصيدة البيت الآتي:

«وَهَادِيَةٍ قَعَدْتُ لَهَا سَبِيلَا
فَجَاءَتْ وَهِيَ نَافِرَةٌ تَجُولُ»(١)

***

٥٠- وفي القصيدة الخمسين يقول النمر بن تولب:

«سَلَا عَنْ تَذَكُّرِهِ، تكْتُمَا
وَكَانَ قَدِيماً بِهَا مُغْرَماً»(٢)

«تكْتُمَا»: اسم امرأة، واستهل القصيدة

(١) كتاب الاختيارين: ٢٥٩.
(٢) كتاب الاختيارين: ٢٧٦.

بذكرها، ومخاطبتها، ليدخل بعد ذلك، وبعد عزوفهِ عنها إلى الغرض الرئيس من أبيات، فيذكر بعض الحكم؛ فيقول مثلًا:

«وَأُوْصِي الفَتَى بِابْتِنَاء العُلَا
ءِ، أَلَّا يَخُـوْنَ وَلَا يَـأْثَمَـا
وَيَلْبَـسَ لِلـدَّهْـرِ أَجْـلَالَـهُ
فَلَـنْ يَبْنِـيَ النَّـاسُ مَـا هَـدَّمَـا
وَأَحْبِـبْ حَبِيْبَـكَ حُبًّا رُوَيْـداً
لِئَـلَّا يَعُـولَـكَ أَنْ تَصْـرِمَـا

[يعولك: يشق عليك].

وَأَبْغِضْ بِغَيْضَكَ بُغْضاً رُوَيْداً
إِذَا أَنْـتَ حَـاوَلْـتَ أَنْ تَحْكُمَـا

هذه تذكر بما على لسان الناس دائماً، مما ألفوه، وتلقاه التلاميذ في فصول دراستهم الأولى:

«أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون عدوك يوما ما، وأبغض عدوك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما».

وَإِنْ أَنْـتَ لاقَيْـتَ فِـيْ نَجْـدَةٍ
فَـلَا يَتَهَيَّبْـكَ أَنْ تُقْـدِمَـا
فَـإِنَّ المَنِيَّـةَ مَـنْ يَخْشَهَـا
فَسَـوفَ تُصَـادِفُـهُ أَيْنَمَـا
وَإِنْ تَتَخَطَّـأْكَ أَسْبَـابُهَـا
فَـإِنَّ قُصَـارَاكَ أَنْ تَهْـرَمَـا»[1]

ثم يدخل في أغراض أخرى، فيها صور دقيقة.

***

٥١- وقالت برة بنت الحارث الكنانية ترثي ابناً لها في مطلع أبياتها في القصيدة المؤثرة،

(١) كتاب الاختيارين: ٢٨٠.

وهي الواحدة والخمسون :

«يَا عَمْرُو مَا بِي عَنْكَ مِنْ صَبْرِ
يا عَمْرو، يَا أَسَفَا عَلَى عَمْرِو»[1]

ثم تستمر في أبيات حزينة، تعدد ما مر عليها معه من رعايتها له، وعنايتها، وتربيتها له إلى أن سلبه الموت منها، وبعد توجع مُبكٍ تختم قصيدتها بقولها :

«لَا يُبْعِدَنْكَ اللهُ يَا عَمْرُو
إمَّا مَضَيْتَ فَنَحْنُ بالإِثْرِ
هذِي سَبِيلُ النَّاسِ كُلِّهِمُ
لابُدَّ سَالِكُهَا عَلَى صُغْرِ[2]
أوَ لَا تَرَاهُم فِيْ دِيَارِهِمُ
يتَوَقَّعُون، وَهُمْ عَلَى ذُعْرِ

(١) كتاب الاختيارين : ٢٨٧ .
(٢) الصغر : الذلة والقهر .

وَالْمَـوْتُ يُـوْرِدُهُـمْ مَـوارِدَهُ
قسْراً، فَقَدْ ذُلُّوا عَلَى القَسْرِ»[1]

***

٥٢- والثانية والخمسون لتأبط شراً، وهو ثابت بن جابر بن سفيان، وكان مطلوباً من لحيان بثأر، فحصروه في جبل؛ وظنوا أنهم أمكنوا منه، ولكنه أفلت منهم، وفاتهم، وفي قصيدته صور لحياته، وما يراه من نظرة إلى جوانب الحياة، ومن هذه القصيدة يقول:

«إِذَا المَرْءُ لَمْ يَحْتَلْ، وَقَدْ جَدَّ جِدُّهُ
أَضَاعَ وَقَاسَى أَمْرَهُ وَهُوَ مُدْبِرُ
ولٰكِنْ أَخُو الحَزْمِ الَّذِيْ لَيْسَ نَازِلاً
بِهِ الأَمْرُ إِلَّا وَهُوَ لِلأَمْرِ مُبْصِرُ

(١) كتاب الاختيارين: ٢٩٣.

فذَاكَ قَرِيْعُ الدَّهْرُ مَا عَاشَ حُوَّلٌ
إذَا سُدَّ مِنْهُ مَنْخِرٌ جَاشَ مَنْخِرُ»[1]

وبهذا مهد لوصف إفلاته من محاصريه، وما عرضه عليهم عندما حاصروه، ورفضهم عرضه المنصف، وحيلته في الهرب التي يقول عنها، واصفاً كيف صب العسل، وانزلق عليه من الجبل حتى السفح، ونجا:

«فَرَشْتُ لَهَا صَدْرِيْ، فَزَلَّ عَنِ الصَّفَا
بِهِ جُؤجُؤٌ عَبْلٌ وَمَتْنٌ مُخَصَّرُ
فَخَالَطَ سَهْلَ الأَرْضِ لَمْ يَكْدَحِ الصَّفَا
بِهِ كَدْحَةً وَالْمَوْتُ خَزْيَانُ يَنْظُرُ
فَأُبْتُ إِلَى فَهْمٍ، وَمَا كِدْتُ آيِباً
وكَمْ مِثْلَهَا فَارَقْتُهَا وَهِيَ تَصْفِرُ»[2]

(١) كتاب الاختيارين: ٢٩٥.
(٢) كتاب الاختيارين: ٢٩٦.

٥٨- والقصيدة الثامنة والخمسون لعمرو ابن معديكرب وهي قصيدة جامعة، وأولها:

«أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيْعُ
يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِيْ هُجُوعُ»[١]

ومن أشهر أبيات هذه القصيدة بيت هو دائماً على الألسن يتمثل به، في الحالات التي ينطبق عليه مدلولها:

«إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئاً فَدَعْهُ
وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيْعُ
وَصِلْهُ بِالزِّمَاعِ، فَكُلُّ أَمْرٍ
سَمَا لَكَ أَوْ سَمَوْتَ لَهُ وَلُوْعُ»[٢]

[الزماع: الجد والعزم. ولوع: لزوم وتعلق].

***

(١) كتاب الاختيارين: ٣٦٣.

(٢) كتاب الاختيارين: ٣٦٩.

٦٣- وتزيد قيمة أبيات أي قصيدة عندما تدخلها الحكمة، وتصاغ صياغة دقيقة، ولهذا يكثر متناقلوها، ويسارع المتكلمون إلى الاستشهاد بها، وطالبوا قبول الحجة إلى الوقوف في ظلها، والقصيدة الثالثة والستون قيل إنها للسموءل، وقد جاء فيها بِحِكمٍ مضيئة، يخاطب فيها ربّة خدر، فيقول:[1]

«سَلَا رَبةَ الخِدْرِ مَا شَأْنُهَا؟
وَمِنْ أَيِّ مَا فَاتَنَا تَعْجَبُ؟
فَلَسْنَا بِأَوَّلِ مَنْ فَاتَهُ،
عَلَى رِفْقِهِ، بَعْضُ مَا يَطْلُبُ
وَكَائِنْ تَضَرَّعَ مِنْ خَاطِبٍ
تَزَوَّجَ غَيْرَ الَّتِي يَخْطُبُ
وَزُوِّجَهَا غَيْرُهُ، دُونَهُ
وَكَانَتْ لَهُ قَبْلَهُ تُحْجَبُ

(١) كتاب الاختبارين: ٣٩٩.

وَقَدْ يُدْرِكُ المَرْءُ غَيْرُ الأَرِيْبِ
وقَـدْ يُصْـرَعُ الحُـوَّلُ القُلَّـبُ
أَلَمْ تَرَ عُصْمَ رُؤُوْسِ الشَّظَى
إِذَا جَـاءَ قَـانِصُهَـا تُجْلَـبُ؟[1]
إِلَيْـهِ، وَمَـا ذَاكَ عَـنْ إِرْبَـةٍ
يكُـوْنُ بِهَـا قَـانِـصٌ يَـأْرَبُ»[2]

***

٦٥- والقصيدة الخامسة والستون لدريد ابن الصمة، وهي قصيدة قوية، وهي عن الحرب، والفرسان، وفيها أبيات مشهورة، وهي على الألسنة، سارت مع الركبان؛ ومنها قوله عندما رأى رأيا صائباً، فلم يأخذ به قومه، وقد رأوا صحته فيما بعد، وما كان تصرفه معهم:[3]

(١) العصم: الوعول. الشظي: رؤوس الجبال.
(٢) كتاب الاختيارين: ٣٩٩.
(٣) كتاب الاختبارين: ٤٠٩

«وَلَمَّا رَأَيْتُ الخَيْلَ قُبْلًا كَأَنَّهَا
جَرَادٌ تَبَارَى وِجْهَةَ الرِّيْحِ مُقْتَدِي
أَمَرْتُهُم أَمْرِيْ بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى
فَلَمْ يَسْتَبِيْنُوا الرُّشْدَ إِلَّا ضُحَى الغَدِ
فَلَمَّا عَصَوْنِي كُنْتُ مِنْهُمْ، وَقَدْ أَرَى
غَوَاتَهُمُ، وَأَنَّنِيْ غَيْرُ مُهْتَدِي
وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةَ إِنْ غَوَتْ
غَوَيْتُ، وَإِنَّ تَرْشُدْ غَزِيَّهُ، أَرْشُدِ»

***

٧٠- والقصيدة السبعون لعمرو بن قميئة، وفيها وصف لحرب بينه وبين قوم، ووصف دقائقها، وجاء في آخرها ما يشبه سير قصيدة عبدالشارق، التي مرت، يقول في بعض أبياتها:[١]

(١) كتاب الاختبارين: ٤٤٠

«نبَذْنَا إِلَيْهِمْ دَعْوَةً: يَالَمَالِكٍ
لَهَا إِرْبَةٌ إِنْ لَمْ تَجِدْ مَنْ يُرِيْحُها
فَسُرْنَا إِلَيْهِمْ سَوْرَةً، أَوْهَنَتْهُمْ
وَأَسْيَافُنَا يَجْرِيْ عَلَيْهَا نُضُوحُهَا
وأَرْمَاحُنَا يَنْهَزْنَهُمْ نَهْزَ جَمَّةٍ
يَعُوْدُ عَلَيْهِمْ وِرْدُنَا وَنَمِيْحُهَا
فَدَارَتْ رَحَانَا سَاعَةً وَرَحَاهُمُ
وَدَرَّتْ طِبَاقاً بَعْدَ بَكْءٍ لُقُوْحُهَا

[البكء: قلة الدِّرَّة].

فَمَا أَتْلَفَتْ أَيْدِيْهُمُ مِنْ نُفُوسِنَا
وَإِنْ كَرُمَتْ، فَإِنَّنَا لَا نَنُوحُهَا
فَقُلْنَا: هِيَ النُّهْبَى وَحَلَّ حَرَامُهَا
وَكَانَتْ حِمَى مَا قَبْلَنَا فَنُبِيْحُهَا
فَأُبْنَا ، وَآبُوا، كُلُّنَا بِمَضِيْضَةٍ
مُهَمَّلَةً أَجْرَاحُنَا وَجُرُوْحُها»

٦٥- وعمرو بن قميئة في المقطوعة الخامسة والسبعين، يصف مواقف، ويصل منها إلى أبيات جميلة عن السن، وتقدمها، يقول فيها:

«كَأَنِّي وَقَدْ خَلَّفْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً
خَلَعْتُ بِهَا عَنِّي عِذَارَ لِجَامِ
رَمَتْنِي بَنَاتُ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى
فَمَا بَالُ مَنْ يُرْمَى وَلَيْسَ بِرَامِي
فَلَوْ أَنَّهَا نَبْلٌ إِذًا لَاتَّقَيْتُهَا
وَلٰكِنَّنِي أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامِ
إِذَا مَا رَآنِي النَّاسُ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ
حَدِيداً، جَدِيدَ البَزِّ، غَيْرَ كَهَامِ
وأَفْنَى وَمَا أُفْنِي مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً
وَلَمْ يُغْنِ مَا أَفْنَيْتُ سِلْكَ نِظَامِ
وَأَهْلَكَنِي تَأْمِيلُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
وَتَأْمِيلُ عَامٍ، بَعْدَ ذَاكَ، وَعَامِ»(١)

(١) كتاب الاختبارين: ٤٦٥

٨٨- والشيب ضعف غير مرحب به، والشعراء قالوا عنه شيئاً كثيراً، بيّنوا فيه شعورهم نحوه، لما يفقدونه بسببه، وهذا أعرابي يدلي بدلوه فيه، في القصيدة الثامنة والثمانين، يقول:

«أَلَا قَالَتِ الْحَسْنَاءُ يَوْمَ لَقِيتُهَا
كَبِرْتَ، وَلَمْ أَجْزَعْ مِنَ الشَّيْبِ مَجْزَعَا
رَأَتْ ذَا عَصاً، يَمْشِي عَلَيْهَا، وَشَيْبَةً
تَقَنَّعَ مِنْهَا رَأْسُهُ مَا تَقَنَّعَا
فَقُلْتُ لَهَا: لَا تَهْزَئِي بِي، فَقَلَّمَا
يَسُوْدُ الفَتَى حَتَّى يَشِيبَ وَيَصْلَعَا
وَلَلْقَارِحُ اليَعْبُوْبُ خَيْرٌ عَلَالَةً
مِنَ الجَذَعِ المُزْجَى، وَأَبْعَدُ مَنْزَعَا»[1]

❊ ❊ ❊

(١) كتاب الاختبارين: ٥٣٦، عن الشيب انظر: «المشيب وصوره» إطلالة على التراث: ١٥/ ١٧٨.

٨٩- وفي القصيدة التاسعة والثمانين يُروى للمساور بن هند أبيات جميلة عن ذهاب الشباب، وحلول الشيب محله، يقول فيها:

«أَوْدَى الشَّبَابُ، فَمَا لَهُ مُتَقَفَّرُ
وفَقَدْتُ إِخْوَانِي فَأَيْنَ المَغْبَرُ

[متقفر: متتبع. والمغبر: البقاء].

وَأَرَى الغَوَانِيْ، بَعْدَمَا وَاجَهْنَنِيْ
أعْرَضْنَ، ثُمَّتَ قُلْنَ: شَيْخٌ أَعْوَرُ
ورَأَيْنَ رَأْساً صَارَ وَجْهاً كُلَّهُ
إلَّا قَفَاهُ، وَلِحْيَةً مَا تُضْفَرُ
ورَأَيْنَ شَيْخاً قَدْ تَحَنَّى صُلْبُهُ
يمْشِيْ فَيُقْعِسُ، أَوْ يُكِبُّ فَيعْثُرُ»[1]

***

(١) كتاب الاختيارين: ٥٣٧

٩٣- والمثقب العبدي له في الأبيات الثالثة والتسعين صور بديعة، وأفكار رصينة، وحكم بالغة، مع نغمة راقصة، سببها الوزن والقافية، يقول فيها: (١)

«ذَادَ عَنِّيْ النَّوْمَ هَمّ بَعْدَ هَمّ
وَمِنَ الهَمِّ عَنَاءٌ وَسَقَمْ
طَرَقَتْ طَلْحَةُ رَحْلِيْ بَعْدَمَا
نامَ أَصْحَابِيْ، وَلَيْلِيْ لَمْ أَنَمْ
طَرَقَتْنَا، ثُمَّ إِذْ أَتَتْ
مرْحَباً بِالزَّوْرِ، زَوْراً إِذْ أَلَمّ
ضرَبَتْ، لَمَّا اسْتَقَلَّتْ، مَثَلَا
قوْلَهم: «فِيْ بَيْتِهِ يُؤْتَى الحَكَمْ»
فأَجَبْنَا بِصَوابٍ قَوْلَهَا
«مَنْ يَجُدْ يُحْمَدْ، وَمَنْ يَبْخَلْ يُذَمّ

(١) كتاب الاختبارين: ٥٥٦

لَا تَقُــولَــنَّ إِذَا مَــا لَــمْ تُــرِدْ
أنْ تُتِمَّ الْوَعْدَ فِيْ شَيْءٍ نَعَمْ
فَإِذَا قُلْتَ: نَعَمْ فَاصْبِرْ لَهَا
بِنَجَاحِ الوَعْدِ، إِنَّ الخُلْفَ ذَمّ

وزاد المحقق في الهامش من الأنباري والتبريزي البيتين الآتيين:

«حَسَنٌ قَوْلُ: «نَعَمْ» مِنْ بَعْدِ: «لَا»
وقَبِيْـحٌ قَـوْلُ «لَا» بَعْـدَ «نَعَـمْ»
إِنَّ «لَا» بَعْـدَ «نَعَـمْ» فَـاحِشَـةٌ
فَبِـ «لَا» فَابْدَأْ إِذَا خِفْتَ النَّدَمْ

ويأتي بعد ذلك في التبريزي الأبيات الصادقة الآتية:

وَاعْلَـمْ أَنَّ الـذَمَّ نَقْـصٌ لِلْفَتَـى
وَمَتَــى لَا يَتَّــقِ الــذَّمَّ يُــذَمّ

أَكْـرِمِ الجَـارَ، وَارْعَـى حَقَّـهُ
إِنَّ عِرْفَانَ الفَتَى الْحَقَّ كَرَمْ
أَنَا بَيْتِيْ مِنْ مَعَدٍّ فِيْ الذُّرَى
وَلِيَ الهَامَةُ، وَالْفَرْعُ الأَشَمّ
لَا تَـرَانِـي رَاتِعـاً فِـيْ مَجْلِـسٍ
فِيْ لُحُومِ النَّاسِ كَالسَّبْعِ الضَّرِمْ
إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْشِرُ لِيْ
حِيْنَ يَلْقَانِيْ، وَإِنْ غِبْتُ شَتَمْ
وكَـلَامٍ سَيِّـئٍ قَـدْ وُقِـرَتْ
أُذُنِيْ عَنْهُ، وَمَا بِيْ مِنْ صَمَمْ
فتَعَـدَّيْـتُ ، خَشَـاةً أَنْ يَـرَى
جَـاهِـلٌ أَنِّـيْ كَمَـا كَـانَ زَعَـمْ
ولَبَعْضُ الصَّفْحِ وَالإِعْرَاضِ عَنْ
ذِيْ الخَنَا أَبْقَى، وَإِنْ كَانَ ظَلَمْ

ويختمها بقوله:

أَجْعَلُ المَالَ لِعِرْضِيْ جُنَّةً
إنَّ خَيْرَ المَالِ مَا أَدَّى الذِّمَم»[1]

***

١٠٠- والقصيدة التي تكمل المئة في هذا المجموع هي لرجل مشهور، شهرته هذه القصيدة، التي قيل أن جرسها ونظمها أغرى بزيادة أبياتها من الرواة، وأن أصلها ثلاثة عشر بيتاً فقط، وقيل عنها إن مالك بن الريب لم يرث نفسه فيها، وإنما رثته الجن، وشهرتها جاءت من قوتها، والصور الجميلة التي رسمت فيها، ومطلعها:

«أَلَا لَيْتَ شِعْرِيْ هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً
بِجَنْبِ الغَضَى أُزْجِيْ القِلَاصَ النَّوَاجِيَا»[2]

---

(١) كتاب الاختبارين: ٥٥٧

(٢) كتاب الاختبارين: ٦٢٠

وتبدأ الأبيات المؤثرة بقوله:

تَقُولُ ابْنَتِي لَمَّا رَأَتْ وَشْكَ رِحْلَتِي:
مَسِيْرُكَ هَذَا تَارِكِي لَا أَبَالِيَا
تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ
سِوَى السَّيْفِ وَالرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ بَاكِيَا
وَأَشْقَرَ خِنْذِيْذٍ يَجُرُّ عِنَانَهُ
إِلَى المَاءِ، لَمْ يَتْرُكْ لَهُ الْمَوْتُ سَاقِيَا
وَلَكِنْ بِأَكْنَافِ السَّمِيْنَةِ نِسْوَةٌ
عَزِيْزٌ عَلَيْهِنَّ الْعَشِيَّةَ مَا بِيَا
صَرِيْعٌ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ بِقَفْرَةٍ
يُسَوُّوْنَ لَحْدِي حَيْثُ حُمَّ قَضَائِيَا
ولَمَّا تَرَاءَتْ عِنْدَ مَرْوٍ مَنِيَّتِي
وطَالَ بِهَا سُقْمِي وَحَانَتْ وَفَاتِيَا
أَقُوْلُ لأَصْحَابِي: ارْفَعُونِي، فَإِنَّنِي
يقَرُّ بِعَيْنِي أَنْ سُهَيْلٌ بَدَا لِيَا

فَيَا صَاحِبَيْ رَحْلِيْ دَنَا الْمَوْتُ، فَانْزِلَا
بِـرَابِيَـةٍ، إِنِّـي مُقِيْـمٌ لَيَـالِيَـا
أَقِيْمَا عَلَيَّ، الْيَوْمَ، أَوْ بَعْضَ لَيْلَةٍ
وَلَا تَعْجَلَانِيْ، قَدْ تَبَيَّنَ مَا بِيَا
وَقُوْمَا، إِذَا مَا اسْتُلَّ رُوْحِيْ فَهَيِّئَا
لِيَ السِّدْرَ، وَالأَكْفَانَ عِنْدَ فَنَائِيَا
وَخُطَّا بِأَطْرافِ الأَسِنَّةِ مَضْجَعِيْ
وَرُدَّا عَلَى عَيْنَيَّ فَضْلَ رِدَائِيَا
وَلَا تَحْسُدَانِيْ، بَارَكَ اللهُ فِيْكُمَا
مِنَ الأَرْضِ، ذَاتِ العَرْضِ، أَنْ تُوْسِعَا لِيَا
خذَانِيْ، فَجُرَّانِيْ بِبُرْدِيْ، إِلَيْكُمَا
فَقَدْ كُنْتُ، قَبْلَ الْيَوْمِ، صَعْباً قِيَادِيَا»

وبعد هذا الطلب المؤثر، والنغمة الحزينة، والرغبات النهائية في هذه الحياة، التي بينت تواضع مالك في ما يريده، عند اقتراب موته،

وانتباهه لبعض الأمور الدقيقة التي لا يهتم بها إلا من يقترب من القبر، فيخلط بين ما يحرص عليه الحي رغم أنه سيكون ميتاً، ويتكلم عما مر به في حياته من نشاط في المجالات الأخرى، ثم يعود سريعاً إلى مخاطبة مشيعيه، فيقول:

فَقُوْمَا عَلَى بِئْرِ الشُّبَيْكِ، فَأَسْمِعَا
بِهَا الوَحْشَ، وَالبِيْضَ الحِسَانَ الرَّوَانِيَا
بِأَنَّكُمَا خَلَّفْتُمَانِي بِقَفْرَةٍ
تَهِيْلُ عَلَيَّ الرِّيْحُ فِيْهَا السَّوَافِيَا
ولَا تَنْسَيَا عَهْدِيْ، خَلِيْلَيَّ، إِنَّنِيْ
تَقَطَّعُ أَوْصَالِيْ، وَتَبْلَى عِظَامِيَا
ولَنْ يَعْدَمَ البَانُوْنَ بَيْتاً يُجِنُّنِيْ
ولَنْ يَعْدَمَ المِيْرَاثَ مِنِّي المُوَالِيَا
يَقُوْلُونَ: لَا تَبْعَدْ، وَهُمْ يَدْفِنُوْنَنِيْ
وأَيْنَ مَكَانَ البُعْدِ، إِلَّا مَكَانِيَا؟

غَداةَ غَدٍ، يَا لَهْفَ نَفْسِيْ، عَلَى غَدٍ
إِذَا أَدْلَجُوا عَنِّيْ، وَأَصْبَحْتُ ثَادِيَا»[١]

***

١٠١- والقصيدة وهي تمام المئة والواحد لعلقمة بن عبدة التميمي، وفيها حديث مسهب عن الظليم والنعامة وفراخهما، والبيض، وهو وصف دقيق؛ وكثير من الشعراء يحلو له الحديث عن النعام، تشبيهاً له، أو تشبيها به، أو يتخذ مدخلًا لفكرة يمهد به لها، أما هنا فالاختلاف جاء من الإسهاب، وأول القصيدة:

«هَلْ مَا عَلِمْتَ، وَمَا اسْتَوْدَعْتَ، مَكْتُومُ؟
أَمْ حَبْلُهَا، إِذْ نَأَتْكَ؛ الْيَوْمَ مَصْرُوْمُ»[٢]

ثم بعد الحديث عن النعام يدخل في الحكمة يجملها بعض الصفات الحسنة، والفضائل

(١) كتاب الاختبارين: ٦٢٦
(٢) كتاب الاختبارين: ٦٣٠

الجميلة، فيقول في بعض الأبيات:

«وَالْحَمْدُ لَا يُشْتَرَى إِلَّا لَهُ ثَمَنٌ
مِمَّا يَضِنُّ بِهِ الأَقْوَامُ مَعْلُوْمُ
وَالْجُوْدُ نَافِيَةٌ لِلْمَالِ مَهْلَكَةٌ
وَالبُخْلُ مُبْقٍ لأَهْلِيْهِ وَمَذْمُوْمُ
وَالمَالُ صُوْفُ قَرَارٍ، يَلْعَبُوْنَ بِهِ
عَلَى نَقَادَتِهِ وَافٍ وَمَجْلُوْمُ
وَالجَهْلُ ذَا عَرَضٍ، لَا يُسْتَرَادُ لَهُ
وَالحِلْمُ آوِنَةً فِيْ النَّاسِ مَعْدُوْمُ
وَمُطْعَمُ الغُنْمِ، يَوْمَ الغُنْمِ، مُطْعَمُهُ
أَنَّى تَوَجَّهَ وَالمَحْرُوْمُ مَحْرُوْمُ
وَكُلُّ حِصْنٍ، وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ
عَلَى دَعَائِمِهِ، لَابُدَّ مَهْدُوْمُ»(١)

* * *

(١) كتاب الاختبارين: ٦٣٩

والقصيدة الثانية بعد المئة لعلقمة بن عبدة أيضاً ويبدؤها بالبيت الآتي:

«طَحَابِكَ قَلْبٌ، فِيْ الحِسَانِ طَرُوْبُ
بُعَيدَ الشَّبَابِ، عَصْرَ حَانَ مَشِيْبُ»[1]

والأبيات المشهورة هي الأبيات التي تأتي على صيغة حِكَم، صاغتها التجارب، مثل الآتي:

«فَإِنْ تَسْأَلِيْنِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي
خَبِيْرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيْبُ
إِذَا قَلَّ مَالُ الْمَرْءِ، أَوْ شَابَ رَأْسُهُ
فَلَيْسَ لَهُ فِيْ وُدِّهِنَّ نَصِيْبُ
يُرِدْنَ ثَرَاءَ المَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ
وَشَرْخُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيْبُ»

***

(١) كتاب الاختبارين: ٦٤٧

١٠٤- والقصيدة الرابعة بعد المئة لأبي خراش، خويلد بن مرة ومطلعها:

«لَعمْرِيْ لَقَدْ رَاعَتْ أُمِيْمَةَ طَلْعَتِيْ
وإِنَّ ثَـوائِـيْ عِنْـدَهَـا لَقَلِيْـلُ»

وفيها وصف لصيد الوحش، وألفاظه جزلة قوية، وقد انتقل بعد صيد الوحش، إلى وصف الصقر وصيده.

وفي هذا يقول:

«وَلَا أَمْعَرَ السَّاقَيْنِ ظَلَّ كَأَنَّهُ
علَى مُحْزَئِلَّاتِ الإِكَامِ نَصِيْلُ

[الأمعر الذي لا ريش على ساقيه؛ محزئلات: مجتمعات].

رَأَى أرْنَباً مِنْ دُوْنِهَا غَوْلُ أَشْرُجٍ
بعِيْدٌ، عَلَيْهِنَّ السَّرَابُ يَحُوْلُ

[الغول: البعد. الشروج: شقوق في الحرة؛ يحول: يزول].

فَضَمَّ جَنَاحَيْهِ، وَمِنْ دُوْنِ مَا يرَى
بِلَادٌ، وُحُوْشٌ: أَمْرُعٌ وَمُحُوْلُ

[وحوش: بلاد يسكنها الوحوش].

تُـوَائِـلُ مِنْـهُ بِـالضَّـرَاءِ كَـأَنَّهَـا
سَفَاةٌ، لَهَا فَوْقَ التُّرَابِ زَلِيْلُ

[الضراء: الشجر. زليل: تزل].

يُقَرِّبُهُ النَّهْضُ النَّجِيْحُ لِمَا يرَى
وَمِنْـهُ بُـدُوٌّ مَـرَّةً وَمُثُـولُ

[مثول: ذهاب].

فَأَهْوَى لَهَا فِيْ الْجَوِّ، فَاخْتَلَّ قَلْبُهَا
صَيُوْدٌ لِحَبَّاتِ الْقُلُوْبِ قَتُوْلُ»

❊❊❊

١١٣ - والقصيدة الثالثة عشرة بعد المئة لعدي ابن زيد العبادي، يبدؤها بقوله:

أَرَوَاحٌ مُـــوَدِّعٌ أَمْ بُكُـــوْرُ
لَكَ؟ فَاعْمَدْ، لأَيِّ حَالٍ تَصِيْرُ

وفيها من الأبيات المشهورة، وهي ما يدور على الألسن، قوله:

أَيُّهَا الشَّامِتُ المُعَيِّرُ بِالدَّهر
أَأَنْـــتَ المُبَـــرَّأُ المَـــوْفُـــوْرُ
أَمْ لَدَيْكَ العَهْدُ الوَثِيْقُ، مِنَ الأَيَّـ
ـامِ، أَمْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُوْرُ
مَنْ رَأَيْتَ المَنُوْنَ عَرَّيْنَ، أَمْ مَنْ
ذَا عَلَيْـهِ مِـنْ أَنْ يُضَـامَ خَفِيْـرُ

[عرين: اعتزلن].

أَيْنَ كِسْرَى، كِسْرَى المُلُوْكِ أَنُوْشِرْ
وَانَ، أَمْ أَيْـنَ قَبْلَـهُ سَـابُـوْرُ

وبَنُو الأصْفرِ الكِرَامِ، مُلُوْكُ الْـ
ـرُوْمِ، لَمْ يَبْقَ مِنهُمُ مَذْكُوْرُ
وأَخُوا الحَضْرِ، إِذْ بَنَاهُ، وَإِذْ دِجْـ
ـلَةٌ تُجْبَي إِلَيْـهِ، وَالخَـابُـوْرُ
شَـادَهُ مَـرْمَـراً، وَخَلّلَـهُ كِلْـ
ـساً، فَلِلطَّيْرِ فِيْ ذُرَاهُ وُكُوْرُ
لَمْ يَهَبْهُ رَيْبُ المَنُوْنِ، فَبادَ الْـ
ـمُلْـكُ عَنْـهُ، فَبَـابُـهُ مَهْجُـوْرُ
وتَبَيّنْ رَبَّ الْخَوَرْنَقِ، إِذْا أَشْـ
ـرَفَ، يَوْماً، وَلِلْهُدَى تَفْكِيْرُ
سَـرَّهُ مُلْكُـهُ، وَكَثْـرَةُ مَـا يَمْـ
ـلِكُ، وَالْبَحْرِ مُعْرِضاً، والسَّدِيْرُ
فارْعَوى قَلْبُهُ، وَقَالَ: فَمَا لَـ
ـذَّةُ حَيٍّ إِلَى المَمَاتِ يَصِيْرُ
ثُمَّ بَعْدَ الفَلَاحِ، وَالرُّشْدِ، وَالْـ
إِمَّةِ، وَارَتْهُمُ، هُنَاكَ، القُبُوْرُ

ثُـمَّ أَضْحَـوا كَـأَنَّهُـمْ وَرَقٌ جَـ
ـفَّ، فَأَلْوتْ بِهِ الصَّبَا والدَّبُوْرُ[1]

هذه نظرات سريعة في كتاب «الاختيارين» القيم، اقتُطِف زهرة من هنا، وزهرة من هناك، وما بقي أكثر، وربما بقي في بعض أغراض الشعر ما هو أكثر فائدة، وأوسع متعة، إلا أن مجال المقالة استوفى أكثر من حقه، ولا بد من الوقوف عند حد، وما هذا إلا استذاقة طعم، وشم زكاء رائحة، لعله يجلب من يستطعم لذيد الطعم، زاكي الرائحة؛ ومن المفيد أن نتذكر أن هذا الكتاب احتوى على بعض ما درسه أحد خليفتين، رؤي أن فيه حسن تربيتهما، ويمكننا، بالنظر إلى ما احتواه، أن نعرف مستوى الثقافة التي يصل إليها أبناء الخلفاء، خلفاء المستقبل؛ وهذا يفسر لنا ما يأتي في مجالسهم،

(١) كتاب الاختبارين: ٧٠٨

مما يكشف عن عمق ثقافتهم، وغزارة معلوماتهم، وما يأتون به من ردود قوية عند الحِجَاج، وما يبدر منهم من ملاحظة ذكية على قولٍ نابٍ في شعر، أو كلمة زاغت عن محلها في نثر؛ وما يأتي منهم أحياناً، على سبيل الاختبار لجلسائهم، والوافدين عليهم، من التساؤل عن أمور عويصة، جوابها عندهم.

***

الفهارس

(١) فهرس المواضيع حسب ورودها ٤٦٢

(٢) فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء ٤٦٣

(٣) فهرس الأسماء ٤٦٤

(٤) فهرس الأماكن ٤٧٠

(٥) فهرس المراجع والمصادر ٤٧١

(٦) فهرس الأبيات الشعرية ٤٧٥

***

(١)

فهرس المواضيع
حسب ورودها

* المقـــدمـة ٥
* السباع والطير في الحروب ٢٩
* المـــرأة ٩٩
* العمـــل ١٩٨
* النصائح عقود من اللؤلؤ ٢٦١
* جـــولة في كتــاب ٣٣٦

***

(٢)

فهرس المواضيع
حسب حروف الهجاء

* جـــولة في كتاب ٣٣٦

* السباع والطير في الحروب ٢٩

* العمــــل ١٩٨

* المـــــرأة ٩٩

* المقـــدمـة ٥

* النصائح عقود من اللؤلؤ ٢٦١

***

(٣) فهرس الأسماء

(أ)

ابن البعيث: ١٧١
ابن حبناء: بلعاء بن قيس بن عبدالله ابن يعمر بن عوض الكناني: ٤٠٢
ابن رافع: ٣٦٦
أبو الأبيض العبسي: ٤٨، ٤٩
أبو أروى: ٤٠٢
أبو أوس: شمله: ٥٣
أبو زيد الطائي: ٣٣
أبو جعفر المنصور: ٣٣٦
أبو حاتم بن محمد بن إدريس الحنظلي: ٢٦٣
أبو رافع: ٢٢٢، ٢٢٣
أبو هريرة: ٣٣٢
أبي بن خلف: ٦٠
أحمد بن مشرف: ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٤، ٧٧
الأخفش الصغير: ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٩
الأخفش بن شهاب التغلبي: ٣٧٣، ٣٩٦
الأصمعي: ١٧٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ٣٣٦، ٤٢٢
أعصر: (طفيل بن عوف): ٣٣٧، ٣٣٩
الأعور بن يزيد الكلابي: ٤٠٤
أفلاطون: ٢٥٣
أفنون صريم بن معشر التغلبي: ٤١١
الأفوه الأودي: (صلاء بن عمر): ٣٤٥
آل البيت: ٨٠
أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان: ١١٢، ١١٣، ١١٧
أمرؤ القيس بن بحر الزهيري: ٥٢، ٥٣
أمرؤ القيس: ٣٤٢، ٣٦٩
أم سنان بنت خيثمة بن خرشة المذحجية: ١٩١
أم كلثوم بنت عبدالله بن عامر بن كريز: ١٤٦
الأمويون: ٨٠
الأمين: ٣٣٦
أنس بن مالك: ٢٣٣، ٢٥٦
الأنصار: ٢٣٣، ٢٥٤
أوس بن مالك الجرمي (ملاعب الأسنة): ٥٥
أوس بن النمر بن قاسط: ٦٠، ٦١

(ب)

بشر الأشتر الهلالي: ١٦٣، ١٦٥، ١٦٨، ١٧٠
بحشل القاري: ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩
برة بنت الحارث الكنانية: ٤٣٣
بزرجمهر: ٢٥١
البستي: ٢٦٢
بشر بن سلوة: ٤٠٥
بنانة: ٣٧٣
بنت ذؤيب بن حلحلة الخزاعي: ١١٢
بنو أسيد: ٤٠٨

بنو جمح: ٦٠
بنو حيي: ٤٢٧
بنو سعد: ١١١
بنو ضبة: ٣٩٢
بنو عبدالقيس: ٢٢٠، ٢٢١
بنو عبد مناف: ١٩١
بنو العنبر: ٣٩٩
بنو غراب: ٣٩٧
بنو غطيف: ٤١٧
بنو فزارة: ١٧٠
بنو فهم: ٤٣٦
بنو كلاب: ٣٥٦
بنو كلب: ٨٧
بنو كنه: ١٧٨، ١٧٩
بنو لام: ٣٦٣
بنو لحيان: ٤٣٥
بنو ليث: ١٩١
بنو مذحج: ١٩٢
بنو هلال: ١٦٢، ١٧٠
بهرام جور: ١٤١، ١٤٢

(ت)

تابط شرّاً: ٩، ٣٤، ٥٠، ٤٣٥
تكتما: ٣٤١
الإمام تركي بن عبدالله: ٧١
تمير بن قحيف الهلالي: ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٠

(ث)

ثعلبة بن سير: ٤٢٧
ثعلبة بن عمر الشيباني: ٤٢٩

(ج)

الجاحظ: ١٨٦، ٢٤٣
جساس: ٣٦٦
جعفر بن يحيى بن خالد: ١٨٤

(ح)

الحادرة: عاصم بن منظور: ٣٤٤
الحارث بن ظالم: ٤٠٩
الحارث بن كنده: ١٧٨
الحارث الوضاح: ٤٣٧
الحارث بن مسهر الغساني: ٣٩١
حبة بن الفضل: ١١١، ١١٧
حبيب بن عوف العبدي: ٤٧
حبيب بن المهلب بن أبي صفرة: ١١١
حرقة بنت النعمان بن المنذر: ١٢٠، ١٢١
حسان بن أبان البعلبكي: ١٢٠
حسان بن ثابت: ٣٤٤
الحسن بن علي: ٥٦
الحسن بن محمد بن اسحاق: ١٨٧
الحسين بن علي: ٤٦
حضرمي بن عامر الأسدي: ٣٩٣
الحطيئة: ١٠٩
حمزة الزيات: ٢٣٢
حمزة بن عبدالمطلب: ٨٠
حميد بن ثور الهلالي: ٤٥
حمير: ٨٧

حيـداء الهـلاليـة: ١٦٣، ١٦٥، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠

(خ)

خالد بن صفوان: ١٥٤، ١٥٦، ١٥٧، ١٦١
الملك خالد بن عبدالعزيز: ٦٥
خديج (خادم عبدالملك): ١٤٨
أبو خراش: خويلد بن مرة: ٤٥٥
خضم: ٤٠٨
الخطاب بن المعلى المخزومي القرشي: ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧٠، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩١، ٣٠٦، ٣٢٨
خولة: ٣٤٧، ٣٤٨
خولي بن مالك الراسي: ١١١
خويلة: ٣٥٦

(د)

داوود، عليه السلام: ٢٥٨
دريد بن الصمة: ٤٣٩
دلهـــم: ٣٦٣

(ذ)

ذو الرئاسئين: ١٤٠، ١٤١، ١٤٥
ذو الرمة: ٥٨

(ر)

أبو رافع: ٢٢٢، ٢٢٣
ربيع بن علياء السلمي: ٣٨٢
الرسول، صلى الله عليه وسلم: ١٠٣، ١٠٤، ١٥٩، ١٩٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٥٤، ٣٣٢
رميلة: ٣٦٥، ٣٦٦
روح بن حرب السمسار: ١٢٤
ريـــا: ١٨٠

(ز)

أبو زبيد: حرملة بن المنذر بن معد يكرب: ٩٠
زهير بن مالك الجرمي: ٥٥

(س)

سعد بن أبي وقاص: ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤
سعد بن حذافة: ١٩١
سعيد بن العاص: ١٩٤
سلمى بنت ظالم: ٤٠٩
سلمى: ٣٧٦، ٣٧٧
سلمى: ٣٦٨، ٣٧٠
سلمى المذحجية: ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠
أم سلمة: ١٥٦، ١٥٨، ١٦١
سنان بن أبي حارثة: ٤٠٩
سمية: ٣٤٤
سوداء: ٣٩٢
سوار بن المضرب السعدي: ٣٥٦

(ش)

شريح بن قرواش العبسي: ٦٥
الشنفرَى: ٩، ٣٤، ٥٠
شيبة بن ربيعة بن عبد شمس: ٨٠

(ض)

ضبيعة بن ربيعة: ٣٧٣
ضمرة بن ضمرة النهشلي: ٩٥

(ط)

طريف العنبري: ٤٠٦، ٤٠٨
طفيل بن عوف (أعصر): ٣٣٧، ٣٣٩
طحة: ٤٤٥
ابن عثمان: طلحة بن أبي طلحة: ٨٠
طـيء: ١٧٠، ٣٩٧

(ع)

عاتكة بنت عبدالمطلب: ٤٩
عاتكة بنت يزيد بن معاوية: ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨
عامر بن جوين: ٣٦٤، ٣٦٨
عامر بن صعصعة: ٥٩
عامر بن معشر (من بني عبد القيس): ٨٨، ٤١٩، ٤٢٢
آل العباس: ١٠٨، ١٠٩
أبو العباس السفاح: ١٥٤، ١٥٦
عباس بن مرداس السلمي: ٩٢
عبدالرحمن بن أبي عطية الحمصي: ٢٦٣
عبدالشارق بن عبدالعزى الجهني: ٤٢٢، ٤٤٠
الملك عبدالعزيز: ١١، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩
عبدالعزيز بن سلمة الماجشون: ٢٦٦
عبدالله بن طاهر: ٢٤٣
عبدالله بن عبدالله بن فضالة الزهراني: ١١٤، ١١٧
أبو عبدالله الواقدي: ١٠٢
بنو عبد مناة: ٨٧
عبده بن الطيب التميمي: ٣٤٧
عبدالملك بن مروان: ١١٢، ١١٣، ١٢٠، ١٤٦، ١٤٩
عبيدالله بن العباس: ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩
ابنة عبيد بن كلاب النميري: ١١٦، ١١٨
عبيدة السلماني: ١٧٨، ١٨٠
العتبي: ١٨١
عدي الطائي: ١٤٦
عدي بن زيد: ١٢٢
عدي بن زيد العبادي: ٤٥٧
عروة بن الورد: ٢٩، ٢٤٧
أم عقيل: ١٧٤
علباء بن أرقم: ٤١٢
علقمة بن عبدة التميمي: ٩١، ٣٤٢، ٤٥٢
علي بن الحسين الحفظي: ٧٠
علي بن أبي طالب: ٥٦، ٨٠، ١٩٢، ١٩٦، ٢٥٥
أبو عمار: ٣٦٤، ٣٦٥
عمارة بن صفوان بن الحارثة: ٣٩٨
عمرو بن جني التغلبي: ٣٠٧
ابن عمار بن الحارث: ٤٠٩
عمر بن بلال الأسدي: ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩
عمر بن الخطاب: ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٥٠، ٤٢٤

عمرو بن الإطنابة: ٣٨٣، ٣٨٦
عمرو بن جعدة بن فهد بن عبدالله الخزاعي: ٥٧
عمرو بن العاص: ٢١٤
عمرو بن عقبة: ٢٤٦
أبو عمرو: ٣٦٦
عمرو بن قعاس المرادي: ٤١٥
عمرو بن قميئة: ٤٤٠، ٤٤٢
أم عمرو: ٣٩١، ٣٩٢
عمرو بن معد يكرب: ٤٢٤، ٤٣٧
عمـــير: ٣٣٨
عوف بن لأي: ٣٩٥
عنـــترة: ٣٥، ٧٤، ٧٦، ٨١، ٨٢، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٩٦

(ف)

فخر الدين قباوة: ٣٣٦
بنو فراس: ٦٣
أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني الحريري: ١٩٦
الفرزدق: ٧٩
فروق: ٤١٠، ٤١١
فيصل بن تركي: ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٧

(ق)

ابن قران: ٤٢٨
قريش: ١٦٠، ٣٧٣
قسامة (قسام) بن رواحة السنبسي: ٥٨
القطران السعدي: ٣٦٥
قيس بن الحدادية: ٤١٨

(ك)

كسرى: ١٥٠، ١٥١، ٢٢٧
كشاجم: ٣٤٤
كعب بن الحارث الغطيفي: ٥٩
كعب بن زهير: ٣٥٥
كليب: ٣٦٦
الكميت بن زيد: ٨٠

(ل)

اللجلاج: ٩٠
ليلى: ٣٩٧

(م)

مالك بن حريم الهمذاني: ٤١٩
مالك بن خالد بن صخر الشريد: ٦٣
مالك بن زغبه الباهلي: ٣٧٦، ٤١٠
مالك بن الريب: ٤٤٨، ٤٥٠
مالك بن القين الخزرجي: ٣٨٧
مالك بن نويرة: ٩٠
المأمون: ٢١٢
المثقب العبدي: ٤٤٥
المثلم بن حذافة بن غانم: ٦٠
الشاعر محمد بن عبدالله بن عثيمين: ٦٦، ٦٧
محمد بن ليلي: ١٢٥
محرز بن المعكبر الضبي: ٩٤
محمد بن المنذر بن سعيد: ٢٦٣
مخرم بن زياد الحارثي: ٦١، ٦٢
آل المرار: ١٠٨، ١٠٩
مرحب اليهودي: ٨٠

المركش الأكبر: ٩٣
مروان بن الحكم: ١٩١، ١٩٤
المساور بن هند: ٤٤٤
مسور بن عبدالملك بن يربوع المخزومي: ٤٣١
مصعب بن الزبير: ٧٩
أبو أسامة: معاوية بن زهير الحشمي: ٨٩
معاوية بن أبي سفيان: ١٠٥، ١٠٦، ١٠٩، ١٤٧، ١٤٨، ١٩١، ١٩٦
المغيرة بن المهلب: ١١١
المفضل النكري: ٨٨
المفضل الضبي: ٣٣٦، ٣٣٧، ٤٢٢
المناذرة: ٣٦٥
منصور بن عمار: ١٨٢
المهدي: ٣٣٦
المهلب بن أبي صفرة: ١١٠، ١١١
موقعة بدر: ٨٩

(ن)

قبيلة نمير: ٦١
النمر بن تولب: ٤٣١
النعمان بن المنذر: ٣٦٤، ٤١٢، ٤١٤، ٤١٥

(هـ)

هارون الرشيد: ١٨٢، ٣٣٦
بنو هاشم: ١٠٢، ١٠٨
ابن هانئ الأندلسي: ٧٨
هبيرة بن أبي وهب: ٨٩
هشام بن محمد بن السائب الكلبي: ١٥٠
هلال بن العلاء الرقاء: ٢٥٨
هند بن خالد بن صخر بن الشريد السلمي: ٦٣
هنـد: ٣٦٩
الهيثم بن عدي: ١٢٤

(و)

الوليد بن عتبة: ٨٠

(ي)

يحيى بن خالد: ١٠٥
يزيد بن الصامت الشني: ٣٨٩
يزيد بن الصعق الكلابي: ٦٣
يزيد بن عمرو الحنفي: ٣٧٩
يزيد بن معاوية: ١٤٧، ١٤٨
اليشكري: ٣٧٢
اليمان بن عمر: ١٤٠
اليماني: ١٤٥
يوم الحفير: ٧٠

* * *

(٤) فهرس الأماكن

الأهـواز: ٣١٢
البصـرة: ١٤٤، ٣١١، ٣١٣
أجا: ٧٣، ٣٦٩، ٣٧٠
أحـد: ٨٠
ألأهـواز: ١١١
بسل: ٤٢٥
البصرة: ١١٥
بيت الشبيك: ٤٥١
جندي سابور: ١١٤
الحجاز: ٣٧٤
حـذنـة: ٩٤، ٩٥
الحضر: ٤٥٨
الحمـاه: ٣٧٠
الخابور: ٤٥٨
خراسان: ١١٠، ١١١، ١٤٠
الخورنق: ٤٥٨
خـيبر: ٣٧٤
دار الطيالسة: ١٢٤
دجـلة: ٤٥٨·
دمشـق: ١١٢
رسـتقاباذ: ١١٠
الـرقـة: ١٨٢
السدير: ٤٥٨
سـنبس: ٣٧٠
السوس: ١١٤
ضـربة: ٥٨
الطائف: ٥٨
العرقوب: ٥٩، ٦٠
عمان: ٣٥٧
غلغلة: ٣٧٠
القادسية: ١٢٠
كثروة: ٦٤
كـدي: ٦٤
الكـوفة: ١٢٦
مجيرات: ٩٤، ٩٥
المدينة: ١٥٥
مـرو: ١١١
مشوط: ٣٧٠
مكـة: ٦٤
موقعة بدر: ٨٩
موقعة البكيرية: ٩٨
موقعة السبلة: ٦٧
اليمامة: ١٥٥
اليمن: ٣٥٧
يوم مبايض: ٤٠٨

❊ ❊ ❊

(٥) فهرس المراجع والمصادر

١ - **كتاب الاختيارين**

صنعة: الأخفش الأصغر

تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة

مؤسسة الرسالة: الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ/١٩٨٤م

٢ - **إطلالة على التراث**

الدكتور عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

مطبعة سفير: ١٤١٤-١٤١٨هـ/١٩٩٣-١٩٩٧م - الرياض

٣ - **بهجة المجالس وأنس المجالس، وشحذ الذهن والهاجس**

لأبي عمر، يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري

تحقيق: محمد مرسي الخولي

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية: ١٩٨١م

٤ - **التعازي والمراثي**

لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد

تحقيق: محمد الديباجي

دار صادر - بيروت - الطبعة الثانية: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م

٥ - **الجليس الصالح الكافي، والأنيس الناصح الشافي**

لأبي الفرج المعافَى بن زكريا النهرواني الجريري

تحقيق: إحسان عباس

عالم الكتب - الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ/١٩٩٣م

٦ - **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**

لأبي زيد محمد بن الخطاب القرشي

تحقيق: الدكتور محمد علي الهاشمي

١٤٠١هـ/١٩٨١م

٧ - **ديوان أحمد بن علي بن مشرف**

عناية: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري
إحياء التراث الإسلامي - دولة قطر

٨ - **ديوان ذي الرمة (غيلان بن عقبة العدوي)**

شرح: أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي
تحقيق: عبدالقدوس أبو صالح
مؤسسة الإيمان - بيروت: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

٩ - **ديوان عنترة بن شداد**

تقديم: كـرم البسـتاني
دار بيروت للطباعة والنشر: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م

١٠- **ديوان النابغة الذبياني**

تحقيق: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور
نشر الشركة التونسية للتوزيع - الجزائر: ١٩٧٦م

١١- **ديوان النبط (مجموعة من الشعر العامي في نجد)**

جمع وضبط: خالد بن محمد الفرج
المكتبة الأهلية بالرياض

١٢- **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**

لأبي حاتم محمد بن حيان البستي
تحقيق: محمد عبدالرزاق حمزة، ومحمد حامد الفقي
دار الكتب العلمية - بيروت: ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م

١٣- **شرح ديوان الحماسة**

لأبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي
تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد
مطبعة حجازي - القاهرة: ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م

١٤- شرح ديوان الفرزدق
تحقيق: عبدالله إسماعيل الصاوي
المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - الطبعة الأولى: ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م

١٥- الشعر والشعراء
لابن قتيبة
تحقيق: أحمد محمد شاكر
دار المعارف: ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م

١٦- صحيح البخاري
لمحمد بن إسماعيل البخاري
استانبول - تركيا: ١٩٧٩م

١٧- الطرائف الأدبية
جمع وتخريج عبدالعزيز الميمني
دار الكتب العلمية - بيروت.

١٨- العقد الثمين من شعر محمد بن عثيمين
الطبعة الثالثة: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

١٩- عيون الأخبار
لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري
دار الكتب العلمية - بيروت

٢٠- لباب الآداب
للأمير أسامة بن منقذ
تحقيق: أحمد محمد شاكر
دار الجبل - بيروت - الطبعة الأولى: ١٤١١هـ/١٩٩١م

٢١- المحاسن والأضداد
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تقديم الدكتور: عاصم عيتاني
دار إحياء العلوم - بيروت - الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٢٢- **محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء والبلغاء**

للراغب الأصفهاني

اختصار: إبراهيم زيدان

دار الآثار - بيروت

٢٣- **المستطرف في كل فن مستطرف**

لشهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح الأبشيهي

تحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية: ١٤٠٤هـ/١٩٨٦م

٢٤- **معجم الشعراء**

لأبي عبيدالله محمد بن عمران المرزباني

مكتبة المقدسي - الطبعة الثانية

دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

٢٥- **المفضليات**

تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر: ١٣٦١هـ

❊ ❊ ❊

(٦) فهرس أبيات الشعر

(أ)

وليس الرزق عن طلب حثيث	ولكن أدل دلوك في الدلاء	٢٤٦

(ب)

صحا قلبي الغداة عن التصابي	وبدل لهوه طول انتصاب	٣٩٧
ما زال إهداء الهواجر بيننا	شتم الصديق وكثرة الألقاب	٣٩٣
فلله قوم مثل قومي سوقة	إذا اجتمعت عند الملوك العصائب	٣٧٥
سلا ربة الخدر ما شأنها	ومن أي ما فاتنا تعجب	٤٣٨
سقى جرع الموت ابن عثمان بعدما	تعاورها منه وليد ومرحب	٨٠
لا أجتني الذنب للمولى لأحرمه	ولا أضيع لطول النطفة الحسبا	٣٩٧
بالعقر دار من خميلة هيجت	سوالف حب في فؤادك منصب	٣٣٩
إن الذي يرتب	متاعه لا يتعب	٢٣
وراحت لطير الجو عيشي ونقري	ونادي وحوشا في مكامنها سغبا	٦٨
أضحوا هدايا السباع تنوشهم	تنوبهم يوما وتعتادهم غبا	٦٧
كأن عيون الوحش حول خبائنا	وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب	٣٤٣
توكل على الرحمن في الأمر كله	ولا ترغبن في العجز يوما عن الطلب	٢٥٩
وقد أغتدي والطير في وكناتها	وماء الندى يجري على كل مذنب	٣٤٢
إذا التقيت الأعادي يوم معركة	تركت جمعهم المغرور ينتهب	٨٤
ملأنا الأرض من قتلى نمير	برغم كان منا في القلوب	٦٢
لا أسمعن بلوم تعذلين به	مخافة الشر إن الشر مرهوب	٣٨٠
أخي وأخوك ببطن المسيـ	ـب ليس به من معد عريب	٤٢٩
طحا بك قلب في الحسان طروب	بعيد الشباب عصر حان مشيب	٤٥٤

(ت)

ألا يا بيت بالعلياء بيت	ولولا حب أهلك ما أتيت	٤١٦

(ح)

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم	إن التشبه بالرجال فلاح	٢٩٦
تركت ضراراً بين عان مكبل	وبين قتيل غاب عنه النوائح	٨١
ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا	من المال يطرح نفسه كل مطرح	٢٤٤
دعا الطير حتى أقبلت من ضرية	دواعي دم مهراقة غير نازح	٥٨
ألا من مبلغ الأحلاف عني	فقد تهدى النصيحة للنصيح	٣٨٣

(د)

فينا معاشر لن يبنوا لقومهم	وإن بنى قومهم ما أفسدوا عادوا	٣٤٥
فلا هطلت علي ولا بأرضي	سحائب ليس تنتظم البلادا	١١٩
ولما رأيت الخيل قبلا كأنها	جراد تبارى وجهة الريح مقتدي	٤٤٠
عزب الرقاد فمقلتي لا ترقد	والليل يصدر بالهموم ويورد	١٩٢
وموسد تحت التراب وغيره	فوق التراب يئن غير موسد	٨٧
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا	وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا	١٠٩
فأقررت عيني حين ظلوا كأنهم	ببطن الإياد خشب أثل منضد	٩٠
إذا أنت أعطيت الغنى ثم لم تجد	بفضل الغنى ألفيت مالك حامد	٣٩٢
إذا أنت حملت الخؤون أمانة	فإنك قد أسندتها شر مسند	٣٨٧
وأغيد ميال على حنو رحله	تشبهه من آخر الليل هدهدا	٤٠١
فيا لك من يوم الحفير وما بدا	لريدة من طول الغمام المشيد	٧٠
إني امرؤا أعرف المعروف ذو حسب	سمح إذا ما رد القوم المقاصيد	٣٨٢
ساندوه حتى إذا لم يرده	شد أجلاده على التسنيد	٩١
ساندوه حتى إذا لم يروه	شد أجلاده على التسنيد	٣٣

(ر)

وخمس امية من لابته عزي لها	خلاه لهجاف السباع مزار	٩٧
والطير ظل فوقنا يوم صلنا	يرجى يمانينا وعدلات الأنظار	٩٨
نحن قدنا الخيل قد انقطعت	شدن الأفلاء عنها والمهار	٣٨
أودى الشباب فما له متقفر	وفقدت إخواني فأين المغبر	٤٤٤
زعمت أمامة أنني قد سؤتها	ولقد أنى لي أن أسوء وأكبرا	٣٧١
إذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه	شكى الفقر أو لام الصديق فأكثرا	٢٢٩
إذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه	شكى الفقر أو لام الصديق فأكثرا	٢٤٧

فلــولا مــوقــف ظلــت عليــه	مــوقفــة القــوائــم أم أجــرى	٨٩
فسر في بلاد الله والتمس الغنى	تعش ذا بسار أو تموت فتعذرا	٢٣٧
فمــا أعتقــوا الا بلجــة مــزبــد	من البحــر يعلــو موجــه جازر	٧٣
تظــل عليــه سغــب الطيــر عكفــاً	معــودة أن القبيــل لهــا جــزر	٧٠
وبالسيف قد خلفت في القفر منهمو	عظاما ولحما للنسور الكواسر	٨٤
كم فارس غادرت يأكل لحمه	ضاري الذئاب وكاسرات الأنسر	٧٦
بجيش يغيب الشمس عثير خيله	ويحمده بعد اللقا الذئب والنسر	٦٨
وأقســم لــولا درعــه لتــركتــه	عليه عواف من ضباع وأنسر	٦٥
أعميــر إن أبــاك غيــر رأســه	مــر الليــالــي واختــلاف الأعصــر	٣٣٨
وإذا غــزوت تحــوم عقبــان الفــلا	حولي فتطعم كبد كل غضنفر	٧٦
وعبد يغوث تحجل الطير حوله	قد احتزّ عرشيه الحسام المذكر	٥٩
لا تقبــرونــي إن قبــري محــرم	عليكــم ولكــن أبشــري أم عــامــر	٣٤
لا تقبــرونــي إن قبــري محــرم	عليكــم ولكــن أبشــري أم عــامــر	٥١
في فتية صدأ الحديد عبيرهم	وخلوفهم علق النجيع الأحمر	٧٨
فروى حدود المرهفات من الدما	كمــا روت منهــا المثقفــة السمــر	٧١
يا عمرو ما بي منك من صبر	يــا عمــرو يــا أسفــا علــى عمــرو	٤٣٤
أرحنا معداً من شراحيل بعدما	أراها مع الصبح الكواكب مظهرا	٣٧
كأن التواني أنكح العجز بنته	وساق إليها حين زوجها مهرا	٢٥٩
إن للــدهــر صــولــة فــاحــذرنهــا	لا تبيتــن قــد أمنــت الشــرورا	١٢٢
ألا أبلــغ لــديــك بنــي كــلاب	وشــاعــرهــا وفــي الأقــوال غــور	٦٣
أرواح مــــــودع أم بكـــــــور	لــك فــاعمــد لأي حــال تصيــر	٤٥٧

(س)

فلو مات منهم من جرحنا لأصبحت	ضبــاع بــأكنــاف الأراك عــرائســا	٩٢
أبــك حسينــا ليــوم مصــرعــه	بالطف بين الكتائب الخرس	٤٦
إن الفؤاد قد أمسى هائماً كلفا	قد شفه ذكر سلمي اليوم فانتكسا	٤١٩
أفــاض الــدمــع قتلــى كــدي	وقتلــى بكثــروة لــم تــرمــس	٦٤

(ع)

أعــض بــانفهــا وتعــض ركنــي	كــلانــا بــاســل بطــل شجــاع	٥٥
وإن يك شاب الرأس مني فإنني	أبيت على نفسي مناقب أربعا	٤١٩

بكـــرت سميـــة بكـــرة فتمتـــع	وغـدت غـدو مفـارق لـم يـربـع	٣٤٤
أنـازلـه غـدواً فـراس بفخـرهـا	عكاظ ولم توفها الصاع شرعا	٦٣
ألا قـالـت الحسنـاء يـوم لقيتهـا	كبرت ولم أجزع من الشيب مجزعا	٤٤٣
إذا مـا عـدا يـومـا رأيت ظـلالـه	من الطير ينظرن الذي هو صانع	٤٥
أمـن ريحـانـة الـداعـي السميـع	يـؤرقنـي وأصحـابـي هجـوع	٤٣٧
مضـوا قتـلا وتشـريـدا وصلبـا	تحـوم عليهمـو طيـر وقـوع	٥٢

(ف)

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا	إذا نحـن فيهـم سـوقـة نتنصـف	١٢١
وعرفت أن من يثقفوه يتركوا	للسبع أو يصطاف شر مصيف	٥٨

(ق)

أجـارتنـا مـن يجتمـع يتفـرق	ومن يك رهنا للحوادث يغلق	٣٩٨
ألـم تـر أن جيـرتنـا استقلـوا	فنيتنـــا ونيتهـــم فـــريـــق	٤٢٢
فكـم مـن سيـد منـا ومنهـم	بـذي الطـرفـاء منطقـه شهيـق	٨٨

(ل)

ومسربل حلق الحديد مدجج	كـالليـث بيـن عـرينـه الأشبـال	٨٦
ولـرب قـرن قـد تـركـت مجـدلا	بلبـانـه كنـواضـح الجـريـال	٩٦
قطـع الـدهـر بـأسبـاب العلـل	وأعــار السهــو أيــام الأجــل	٢١٦
سايرته ساعة ما بي مخافته	إلا التلفت حولي هل أرى ذحلا	٤٧
طعنت غداة القاع شملة طعنة	تركت أبا أوس صريعاً مجدلا	٥٣
مـن مبلـغ الأقـوام أن مـرقشـا	أمسى على الأصحاب عبأ مثقلا	٩٣
فإن قلت يكفيني التواكل والأسى	فقد يطلب الرزق الذي يتوكل	٢٤٩
يـا أيهـا النـاس كـان لـي أمـل	أعجلنـي عـن بلـوغـه الأجـل	٢١٧
تضحـك الضبـع لقتلـي هـذيـل	وتـرى الـذئـب لهـا يستهـل	٥٠
من ذا يبدد بين الناس معذرتي	إن رد جـاري أبـي وهـو مقتـول	٦٢
وهـاديـة قعـدت لهـا سبيـلا	فجـاءت وهـي نـافـرة تجـول	٤٣١
لنا لقحة بالماء تغذى بناتها	إذا بركت في منزل لم تحول	٣٩٩
هل حبل خولة بعد الهجر موصول	أم أنت عنها لبعد الدار مشغول	٣٥٦

ألا ليت شعري هل يقولن فوارس	وقد حان منهم يوم ذاك قفول	٤٨
تظل عليهن القشاعم عكفا	لما عودت أن القبيل أكيل	٦٩
فعدّ عنها ولا تشغلك عن عمل	إن الصبابة بعد الشيب تضليل	٣٤٩
بها ما شئت من رجل نبيل	ولكن الوفاء بها قليل	٢٢٦
لعمري لقد راعت أميمة طلعتي	وإن ثوائي عندها لقليل	٤٥٥
والمرء ساع لأمر ليس يدركه	والعيش شح وإشفاق وتأميل	٣٥٣

(م)

طال الثواء بمأرب	وظننت أني غير رائم	٣٩٥
كأني وقد خلفت تسعين حجة	خلعت بها عني عذار لجام	٤٤٢
ظلت ضباع مجيرات يلذن بهم	وألحموهن منهم أي إلحام	٩٤
أضاء الصبح في يمن وشام	لذي عينين وانقطع الكلام	٤٠٤
ألا يا أم عمرو لا تلومي	وابقي إنما الناس هام	٣٩٢
قفا فاسمعا أخبركما إذا سألتما	محارب مولاه وثكلان نادم	٤٠٩
ولقد أمرت أخاك عمرا أمره	فعصى وضيعه بذات العجرم	٤٠٥
سلا عن تذكره تكتما	وكان قديما بها مغرما	٤٣١
أيها الجيرة اسلموا	كي تحيوا وتكرموا	١٨٠
ومدجج كره الكماة نزاله	لا ممعن هربا ولا مستسلم	٣٥
أو كلما وردت عكاظ قبيلة	بعثوا إليّ عريفهم يتوسم	٤٠٦
توسمته لما رأيت مهابة	عليه وقلت المرء من آل هاشم	١٠٨
ذاد عني النوم همّ بعد همّ	ومن الهم عناء وسقم	٤٤٥
دعوت أبا أروى إلى السلم كي يرى	برأي أصيل أو يؤول إلى حكم	٤٠٢
ألا تلكما عرسي تصد يوجهها	وتزعم في جاراتها أن من ظلم	٤١٣
تظل به غرث السباع نواهلا	وعقبانه منها وقوع وحوم	٦٦
هل ما علمت وما استودعت مكتوم	أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم	٤٥٢
عقما ورقما تظل الطير تتبعه	كأنه من دم الأجواف مدموم	٦٢
حاط لي ذمتي وأكرم وجهي	إنما يكرم الكريم الكريما	١٢٣
فكم جحفل بالمرهفات أباده	فقتلاهم مثل الهشيم هشيم	٧٧

(ن)

وقرن قد تركت لدى مكر	عليه سبائبا كالأرجوان	٨٢

وشق الصبح أخرى الليل شقا	جمـاح أغـر منقطـع العنـان	٣٦٠
فعـاذلتـي فـي سلمـى دعـانـي	فـإنـي لا أطـاوع مـن نهـانـي	٣٥٨
ألـم تـرنـي وإن أنبـأت أنـي	طويت الكشح عن طلب الغواني	٣٥٧
بلـغ حُييـا وخلـل فـي سـراتهـم	أنّ الفؤاد انطوى منهم على حزن	٤١١
وكم من فارس أضحى بسيفي	هشيم الرأس مخضوب اليدين	٨٥
تنـادوا يـا لبهثـة يـوم صبـر	فقلنـا أحسنـي ضـربـا جهينـا	٤٢٢

(هـ)

كفى حزنا أن النوى قذفت بنا	بعيداً وأن الرزق أعيت مذاهبه	٢٣٨
نبـذنـا إليهـم دعـوة يـا لمـالـك	لها إربة إن لم تجد ما يريحها	٤٤١
تركنا على العرقوب والخيل عكف	أساور قتلى لم توسد خدودها	٦٠
لقد نهيت ابن عمار وقلت له	لا تأمنن أزرق العينين والشعره	٣٦٤
وما كان طبي حبها غير أنما	يقام بسلمى للقوافي صدورها	٣٧٧
سـائـل بنـا فـي قـومنـا	وليكـف مـن شـر سمـاعـه	٤٩
فسقى وروى أرضهم بدمائهم	قتـلا وأنهلهـا بـذاك وعلهـا	٧٨
أأضعاف سلمى تلكم المتحملة	لتصـرمنـي إذ خلتـي متـدللـه	٣٦٨
فـأربـد أنهيـت الأعـادي عشـاره	وتنسى ظلولا عنك كان يعولها	٣٦٦
أبا الهجر نستنا رميلة وصلها	وعهد الغواني أن يبين خليلها	٣٦٥
مـوائـده مثـل الـربيـع لممحـل	وتشبع أصناف السباع ملاحمه	٧٤
وكـم تـركنـا هنـاك مـن بطـل	تسفي عليه الرياح في عممه	٨٨
تهيّـج مـا تهيّـج وادكـر	أيها القلب الحزين ما يكوننه	١٧٩
أما القطاة فإني سوف انعتها	نعتا يوافق نعتي بعض ما فيها	٣٦٢
قـرينتـي لا تـوقظـي بنيـه	إن تـوقظيهـا تنتحـب عليـه	١٠٦

(ي)

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة	بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا	٤٤٨
يـا سبـاع الفـلا إذا اشتعـل الحـ	ـرب اتبعيني من القفار الخوالي	٧٥
إما هلكت أبا الحسين فلم تزل	بـالحـق تعـرف هـاديـا مهـديـا	١٩٣

نبذة عن المؤلف :

- ولـد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيـزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية .
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة .
- حصـل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ .
- حصـل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ .
- عينِّ في العـام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود .
- عينِّ وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ .
- درَّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب .
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف .
- عين في عام ١٤١٦هـ وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء .

كتب صدرت للمؤلف :

- نشـر عام ١٣٩٠هـ كتاب الشيخ أحمد المنقور في التاريـخ .
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب «عثمان بن بشر» .
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب «في طرق البحث» .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيـبرس » باللغة العربية .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيـبرس » باللغة الانجليزية .
- حقق عـام ١٣٩٦هـ كتـاب « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهـر » ونشره .
- حقق كتاب : «حسن المناقب السريّة المنتزعة من السيرة الظاهرية» لشافع ابن علي ، ونشره عام ١٣٩٦هـ .
- مـن حطـب الليـل ، نشـر فـي عـام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .
- ألَّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب : «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين» .
- ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب « أي بني » في خمسة أجزاء .
- ألَّف منذ عام ١٤١٤هـ كتاب «إطلالة على التراث» الأجزاء الخمسة عشر وبين يديك الجزء السادس عشر .
- ألَّف عام ١٤١٨هـ كتاب «يوم وملك» .

التـوزيـع

تطلب الأجزاء الستة عشر من كتاب «إطلالة على التراث» والأجزاء الخمسة من كتاب «أي بني»

مـن مـؤسـسـة الجـريـسي للتـوزيـع

الـريـاض ١١٤٣١ ص . ب ١٤٠٥ - ت : ٤٠٢٢٥٦٤
جـدة ت : ٦٨٢٦١٠٥ - الـدمـام ت : ٨٢٧١٨١١
القصيم ت : ٣٦٤٤٣٦٦ - خميس مشيط ت : ٢٢٢٠٧٥٨

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ ★ الرياض

ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٩٦٠ (مـج ١٦)